دراسات أندلسية

في السياسة والاجتماع

تأليف

الدكتورة عصمت عبد اللطيف دندش

دار الغرب الإسلامي
تونس

دراسات أندلسية

في السياسة والاجتماع

تأليف

الدكتورة عصمت عبد اللطيف دندش

دار الغرب الإسلامي
تونس

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

© دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى
1430هـ - 2009 م

دار الغرب الإسلامي
العنوان: ص.ب.: 200 تونس 1015

جـــميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصـــدار الكتـــاب أو تخـــزينه في نطـــاق استـــعادة المـــعلومات أو نـــقله بأي شـــكل كـــان أو بواسطة وسائل إلكترونية أو كهروستاتية، أو أشرطة ممغنطة، أو وسائل ميكانيكية، أو الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل وغـــيره دون إذن خـــطي من الناشر.

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

دراسات أندلسية

في السياسة والاجتماع

الأندلس من خلال قضايا سياسية واجتماعية

العصر المرابطي الموحدي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾

[البقرة: 286]

أحب الناس

مقلة العين، ومهجة الفؤاد

سلوى النفس، وفرحة الأيام

يحيى . الشيماء . كريم

رعاكم الله وأصلحكم وسدد خطاكم

عصمت

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه مجموعة من القضايا والدراسات التي قدمت في ندوات علمية ما بين سنوات 1994، 2001، وهي موضوعات متنوعة يربطها زمان متقارب وإن كانت تتسم بالتركيز وعدم الإطالة، فذلك لأنها كانت محددة بوقت لا يتعدى دقائق معدودات، مما استلزم الاختصار غير المخل، ومحاولة الاجتهاد في استنباط معلومة جديدة أو تصويب خطأ شائع، أو إلقاء الضوء على أحداث كانت غامضة.

فالموضوع الأول هو عن آراء لابن حزم في طلب العلم وآدابه، وتعتبر هذه الآراء صالحة لكل عصر وكل مكان، فهو من أنصار خصوصية مجالس العلم، واختيار الطبقة التي تستوعب العلم، ويشترط أن تتمتع بأخلاق رفيعة وتحرص على احترام الأفكار والآراء، ويكون عندها استعداد لتبادل المعرفة واستيعاب الجديد والجيد من فنون العلم المختلفة. وكان يحذر من نشر العلم في غير أهله فهو: «كإطعامك العسل والحلوى لمن به احتراق وحمى، وكتشميمك المسك والعنبر لمن به صداع من احتدام الصفراء».

فالدخلاء على العلم يضرون به وبأهله، فيجب انتقاء طلبة العلم من بين فضلاء الطلبة الذين يتمتعون بالخلق وطيب المنبت، والاستعداد لمشقة طلب العلم، والذكاء وسرعة البديهة لأنهم سيكونون علماء الغد. ووضع شروطاً لطالب العلم، فكان يؤمن بجدة البحث وألا يكون مسبوقاً وأن يكون في موضوع يستحق البحث فيه، أو في شيء ناقص يكمله، أو مستغلق يشرحه، أو طويل يختصره دون الإخلال به، أو شيء أخطأ فيه مؤلفه فيصلحه.

واستطاع ابن حزم من تجربته الشخصية أن يضع منهجاً لطالب العلوم التي يجب على طالب العلم أن يلتزم بها وحدد هذه العلوم في سبعة علوم هي علم الشريعة، وعلم الأخبار، وعلم اللغة، وعلم النجوم والعدد والطب والفلسفة.

وجعل دراسة هذه العلوم على ثلاث مراحل حتى يستوعب طالب العلم مواد كل مرحلة بإتقان وفهم.

وكما اهتم ابن حزم بطالب العلم وسلوكه والعلوم التي يجب عليه الاهتمام بها، فإنه لم يغفل الصفات التي يجب أن يتحلى بها العالم. والعلوم التي يعتنى

بتدريسها للطلبة، وأن يكون قدوة يترفع عن الصغائر، وأن يحاول جهده النظر في كل العلوم بذهن صاف وعقل سليم متفتح، فيستفيد منها ويفيد، ولا يكون مجرد ناقل لأقوال الآخرين بل يكون له رأيه واجتهاده.

فآراء ابن حزم في طلب العلم وآدابه كانت سابقة لعصره بل أننا نجد الحاجة ماسة في عصرنا هذا لاتباع هذه الأفكار النيرة.

والموضوع الثاني تناولت فيه معاهد العلم والتعليم في الأندلس في عهد المرابطين إذ اهتم المرابطون بالتعليم في المساجد خصوصاً بعد ضم الأندلس للمغرب، واستقرار عدد من قبائل المرابطين بالأندلس، فاهتموا بتعليم أبنائهم، إذ كان الأندلس متفوقاً على المغرب في حلقات العلم والدرس، فكان طلبة العلم يرحلون إلى مدن الأندلس وحواضره للأخذ عن الشيوخ واستجازتهم.

يبدأ التعليم في الأندلس بالمسجد أو المحضرة، وكان الاهتمام كبيراً بهذه المرحلة لحفظ القرآن وتعلم العربية وتجويد الخط والهجاء وتعليم الصلاة وأحكامها وبعض الحساب. وكان الأندلسيون يؤثرون حفظ القرآن تبركاً وثواباً وخشية أن لا تتاح للصبي فرصة حفظ القرآن إذا تعرض الصغير للمرض أو انقطع عن التعليم فيفوته حفظ القرآن.

والتعليم في الأندلس لم يكن بالمجان، فالأطفال يتعلمون في المساجد نظير أجر يدفعونه للمعلم، وكانت نسبة التعليم عالية حتى أنه كان يتعذر أن يوجد فلاح أندلسي لا يعرف القراءة والكتابة.

وكان التعليم في المرحلة المتوسطة والعالية يستلزم نفقات كبيرة، إذ كان بعض الأساتذة يطلبون أجراً كبيراً، مما يشكل عبئاً على أبناء الطبقة الوسطى وأصحاب الحرف الذين كانوا يرون في التعليم وسيلة لفتح الأبواب أمامهم، فالعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة.

والبحث الثالث يتعلق بإحدى الأسر الأندلسية العريقة وهي أسرة بني حمدين التغلبية، والتي دخل جدهم حمدين الأندلس في طلعة بلج، وقد عرف هذا البيت بالعلم والفضل والكرم، وتقلدوا مناصب الشورى والقضاء في قرطبة، وصاهروا عدداً من الأسر الكبيرة في الأندلس مثل المنصور بن أبي عامر والقاضي أبي زكريا يحيى بن محمد القليعي وغيرهم من بيوتات الأندلس وقد حظي بيتهم بثقة أمراء المرابطين خصوصاً بعد أن استطاع قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد العزيز بن حمدين أن يخمد فتنة الأمير ابن الحاج الذي خرج على الأمير علي بن

يوسف. كما كان له دور كبير في تغريم يهود السانة غرناطة في عهد الأمير يوسف بن تاشفين. وقد فوضه الأمير يوسف بن تاشفين في اتخاذ القرار وأعطاه الصلاحية في محاسبة وسجن من يستحق من أمراء وعمال المرابطين ومصادرة أموالهم إذا لزم ذلك، وأعطاه الحرية في تقدير معاشه في منصبه.

كما كانت من الأحداث المهمة التي ارتبطت بقاضي الجماعة أبي عبد الله بن حمدين حادثة إحراق كتاب الإحياء للغزالي، فكان على رأس فقهاء قرطبة الذين أفتوا بضرورة حرق الإحياء لما يحويه من أحاديث ضعيفة ومعلومات لا يفهمها العامة مما يشكل خطورة على عقيدتهم.

وكانت المنافسة كبيرة بين أسرة بني حمدين وأسرة بني رشد في القضاء والفتيا، والقرب من أمراء المرابطين. إذ كانت هذه المناصب متبادلة بين الأسرتين، بل كان منصب القضاء يعد متوارثاً ومتداولاً بينهما.

وظهر الدور السياسي الخطير الذي لعبه القاضي أبو جعفر بن حمدين في أثناء ثورة المريدين، فقد انتهز ابن حمدين فرصة الفتن التي قامت على المرابطين وأعلن خلع دعوة المرابطين وسكن دار الإمارة بقرطبة وتلقب بأمير المسلمين وناصر الدين والمنصور بالله سنة 539هـ. لكن الأمر لم يدم له طويلاً نظراً لانتزاء العديد من المدن الأندلسية، وانتهى أمره بدخوله في طاعة الموحدين.

والموضوع الرابع فهو عن أبي بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي الوادي آشي، الذي وصفته المصادر «بالوزير الفقيه المقرئ المحدث الشاعر اللغوي، النحوي، المهندس، الطبيب واحد عصره وفريد دهره».

عاش ابن طفيل ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن، فعاش في عهد المرابطين ما يقرب من نصف قرن ثم التحق بخدمة الموحدين سنة 549هـ إلى أن توفي سنة 581هـ. كان ابن طفيل رجل السلطان وشاعر الدولة في المهمات الصعبة كما كان له تأثير كبير على الخليفة أبي يعقوب يوسف الموحدي في اختيار الكتب والعلماء. وكان أقرب الناس إليه حتى أنه لم يعد يستغني عنه، وبلغ من حظوته عند الخليفة أن رسمه في عدة مناصب يأخذ على كل منها راتباً. وكانت مجالس المذاكرة مع ابن طفيل تكاد تنسي الخليفة مسؤوليات الدولة، وتشغله عن اتخاذ القرارات الصعبة التي تستلزم صفاء الذهن والمتابعة، مما كان له تأثير سلبي على سير المعارك.

والموضوع الخامس هو عن التعايش الذي كان يسود الأندلس في ظل الحكم الإسلامي، وعن معاملة المسلمين للأقليات أو أهل الذمة الذين يعيشون بينهم، وقد

بينت مدى التداخل في العلاقات التي كانت تربطهم، خاصة بين المسلمين والنصارى، إذ كانت علاقات إنسانية تجمع بينهم خصوصاً من ناحية المصاهرة، فقد كانت نسبة كبيرة من البربر والعرب قد تزوجوا من غير المسلمين خصوصاً من النصارى.

ولا شك أن هذه العلاقات كانت تنطلق من تاريخ مشترك ومصالح سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية متبادلة، فالتعايش الذي دام لثمانية قرون خلق مجتمعاً جديداً، له خصائصه وشخصيته، حتى أننا لا نستطيع أن ندعي أنه كان مجتمعاً عربياً أو بربرياً أو إيبريا خالصاً، وإنما هو مجتمع أندلسي امتزجت فيه كل هذه العناصر، وتشابكت فيه الأنساب، وكونت أجيالاً جديدة تجمع بين كل هذه الأجناس، فامتزجت دماء المسلمين بدماء غير المسلمين بالمصاهرة سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي، فجل أبناء الأمراء والخلفاء كانوا من أمهات الأولاد من أصل نصراني.

وأستطيع أن أزعم أن ما حدث في الأندلس ما هو إلا حرب أهلية بغيضة حركتها العوامل الدينية والقومية، بين ممالك النصارى في الشمال والدولة الإسلامية من الجنوب، وكان كلا الطرفين يشجع الثورات والاضطرابات الداخلية، وكان ذلك واضحاً في تحريض الممالك النصرانية للثوار سواء كانوا مسلمين، مولدين أو مسيحيين وتقديم المساعدات لهم، وانتهى الأمر بطرد مسلمي الأندلس أو فرض النصرانية على أهلها.

والدراسة السادسة عن شخصية كان لها دور في بلاط الأمير علي بن يوسف المرابطي وهو الحكيم ابن قمنيل، وهذه الشخصية لم تذكر في المصادر التي بين أيدينا إلا مرتين في إشارة عابرة دون معلومات عنها. فقد ذكر في أحد أزجال ابن قزمان وفي إحدى النوازل في المعيار للونشريسي بشأن معاملة اليهود وحكم الإسلام في لباس الحكيم ابن قمنيل وتشبهه بالمسلمين في التعمم وركوب السروج على فاره الدواب.

لقد تمتع اليهود بتسامح كبير في عهد المرابطين فكانت لهم بيعهم ومدارسهم ومحاكمهم الخاصة، وقد حاز بعض اليهود على ثقة الحكام فاستخدموا بعضهم كأطباء وكان منهم الحكيم أبو الحسن مير بن قمنيل وهو من أسرة إشبيلية ميسورة الحال تلقى العلم بها، وقد استدعاه الأمير يوسف بن تاشفين إلى مراكش فكسب ثقة الأمير يوسف وقربه إليه، وبعد وفاة الأمير يوسف بن تاشفين. استخدمه ابنه الأمير علي بن يوسف.

لم تقتصر علاقة الأمير علي بن يوسف بالحكيم ابن قمنيل على التطبيب

ووصف العقاقير، بل تحدثه إلى المذاكرة والمسامرة في بعض القضايا العلمية والفقهية الخاصة بالدين اليهودي، ولم يقتصر مجلس علي بن يوسف على الحكيم ابن قمنيل بل كان يضم بعض العلماء من اليهود والمسلمين. فأمراء المرابطين كغيرهم من أمراء المسلمين لم يجدوا حرجاً من استخدام النابهين منهم من بلاطهم.

وأما الموضوع السابع كان في ندوة بعنوان الجبل في تاريخ المغرب، والجبل شكل أهمية كبيرة في تاريخ المغرب والأندلس من الناحية السياسية والعسكرية على الخصوص، إذ كانت هذه الجبال الملاذ والملجأ للخارجين على السلطة المركزية، فالقبائل التي تسكن هذه المناطق تتميز بالجلد وصعوبة المراس، والميل لشق عصا الطاعة، لذلك كان الاهتمام بموالاة هذه القبائل عاملاً مهماً لاستقرار الدولة وتأمين الطرق، وعدم استنزاف طاقاتها.

وقد شكل الجبل أهمية كبيرة في استراتيجية المهدي بن تومرت، فاستغل جبال الأطلس لإنهاك جيش المرابطين وزعزعة أركان دولتهم. وكان المهدي بن تومرت يتمتع بذكاء ونظرة ثاقبة في اختيار الأحداث وترتيب الأدوار، ومعرفة طبيعة المنطقة، وخصوصية هذه القبائل، فدعوة ابن تومرت استمرت ثلاث سنوات في إيجليز وتسع في تينمل، وفي كل مرحلة كانت دعوة ابن تومرت تتخذ أسلوباً يناسب القبائل التي تسكن هذه الجبال.

فمرحلة إيجليز كانت بعد طرده من مراكش وأغمات، فلجأ إلى جبال المصامدة في قرية إيجليز أو إيجلى من بلاد هرغة، بلده وموطن قومه وعشيرته، وهي مكان منيع، فتوافد عليه المصامدة من كل قبيلة، وكثر أتباعه الذين دعاهم إلى التوحيد، وقتال المرابطين الذين سماهم المجسمين، وكان يبث خاصته ودعاته بين القبائل يمهدون لدعوته ويبشرون بالمهدي المنتظر والإمام المعصوم، ونجح ابن تومرت في إيقاظ العداء التقليدي الذي كان بين مصمودة وصنهاجة بسبب الطرح الدائم على البسائط والسهول. واستطاع أن يجمع القبائل الصغيرة المتنافرة والتي كانت بينها خصومات قديمة ويكسبها إلى جانبه، ولما تأكد من حماية قبيلته ومنعة موضعه، واستوثق من تأثير دعوته على هذه القبائل ادعى أنه هو المهدي المعلوم والإمام المعصوم. وبذلك دخلت الدعوة في مرحلة جديدة.

كانت المرحلة الثانية لدعوة ابن تومرت أكثر تحدياً للمرابطين وذلك باستعمال السلاح الدعائي والتشويش وإثارة الشائعات والبلبلة ضد المرابطين وكان هذا السلاح من أبرع أسلحة المهدي وأكثرها تأثيراً في حملاته العسكرية. وانتقل في هذه

المرحلة إلى تينمل وهي أكثر منعة وحصانة، وكانت استراتيجية ابن تومرت ومن بعده عبد المؤمن هي استدراج المرابطين إلى معارك جبلية أو في شعابها، لاعتماد المرابطين على الفرسان وحرب البسائط أكثر من الجبال. وكانت هذه مرحلة حاسمة في تاريخ المرابطين التي انتهت بمقتل الأمير تاشفين بن علي، وقيام دولة الموحدين.

واهتم المرابطون ببناء الحصون والرباطات عند مداخل الأودية في الجبال خصوصاً بعد ثورة المهدي ابن تومرت، والدولة المرابطية قامت في بدايتها في رباط ابن ياسين، فكان من طبيعتهم بناء قصبات أو حصون يسكنون فيها بقبائلهم. وكان من هذه القصبات أو الرباطات، رباط يطل على مدينة سلا هو رباط تاشفين أو قصبة تاشفين بها برج للسكن ينزل به ويحيط بها أراضي زراعية شاسعة يمتلكها المرابطون وبعض الأسر الأندلسية التي نزلت سلا مثل أسرة بني عشرة وبني وجار. وكانت مدينة سلا في عهد المرابطين مدينة مزدهرة لأنها كانت محطة للجواز إلى الأندلس، ومحطة لمن يذهب إلى سبتة أو مراكش.

ولقد نبه المهدي بن تومرت تلميذه عبد المؤمن إلى أهمية قصبة تاشفين التي تطل على مدينة سلا عندما نزل سلا لأول مرة سنة 510هـ مع صحبه، ونصح عبد المؤمن إذا صار الأمر له بأن يبني مدينة في مكان قصبة تاشفين، وبالفعل عندما نجح الموحدون في إقامة دولتهم، كان من أهداف عبد المؤمن الرئيسية بناء مدينة محل قصبة تاشفين، خصوصاً بعد ما قامت عليهم الثورة في سلا وقتلوا عامل الموحدين، فالخليفة عبد المؤمن يعتبر مؤسس مدينة الرباط التي سماها بالمهدية تيمنا بالمهدي بن تومرت. وحظيت المهدية أو رباط الفتح باهتمام الخلفاء الموحدين خصوصاً الخليفة الثاني أبو يعقوب يوسف. فهو الذي أعاد تخطيط المدينة ورسم حدودها، وأكثر فيها من المشاريع والمنشآت حتى صارت من المدن العامرة.

لقد ابتدع الموحدون طقوساً واحتفالات عند دخولهم أو ارتحالهم عن المدينة. فكانت المواكب الضخمة والزينات التي تصاحب الخليفة في حله وترحاله تستمر لعدة أيام. تعيشها المدينتان سلا والرباط في أفراح متصلة كما اهتم الموحدون بتعيين ولاتها من أقاربهم أو أصهارهم أو المقربين إليهم. وفي آخر عهدهم توالت المحن على المدينتين خصوصاً بعد غزو ملك قشتالة لمدينة سلا، ثم بعد استيلاء المرينيين عليها بدأت هذه المدن تفقد أهميتها.

وأما الموضوعات الثلاثة الأخيرة فهي تتعلق بمظاهر اجتماعية تتكرر في جل المجتمعات الإسلامية، تشترك في كثير من العادات والتقاليد، وإن كان لكل منها بعض

الخصوصيات التي تميزها من بلد إلى آخر، وهذه التقاليد تتغير من زمن إلى زمن حسب الأوضاع السياسية والاقتصادية بالخصوص فعندما يكون الرخاء الاقتصادي عاماً، تبرز عادات وتقاليد فيها الكثير من الغلو والمباهاة، وتقليد الفقراء للأغنياء، والإسراف في هذه المظاهر التي تخرج في كثير من الأحيان عن سماحة الإسلام وبساطته، وتتميع كثير من الضوابط الشرعية حتى أن كثيراً من الفقهاء يغض الطرف عن هذه التجاوزات. كان المجتمع الأندلسي يختلف بعض الشيء عن المجتمع المغربي، نظراً لتركيبته السكانية، كان أشبه بقطع جميلة من الفسيفساء التي تضم ألواناً مختلفة تمازجت وتعايشت بكل عاداتها وتقاليدها، من بربر وعرب وعجم، من مسلمين ونصارى ويهود، امتزجت هذه الأعراق والأديان فكونت المجتمع الأندلسي بخصوصياته التي جمعت بين المشرق والمغرب في تناسق بديع.

فكانت الرحلة إلى المشرق بغرض الحج أو التجارة أو الدراسة فرصةً للتعرف على الجناح الشرقي من العالم الإسلامي بتياراته الفكرية وعاداته وتقاليده، مما أثرى الجناح الغربي بكل ما حمله أهل الأندلس والمغرب معهم.

وأخيراً فهذه البحوث والدراسات ثمرة قراءات متواضعة واجتهادات لبعض الأحداث والقضايا التي حدثت في المغرب والأندلس، ربما نجد لها الكثير من الأمثلة التي تمر بأمتنا الإسلامية والتي تتكرر عبر العصور، دون التأمل فيها، وإمعان الفكر حتى لا تتكرر مثل هذه الأحداث.

ولا يفوتني في هذا المكان أن أقدم شكري وتقديري للأستاذ الدكتور بشار عواد معروف على ما بذله من جهد في قراءة هذه النصوص.

* * *

آراء في طلب العلم وآدابه

لابن حزم

آراء في طلب العلم وآدابه
لابن حزم

يعد ابن حزم من العلماء القلائل الذين حظوا بهذا الكم الهائل من الدراسات قديمًا وحديثًا[1]، وأعتقد أنه لم يترك جانب من حياته الشخصية أو العلمية إلا وكان فيها أكثر من بحث ومن دراسة، ومع هذا فكلما قرأتُ أعماله مرات ومرات إلا ووجدت الحاجة لمزيد من البحث للتعرف على ثقافة هذا العالم الأديب الشاعر، الحافظ الفقيه، عالم الأنساب المؤرخ، الفيلسوف المنطقي، الجدلي المتكلم، طبيب النفس والأخلاق.

ويعتبر ابن حزم فلتة علماء المسلمين في القرن الخامس الهجري، كما كان ابن رشد فلتة القرن السادس، وكلاهما سبق بآرائه وأفكاره واجتهاداته التي اعتمدت على العلم والاستنباط من القرآن الكريم والسنة الشريفة، وعدم الانسياق للتقليد، فكان نتاج ذلك هذا العلم الموسوعي في جميع الفروع بإجادة قل نظيرها بين العلماء مما أدى إلى إثارة حقد الجامدين وغيرة العلماء وإعجاب المنصفين وعداء المخالفين في الرأي والمذهب.

وقد تنوعت الشهادات في حقه وهي كثيرة، فاخترت منها شهادة خليفة، وشهادة طالب علم أخذ عنه وأعجب به، وشهادة عالم معاصر له، حاسد له لكنه لم يعْطِه حقه، وشهادة عالم يقدر العلماء بميزان، وشهادة ابن حزم نفسه، فهذا الخليفة المنصور الموحدي يتساءل عندما وقف على قبر ابن حزم خاشعًا: «عجبًا لهذا الموضع يخرج منه مثل هذا العالم» ثم يلتفت إلى مرافقيه قائلاً: «كل العلماء عيال على ابن حزم»[2].

---

11) انظر لائحة الدراسات التي ذكرها الدكتور إحسان عباس في تحقيقه لرسائل ابن حزم، ودراسة الأستاذ محمد أبو زهرة عن ابن حزم حياته وأدبه وآراؤه وفقهه، ودراسة الأستاذ سعيد الأفغاني والدكتور عبد الحليم عويس، والأستاذان أحمد بن ناصر وسعيد بن عبد الرحمن القرفي في اللائحة المرفقة لكتاب الدرة فيما يجب اعتقاده لابن حزم، إذ قاما بحصر لعدد من الدراسات عن ابن حزم، والكتابات والدراسات الكثيرة التي يقوم بها الأستاذ الفاضل عبد الرحمن بن عقيل عن ابن حزم والدفاع عنه انطلاقًا من حبه وإيمانه بآراء ابن حزم واجتهاداته كما نجد في كل الكتب التي تعرض مؤلفوها لابن حزم من ناحية شخصيته أو مؤلفاته ذكر لكثير من الدراسات.

(2) المقري: نفح الطيب، 2 / 221.

ويقول عنه أحد طلبته المعجبين به وهو الحميدي: «كان حافظًا عالمًا بعلمه زاهدًا في الدنيا، ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه»[1].

ورغم عداوة معاصره ابن حيان المؤرخ وحسده له إلا أنه قال عنه: «ويا لبدائع هذا الحبر على ابن حزم وغرره! ما أوضحها على كثرة الدافنين لها والطامسين لمحاسنها وعلى ذلك فليس ببدع فيما أضيع منه، فأزهد الناس في عالم أهله، وقبله أردى العلماء تبريزهم على من يقصر عنهم، والحسد لا دواء له»[2] وكان يحمل علمه، ويجادل من خالفه فيه، استنادًا إلى العهد الذي أخذه الله على العلماء من عباده ليبيننه للناس ولا يكتمونه[3].

وقال عنه الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»: «ابن حزم رجل من العلماء الكبار فيه أدوات الاجتهاد كاملة، تقع له المسائل المحررة والمسائل الواهية كما يقع لغيره، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم»[4].

أما ابن حزم فيقول عن نفسه: «فإني والله أعلم من عيوب نفسي أكثر مما أعلم من عيوب كثير من الناس ونقصهم»[5]. «والعاقل من ميز عيوب نفسه فغالبها وسعى في قمعها، والأحمق هو الذي يجهل عيوب نفسه إما لقلة علمه وتمييزه وضعف فكرته، وإما لأنه يقدر أن عيوبه خصال، وهذا أشد عيب في الأرض»[6].

وابن حزم صورة للعصر الذي عاشه، فالإنسان متصل بالبيئة يتأثر بها ويؤثر فيها، وتأثير البيئة يكون أقوى في الفرد من تأثير الفرد فيها، وابن حزم نتاج عصره بكل سلبياته وإيجابياته، وإن سبق عصره في تفكيره وآرائه، واستطاع أن يتخلص ويتحرر من سلطان المجتمع ليفكر بحرية محكمًا العقل والمنطق في إصدار الحكم الخالص من الأهواء والتعصب الأعمى للشائع من التقليد، فقد عاش ابن حزم عصر انهيار الخلافة، وما استتبع ذلك من انهيارات في القيم جميعًا، فتسور الأراذل المناصب، وتصدر المتعالم للتعليم، فتفشى الجهل والتعصب للأفكار الفاسدة، والآراء

---

(1) الحميدي: جذوة المقتبس، ص 291.

(2) ابن بسام: الذخيرة، ص 172.

(3) نفس المصدر، ص 68.

(4) الذهبي: تذكرة الحفاظ، 3 / 1152.

(5) ابن حزم: رسالة التلخيص، ص 178 ضمن الرسائل التي نشرها الدكتور إحسان عباس ص 3.

(6) ابن حزم: مداواة النفوس، ص 386 ضمن الرسائل التي نشرها الدكتور إحسان عباس ص 1.

التي لا سند لها، فانزوى العلماء حفاظًا على هيبة العلم وعلى مكانتهم، وصمت البعض منهم، فلم يؤيد هذا أو ذاك، فنشأ جيل لم يتأدب بآداب العلم وطريقة تلقيه، ولم يتعلم أدب السؤال أو الجواب، ولم يتخلق بأدب المناظرة والنقد، وقد عانى ابن حزم الكثير من هذه الأصناف، مما أثر على ردوده التي اتسمت بالحدة والجرأة والاستخفاف بآراء معارضيه الذين كشف عن جهل معظمهم، وفساد وجحود أغلبهم فتمالئوا عليه وحاربوه حتى استطاعوا النيل منه، لكنه لم ينزو ولم ينطو على نفسه أو يخفي مذهبه أو يغير ما اعتقد صوابًا، إيمانًا منه بأن العلم لا بد أن ينتصر.

فكانت الحاجة إلى التصنيف في أدب العلم وطلبه، وما هي العلوم التي تطلب. لذلك نجد الحافظ ابن عبد البر صديق ابن حزم ومعاصره، ونظيره في موسوعيته وتعدد تآليفه الجيدة التي قل نظيرها، يرى أهمية الكتابة في هذا الموضوع، فصنف كتاب «بيان العلم وفضله»، وفي العدوة المغربية في إفريقية صنف أبو الحسن علي بن محمد بن خلف القابسي 323 ـ 403هـ. «الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين»، وهي تدور على أسئلة حول التعليم وآدابه، وما يحدث في المجتمع[1].

ونتيجة لتجربة ابن حزم الخاصة وما عاناه من معارضة مخالفيه والرد عليهم وإبانة أخطائهم، فقد حاول أن يقدم بعض الآراء للعالم والمتعلم، والمتعلم على الخصوص ليتجنب ما لاقاه، خصوصًا إذا كان لا يملك الأدوات العلمية للمجابهة، وابن حزم لم يفرد تأليفًا خاصًا بالعلم وآدابه خلاف رسالته في مراتب العلوم[2] التي تتعرض لقضايا تربوية نعاني منها في عصرنا هذا، وهي ما يتصل بالعلوم التي يحسن تدريسها، كما أنه صنف هذه العلوم على حسب أهميتها لطالب العلم من خلال وضع منهج لتعليمها انطلاقًا من تجربته الشخصية، ومع هذا فابن حزم تعرض للعلم وآدابه وأدب المناظرة والسؤال في معظم مؤلفاته عرضًا أو إجابة عن أسئلة توجه إليه، مما يبين انشغاله بهذا الموضوع، وآراء ابن حزم متقدمة على كتاب ابن عبد البر ولعل ابن حزم هو صاحب التغيير الواضح على معاصره، فقد تمت كتاباته في العلوم ومراتبها في دور مبكر، ونحن نرى في تصوره رسوخًا ووضوحًا أقوى من تصور ابن

---

(1) حققها ونشرها المرحوم الدكتور أحمد الأهواني بعنوان «التربية في الإسلام»، أو التعليم في رأي القابسي ونشر معها رسالة آداب المعلمين لابن سحنون، القاهرة، 1955.

(2) نشر د. إحسان عباس هذه الرسالة ضمن الجزء الرابع من رسائل ابن حزم بيروت 1983.

عبد البر، وأشد منه احتفالاً بالموضوع نفسه[1].

وابن عبد البر في كتابه «جامع بيان العلم وفضله» تأثر بشخصية المحدث، فأتى في كتابه بأحاديث للرسول صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة وبعض العلماء والحكماء، ولم يمنع كونه حافظًا للحديث أن يأتي بأحاديث ضعيفة، ولم يأت بمنهج خاص به في تناوله لهذا الموضوع، ويبدو هذا الفارق واضحًا بين ابن حزم وابن عبد البر في تناولهما للعلم وطلبه، وفي طريقة ابن حزم في مناقشة الأفكار والآراء، وتحفظ ابن عبد البر تجاه بعض العلوم، واختلاف شخصية الرجلين أيضًا كان له انعكاسه في تناول الموضوع ولا شك أن ابن حزم قد تأثر بآراء علماء الإغريق وغيرهم من علماء المسلمين خصوصًا في تصنيف العلوم وقد تناول هذا الجانب بالدراسات بعض العلماء من المتأخرين والمحدثين[2]، وسنحاول من خلال بعض مؤلفات ابن حزم أن نخرج بتصور تقريبي لآراء ابن حزم في العلم وطلبه في النقاط التالية: فضل طلب العلم، العلوم التي تطلب وشرط التأليف والبحث، والعلماء الذين يطلب عندهم العلم، وطالب العلم وأدب الجلوس والسؤال، وسأقتصر على آراء ابن حزم دون المقارنة بآراء معاصره ابن عبد البر، أو بمن سبقه فقد تعرض لهذا الجانب عدد من الباحثين.

يرى ابن حزم أن فضائل العلم كثيرة، فهو يرفع الإنسان ويشغله عن الأفكار السقيمة، ويكفي العالم الذل بتسلط الجهال، ويكفيه من الهم بغياب الحقيقة عنه. ويوضح الأمور الخفية والعلم يعلم الإنسان حسن الفضائل فيأتيها ولو في الندرة، ويستمع الثناء الحسن فيرغب في مثله، والثناء الرديء فينفر منه، ولا يأتي الفضائل من لم يتعلم العلم إلا صافي الطبع فاضل التركيب، وهذه ميزة خص بها النبيون عليهم السلام[3].

والمنشغل بالعلم يبتعد عن الوساوس المضنية، والأفكار المؤلمة للنفس، والعلم

---

(1) د. إحسان عباس في المقدمة التي كتبها عن مقالة مراتب العلوم لابن حزم ضمن رسائل ابن حزم الجزء الرابع.

(2) انظر الدكتور سالم يفوت مقالة بعنوان تصنيف العلوم لدى ابن حزم في مجلة دراسات عربية 1983، تقديم تحقيق المقدمة لابن خلدون وبحث للدكتور أحمد ساسي شبشوب بعنوان منزلة العلم والتعليم بالأندلس من خلال مراتب العلوم من ندوة الأندلس بالمملكة العربية السعودية، نوفمبر 1993.

(3) ابن حزم: مداواة النفوس، ص 345، تحقيق د. إحسان عباس.

يرفع العالم فيهابه الجهال ويحبونه، ويحبه العلماء ويكرمونه[1] واعلم أن من فضل العلم والإكباب على طلبه، والعمل بموجبه أنك تحصل على طرد الهم الذي هو الغرض الجامع لجميع المقاصد من كل قاصد أولها عن آخرها»[2].

ولابن حزم آراء وجيهة في نشر العلم، وهو من أنصار خصوصية مجالس العلم واختيار الطبقة التي تستوعب العلم، والتي تتمتع بأخلاقيات رفيعة وتحرص على احترام الأفكار والآراء وتبادل المعرفة، أو استيعاب الجديد والجيد من فنون العلم المختلفة، ويحذر من نشر العلم في غير أهله فهو «كإطعامك العسل والحلوى لمن به احتراق وحمى، وكتشميمك المسك والعنبر لمن به صداع من احتدام الصفراء»[3].

ويحذر ابن حزم من الدخلاء على العلم فهم يضرون به وبأهله، فيجب انتقاء طلبة العلم الذين سيكونون علماء الغد من بين فضلاء الطلبة، الذين يتمتعون بالخلق الطيب، وطيب المنبت، والاستعداد لمشقة العلم والذكاء وسرعة البديهة، «فلا آفة على العلوم وأهلها أضر من الدخلاء فيها وهم من غير أهلها، فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون، ويفسدون ويقدرون أنهم يصلحون»[4].

وضع ابن حزم قواعد للبحث والتأليف سبقت عصره، وتعد من الشروط الواجب توفرها في أي عمل علمي يقدم على مستوى البحث الأكاديمي أو التصنيف ومن هذه الأمور جدية البحث وهذا لا يتأتى إلا بكثرة المطالعة لجميع الآراء والأقوال، والنظر في طبائع الأشياء، وسماع حجة كل محتج والنظر فيها، والتفتيش والإشراف على الديانات والنحل والمذاهب والاختيارات، واختلاف الناس وقراءة كتبهم[5].

ويستنكر ابن حزم أنواعًا من التآليف أو الأبحاث كمن «أخذ تأليف غيره فأعاده على وجهه، أو قدم وأخر، دون تحسين رتبة، أو بدل ألفاظه دون أن يأتي بأبسط منها وأبين، أو حذف مما يحتاج إليه، أو أتى بما لا يحتاج إليه، أو نقض صوابًا بخطأ، أو أتى بما لا فائدة فيه»[6].

---

(1) ن. م. ص 346.

(2) ابن حزم: التقريب لحد المنطق، 4 / 198 تحقيق د. إحسان عباس.

(3) مداواة النفوس، ص 344.

(4) ن. م.

(5) التقريب لحد المنطق، 4 / 198، ضمن رسائل ابن حزم، تحقيق د. إحسان عباس.

(6) ن . م. ص 104.

ويؤمن ابن حزم بجدة البحث وألا يكون مسبوقًا، وأن يكون في موضوع يستحق البحث فيه، ولا يؤلف إلا فيما يفيد، وألا يكرر أقوال السابقين، فالبحث إما في شيء لم يسبق إليه يخترعه، أو شيء ناقص يتمه، أو شيء مستغلق يشرحه، أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه، أو شيء متفرق يجمعه، أو شيء مختلط يرتبه، أو شيء أخطأ فيه مؤلفه يصلحه[1]، والبحث في العلوم الغامضة تزيد العقل القوي جودة وتصفيه من كل آفة بينما تهلك صاحب العقل الضعيف[2] .

وعلى المرء أن يهتم بالعلوم الممكن تعلمها والتي قد ينتفع بها في بحثه أو تآليفه، أن يؤثر منها بالتقديم ما لا يتوصل إلى سائره إلا به، وعليه أن يعتني بالأهم فالأهم والأنفع فالأنفع، لأن طالب العلم الذي يريد الارتقاء والمعرفة الواسعة لا بد له من المعاناة وبذل الجهد فإن من رام الارتقاء إلى أرفع العلوم دون معاناة، كمن رام الصعود إلى علية متفتحة مظللة أنيقة البناء دون أن يتكلف التنقل إليها في الدرج والمراتب التي لا سبيل إلى تلك العلية إلا بها[3].

وابن حزم من أنصار الوضوح في الكتابة وعدم التعقيد في طرح الأفكار أو إبهام العبارات، وينصح باستخدام العبارات السهلة وعدم الغموض، حتى يستطيع القارىء الفهم والاستيعاب، ويعطي ابن حزم مثلاً لنوع من الغموض في الكتابة بكتاب «اللمع في أصول الفقه» لأبي الفرج القاضي فيقول: «إنه عندما قرأه لم يجد فيه إلا كلامًا معقدًا مغلقًا، لا معنى له إلا التناقض والهدم لما بني، وفي زماننا من سلك هذا الطريق في كلامه فلعمري لقد أوهم خلقًا كثيرًا أنه ينطق بالحكمة، ولعمري أن أكثر كلامه ما يفهمه هو، فكيف يفهمه غيره»[4].

وعلى العالم ألا يحكم على أي كتاب بأنه يحتوي على الكفر والإلحاد قبل التثبت مما فيه، وأن يقف على معانيه أو يطالعه بالقراءة المتأنية[5]، ويجب أن يكون الهدف من البحث هو طلب العلم لذاته ومن أجل المعرفة، لا للفخر أو ليمدح به

---

(1) ابن حزم: رسالة في فضل الأندلس، 2 / 186، والرسالة في نفح الطيب للمقري، 3 / 178، وقد ذكر هذه الأمور في رسالة مراتب العلوم 4 / 103.

(2) ابن حزم: مداواة النفوس، 1 / 344.

(3) ابن حزم: مراتب العلوم، 4 / 65.

(4) ابن حزم: التقريب لحد المنطق، 4 / 342.

(5) مراتب العلوم، 4 / 98.

طالبه أو ليكتسب به مالاً أو جاهًا[1].

أما العلوم التي يحسن لطالب العلم معرفتها فقد حصرها في سبعة علوم هي علم الشريعة وعلم الأخبار، وعلم اللغة «فالأمم تتميز في هذه العلوم الثلاثة والعلوم الأربعة الباقية تتفق فيها الأمم كلها وهي علم النجوم والعدد والطب والفلسفة»[2]. ولكننا نجده في رسالة «التقريب لحد المنطق» يقسم العلوم إلى علوم شرعية وعلوم الأوائل وهذه العلوم تشمل علوم القرآن والحديث والمذاهب (علم الكلام) والفتيا (الفقه) وعلم المنطق وعلم النحو واللغة، والشعر، والخبر، والطب، والعدد والهندسة والنجوم وينتج عنها علم البلاغة والعبارة[3]، وأفضل العلوم ما أدى إلى الخلاص في دار الخلود، ووصل إلى الفوز في دار البقاء[4].

ويعتبر ابن حزم هذه العلوم مكملة بعضها لبعض، ويتعلق كل منها بالآخر ولا يستغني علم منها عن غيره، وينصح ابن حزم بعدم استبعاد علم من العلوم حتى ولو كان هذا العلم باطلاً كعلم النجوم مثلاً، لأن معرفة العلم الباطل تساعدنا على الابتعاد عنه[5].

وانطلاقًا من تجربة ابن حزم الذاتية، واستجابة لأسئلة طلابه حول العلوم التي تطلب، استطاع أن يضع منهجًا لطلب هذه العلوم، ويقرر في هذا المنهج الحد الأدنى الذي يجب على طالب العلم تحصيله، وقد أشار إلى بعض الكتب التي تعينه في التحصيل، ويبدو تأثر ابن حزم بمن سبقه من مفكري اليونان مثل أفلاطون وأرسطو، ومن المسلمين الرازي والفارابي وإخوان الصفاء، وابن سينا، وأبو حيان التوحيدي على المستوى الفكري النظري للتصنيف، وعلى المستوى التطبيقي بمحمد بن إسحق، ومحمد بن أحمد الخوارزمي، وقد وضع الدكتور إحسان عباس هذه العلوم في جدول يبين فيه المراحل التي اقترحها ابن حزم لاستيعاب هذه العلوم والكتب التي يقترحها ابن حزم لكل مرحلة، ولكل علم، والمستوى الذي يجب أن يصل إليه المتعلم حتى ينتقل إلى المرحلة التالية دون أن تعترضه مشكلة الاستيعاب وهذه المراحل التي

---

(1) ن. م. ص 78.

(2) مراتب العلوم، 4 / 78.

(3) التقريب لحد المنطق، 4 / 102، 103.

(4) مراتب العلوم، 4 / 64.

(5) ن. م. 4 / 81.

وضعها ابن حزم لا تعني بالضرورة التعاقب وإنما الأرجح أن الطالب في إمكانه أن يستوعب مرحلتين أو أكثر بعد اجتيازه المرحلة الأولى ووصوله إلى مرحلة النضج والاستيعاب[1].

والمرحلة الأولى حفظ القرآن الكريم للتدرب على القراءة وتمرين اللسان على تلاوته وتعليم الخط وتأليف الكلمات من الحروف حتى يتعلم الخط قائم الحروف واضحًا كما يتعلم هجاء الكلمات بطريقة صحيحة وهذا يبدأ به في سن مبكرة عندما يكون الطفل في الخامسة، فيتولاه المؤدب بهذه العلوم حتى يتقنها فينتقل إلى المرحلة التالية[2].

والمرحلة الثانية ينتقل لعلم النحو واللغة ورشح ابن حزم كتاب «الواضح» للزبيدي و«الموجز» لابن السراج، ومن طلب المزيد فعليه بـ «كتاب» سيبويه، وإن أراد التعمق أكثر فعليه بكتاب «الغريب المصنف» لأبي عبيد، و«مختصر العين» للزبيدي، فإذا استوعبها وأراد المزيد من هذا العلم فعليه بكتابي ثابت بن أبي ثابت «خلق الإنسان»، و«الفرق»، و«المذكر والمؤنث» لابن الأنباري، وكتاب «الممدود والمقصور والمهموز» لأبي علي القالي، وكتاب «النبات» لأبي حنيفة الدينوري[3] وتأكيد ابن حزم على تعلم النحو واللغة لأهمية هذين العلمين في فهم القرآن الكريم وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. «وأما من وسم اسمه باسم العلم والفقه وهو جاهل بالنحو واللغة حرام عليه أن يفتي في دين الله بكلمة، وحرام على المسلمين أن يستفتوه لأنه لا علم له باللسان الذي خاطبنا الله تعالى به، وإذا لم يعلمه فحرام عليه أن يفتي بما لا يعلم»[4].

«والشعر يجب ألا يكون كل هم طالب العلم فهذا يعد حرامًا، أو أن يكثر منه وينشغل به عن غيره، ولكن عليه أن يأخذ منه بنصيب معقول، وحبذا لو كان هذا الشعر في الحكمة والزهد، أو رثاء من مات من إخوانه بما ليس باطلاً، ومادحًا لمن استحق الحمد بالحق، فليس بآثم ولا يكره ذلك»[5].

---

(1) انظر المقدمة التي كتبها د. إحسان عباس في تحقيقه لمراتب العلوم، والجدول في ص 27.
(2) مراتب العلوم، 4 / 65.
(3) ن. م. ص 66، 67.
(4) رسالة التلخيص، 3 / 162، تحقيق د. إحسان عباس.
(5) مراتب العلوم، 4 / 67، التلخيص 3 / 163، 164.

ويستحب من الشعر رواية شعر حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وبعض أشعار الجاهليين، ومختارات من شعراء الإسلام بقدر ما يتدرب في فهم معاني لغة العرب ومخارج كلامهم[1].

وينصح ابن حزم بأن يتجنب طالب العلم شعر الغزل والتشبيب، وشعر الحروب وإثارة الفتن وأشعار التغرب وشعر الهجاء «فإن هذا الضرب أفسد الضروب لطالبه»[2]. وموقف ابن حزم من هذه الأغراض الشعرية ينبع من مقاييس خلقية التزم بها.

والعلوم التي تطلب في المرحلة الثالثة هي علم طبعة العدد ويعتمد فيها على كتاب إقليدس فهذا العلم مفيد في معرفة نصبة الأرض ومساحتها وتركيب الأفلاك ودورانها ومراكزها وأبعادها، والوقوف على براهين ذلك، كما يقف على دوران الكواكب وقطعها في البروج «فهذا علم رفيع جدًا يقف به على حقيقة جرم العالم وعلى آثار صنعة الباري في العالم»[3].

وعلم العدد من العلوم المهمة التي يجب أن يحرص عليها طالب العلم إذ لو جهل هذا لضاع كثير من الدين، كحساب المواريث والوصايا ومعرفة البيوع وغير ذلك، ويتعلم من هذا العلم الضرب والقسم والجمع والطرح والتسمية[4] وعلم المساحة مفيد إذا أمكنه، وأصله معرفة نسبة الخطوط والأشكال بعضها من بعض، وتظهر أهمية هذا العلم في فهم صفة هيئة الأفلاك والأرض، وفي رفع الأثقال والبناء وقسمة الأرضين وغير ذلك[5]، ومطالعة كتاب المجسطي تفيد طالب العلم في معرفة الكسوف وعروض البلاد وأطوالها، والأوقات وزيادة الليل والنهار، والمد والجزر، ومنازل الشمس والقمر والدراري[6]، وحذر ابن حزم من علم النجوم أو الكواكب فهو علم باطل لتعريه من البرهان[7].

فإذا استوعب الطالب هذه العلوم أخذ في النظر في علم المنطق وعلم الأجناس

---

(1) ن. م.

(2) مراتب العلوم، ص 68.

(3) ن. م. ص 69.

(4) رسالة التلخيص، 3 / 164، رسالة التوقيف 3 / 132، رسالة مراتب العلوم 4 / 69.

(5) التوقيف ص 132، مراتب العلوم ص 69.

(6) ن. م.

(7) مراتب العلوم ص 70، 77، التوقيف ص 133.

والأنواع والأسماء المفردة والقضايا والمقدمات والقرائن والنتائج ليعرف المرء ما البرهان وما الشغب وكيفية التحفظ مما يظن أنه برهان وليس ببرهان[1].

ثم عليه بالنظر في علم الطبيعيات وعوارض البحر، وترتيب العناصر، وفي الحيوان والنبات والمعادن، وعليه قراءة كتب التشريح لفهم حكمة الخلاق سبحانه[2].

وقد أولى ابن حزم لعلم الخبر والنسب أهمية كبيرة ويتفق مع من سبقه في أهمية هذا العلم لمعرفة أخبار الأمم السابقة والاتعاظ مما حدث لها، وعلم الخبر سهل ومنشط «ويجعل هذا العلم في وقت راحته، وسآمته من تعلم غيره من العلوم»[3].

وإذا استطاع أن يحكم هذه العلوم فهمًا وقراءة عليه أن يطلب البرهان من العلوم الضرورية لقضايا فكرية باستخدام العلوم السابقة في قضايا مثل هل العالم محدث أم لم يزل؟ هل له محدث؟ وهل النبوة ممكنة؟ وهذه الطريقة سوف توصله إلى معرفة الواحد الأحد وإقرار نبوة محمد صلوات الله عليه[4].

وعلم الشريعة في القمة الهرمية لابن حزم، ويجب ألا يصل إليها طالب العلم إلا بعد أن يكون قد استوعب المهم فالأهم، والنافع فالأنفع من العلوم، ويجب ألا يطلب هذا العلم إلا لذاته وليس لدنيا، فيقول: «واعلم أن من طلب علم الشريعة ليدرك به رياسة، أو يكسب به مالاً فقد هلك، لأنه طلبه لغير ما أمره به خالقه أن يطلبه، لأن خالقنا عز وجل إنما أمرنا أن نطلب ما شرع لنا لننجو به بعد الموت من العذاب والسخط»[5]. وعلم الشريعة يشمل علوم القرآن وعلوم الحديث وعلوم الفقه وعلم الكلام وقد ترك لطالب هذه العلوم الحرية في طلبها من شيوخها واقتناء كتبهم.

---

(1) مراتب العلوم ص 72.

(2) ن. م.

(3) ن. م. ص 72، 73. انظر قول المسعودي ((علم يتمتع به العالم والجاهل، ويستعذب موقعه الأحمق والعاقل، فكل غريبة منه تعرف، وكل أعجوبة منه تستطرف، ومكارم الأخلاق ومعاليها تقتبس، وآداب سياسة الملوك وغيرها منه تلتمس، يجمع لك الأول والآخر، والناقص والوافر، والبادي والحاضر، والموجود والغابر وعليه مدار كثير من الأحكام، وبه يتزن كل محفل. انظر مقدمة إحسان في الجزء الثاني وكتاب د. عبد العليم عويس عن ابن حزم مؤرخًا، ومقدمة جوامع السيرة للدكتور ناصر الدين الأسد.

(4) رسالة مراتب العلوم، 4 / 74.

(5) رسالة التوقيف، 3 / 55.

المرحلة الأولى[1]: يكون الصبي في سن الخامسة أو نحوها.	نوع العلم: الخط، القراءة. المستوى المطلوب: خط قائم الحرف بين صحيح التأليف (صحيح الهجاء). التمهر في قراءة كل كتاب يخرج من يده بلغته. حفظ القرآن للتدريب على القراءة وتمرين اللسان على التلاوة. الكتب المقررة: القرآن الكريم.
المرحلة الثانية:	نوع العلم: النحو، اللغة، الشعر. المستوى المطلوب: إتقان أحوال الإعراب. إتقان المستعمل الكثير الدوران، شعر الحكمة والخير وتجنب شعر الغزل والتشبيب والهجاء وذكر الحروب، والمدح والرثاء جائزان. الكتب المقررة: «الواضح» للزبيدي، أو «الموجز» لابن السراج، شعر حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وصالح بن عبد القدوس. 1 ـ للمعلومات الأساسية: «الغريب المصنف» لأبي عبيد، و«مختصر العين» للزبيدي. 2 ـ للتعمق: «خلق الإنسان» لثابت، «الفرق» لثابت، «المذكر والمؤنث» لابن الأنباري، «الممدود والمقصور» للقالي، «النبات» للدينوري.
المرحلة الثالثة[2]:	نوع العلم: علم العدد. المستوى المطلوب: الضرب والقسم والجمع والطرح والتسمية. المساحة، الأرثماطيقي (طبيعة العدد). دوران الكواكب، الكسوفات، أوقات الليل والنهار. المد والجزر. الكتب المقررة: إقليدس، المجسطي.
المرحلة الرابعة[3]:	نوع العلم: المنطق والعلوم الطبيعية.

(1) ابن حزم: رسالة مراتب العلوم، 4 / 65، 66، تحقيق د. إحسان عباس.
وانظر الجدول الذي ذكره د. إحسان في مقدمة التحقيق.
(2) ن. م. ص 69.
(3) ابن حزم: مراتب العلوم، 4 / 72.

المستوى المطلوب: الحدود، علم الأجناس والأنواع، القضايا، عوارض الجو، الحيوان، النبات، المعادن، التشريح.

المرحلة الخامسة[1]: نوع العلم: علم الأخبار والأنساب (إما على الممالك أو السنين أو البلاد والطبقات).

المستوى المطلوب: التواريخ القديمة والحديثة وأصحها تاريخ الملة الإسلامية، يتلوه تاريخ بنيّ إسرائيل يتلوه أخبار الروم يتلوه أخبار الفرس.

المرحلة السادسة[2]: نوع العلم: قضايا فكرية كمثل:

المستوى المطلوب: هل العالم محدث أو لم يزل؟ هل له محدث؟ هل النبوة ممكنة؟ النبوات، نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

المرحلة السابعة[3]: نوع العلم: علم الشريعة.

المستوى المطلوب: علم القرآن ينقسم إلى معرفة قراآته ومعانيه.

علم الحديث: ينقسم إلى معرفة متونه ومعرفة رواته.

علم الفقه: أحكام القرآن وأحكام الحديث وما أجمع المسلمون عليه وما اختلفوا فيه ومعرفة وجوه الدلالة وما صح منها وما لا يصح.

علم الكلام: ينقسم إلى معرفة مقالاتهم وحجاجهم وما يصح بالبرهان وما لا يصح.

ولا يبين ابن حزم إن كانت هذه المراحل متدرجة ومتعاقبة أو أنها بعد المرحلة الأولى مرحلة الصغر وعدم الإدراك الجيد للعلوم أن تجيء متوازية مترافقة أو متداخلة وفي رأي الدكتور إحسان عباس الفرض الثاني لأن تعاقب المراحل يستغرق وقتًا طويلاً، وابن حزم لا يدعو إلى التوسع «إلا في العلم الذي يوافق رغبة المرء وملكاته وهذا لا يتعدى ثلاثة علوم بحال» كما نلاحظ أن ابن حزم لم يقرر كتبًا معينة على المراحل الأربعة الأخيرة بمعنى تركه الحرية لطالب العلم في اختيار الكتب التي تعينه.

وقبل الشروع في طلب العلم على طالبه أن يتخلق بأخلاق أهله، وعليه

---

(1) ن. م. ص 72، 79.

(2) ن. م. ص 73، رسالة التوقيف ص 135.

(3) ن. م. ص 79.

الالتزام بزيهم، والتأدب بأدب حملته، ولزوم السكينة والوقار والتواضع لمن يأخذ عنه، وتعظيمه وتوقيره والصبر على ما يلقاه منه أو من رفقائه، ويجب أن يعرف أن طلب العلم لا يتم إلا بثلاث: بسماع وقراءة وكتاب[1]. وينصح طالب العلم بسكنى الحواضر التي يتوفر فيها العلماء ويزدهر فيها العلم، حتى يستطيع الإفادة من علمهم وحتى يكون على مقربة من مجالس العلماء وما يدور فيها من مناظرات وتبادل الأفكار فتتسع مداركه، «لأن مع اعتراك الأقران ومعارضتهم يلوح الباطل من الحق»[2].

ومن الأمور المهمة التي يوصي بها ابن حزم طالب العلم بذل المال وإنفاقه في سبيله، والإكثار من شراء الكتب كلما أمكنه ذلك، إذ لا يخلو كتاب من فائدة وزيادة علم يجدها فيه إذا احتاج إليها، وتظهر أهمية الكتاب عند الحاجة إلى الرجوع إلى علم من العلوم، والكتب نعم الخازنة له إذا طلب، ولولا الكتب لضاعت العلوم ولولا شهادة الكتب لاستوت دعاوى العالم والجاهل[3]،«ويجب ألا تفارقه المحبرة والكتب حتى يستطيع أن يقيد ما يريد، ففي التقييد حفظ لما سمع»[4].

وينصح ابن حزم الذي يطلب العلم ألا يقتصر على عالم واحد، أو يأخذ العلم عن شيخ واحد، بل عليه أن يسمع من عدة شيوخ فيستفيد من تنوع الآراء والاجتهادات المختلفة، وإلا كان «كمن شرب من بئر واحدة، ولعله اختار الملح المكدر، وقد ترك العذب»[5]، وأن يختار من شهر بعلمه ودينه ومروءته للأخذ عنه، ولا يطلب العلم إلا من أهل الثقة.

ومن شروط طالب العلم التأني والتحقق مما سمع أو قرأ وألا يكون عنده رأي مسبق فلا يستفيد ولا يدرك الحقيقة، ولكن يقبل على العلم إقبال من يريد حظ نفسه في فهم ما سمع ورأى ليزيد به علمًا، وقبوله إن كان حسنًا أو رده إن كان خطأ[6]،«يجب عليه الاستيعاب الجيد وحسن التفكير، واختيار العبارات، والإلمام

---

(1) مراتب العلوم، 4 / 65.

(2) ن. م. ص 77.

(3) ن. م.

(4) ن. م.

(5) مراتب العلوم، 4 / 77.

(6) ابن حزم: مداواة النفوس، 1 / 412.

بالموضوع الذي كلف به حتى يتقنه»[1]، وأن يبدأ بالعلم الذي يميل إليه بطبعه وقلبه ويستزيد منه ما أمكنه، «فربما كان ذلك منه في علمين أو ثلاثة أو أكثر على قدر زكاء فهمه وقوة طبعه، وحضور خاطره وإكبابه على الطلب»[2]، وأن يكثر من القراءة والاطلاع، لأن من اقتصر على علم واحد ولم يطلع على غيره أوشك أن يكون ضحكة، وكان ما خفي عليه من علمه الذي اقتصر عليه أكثر مما أدرك منه لتعلق العلوم بعضها ببعض[3].

وفي نفس الوقت ينصح ابن حزم بعدم التعمق المفرط في العلم المطلوب وشغل نفسه به طول وقته، فإن هذا التعمق من شأنه أن يشغل عزم الطالب عن طلب العلوم الأخرى، والتقوقع في علم واحد فلا يحصل على المعرفة الحقة، ويقول في ذلك: ومن طلب الاحتواء على كل علم أوشك أن ينقطع وينحسر ولا يحصل على شيء، وكان كالمحضر إلى غير غاية، إذ العمر يقصر عن ذلك، وليأخذ من كل علم بنصيب، ومقدار ذلك معرفته بأغراض ذلك العلم فقط، ثم يأخذ مما به ضرورة فقط إلى ما لا بد منه[4].

وقد وضع ابن حزم لأدب الجلوس للعلم قواعد مهمة ليعيها طالب العلم ويلتزم بها، فيجب على طالب العلم أن يبكر في الحضور لمجلس العلم، فلا يأتي متأخرًا فيحدث الاضطراب والبلبلة وأن يكون حسن المظهر وليس بزري الهيئة وأن يكون نظيف الملبس[5]، ويقول ابن حزم: إذا حضرت مجلس علم فلا يكن حضورك إلا حضور متزيد علمًا وأجرًا، لا حضور مستغن بما عندك، طالب عثرة تشنعها أو غريبة تشيعها، فهذه أفعال الأراذل الذين لا يفلحون في العالم أبدًا[6]، ويجب أن لا يتعالى على العلماء، ويكثر من التردد عليهم مهما كانت منزلته، فطالب العلم هو

---

(1) رسالة في فضل الأندلس، 2 / 226.

(2) مراتب العلوم، 4 / 78.

(3) ن. م. ص 77.

(4) ن. م. ص 77، 78.

(5) قال مالك بن أنس: قلت لأمي، أذهب فأكتب العلم، فقالت لي أمي: تعال فالبس ثياب العلماء ثم اذهب فاكتب، فألبستني ثيابًا مشمرة، ووضعت الطويلة على رأسي وعممتني فوقها ثم قالت: اذهب الآن فاكتب. عياض: الإلماع، ص 47.

(6) مداواة النفوس، 1 / 411.

الذي يسعى للعالم وليس العكس[1]، وعليه أن يستفيد من مجلس العلم، ويتأتى ويتحقق مما سمع أو قرأ، ولا يكون عنده رأي مسبق فلا يستفيد ولا يدرك الحقيقة، ولكن عليه أن يقبل على مجلس شيخه إقبال من يريد حظ نفسه في ما سمع ورأى ليزيد به علمًا، وقبوله إن كان حسنًا أو رده إن كان خطأ[2].

ويجب على من حضر مجلس العلم أن يلتزم بأمور ثلاثة وهي: أن يسكت سكوت الجهال، فيحصل على أجر النية في المشاهدة وعلى الثناء بقلة الفضول وكرم المجالسة ومودة من يجالس.

والثانية أن يسأل رغبة من العلم، والثالثة ألا يكرر مراجعة العالم في نفس النقطة التي سبق أن سأله فيها، فإذا حضر مجلس العلم بنية طلب العلم لذاته وليس للشغب، فقد حصلت خيرًا على كل حال، فإن لم تحضرها على هذه النية فجلوسك في منزلك أروح لبدنك، وأكرم لخلقك، وأسلم لدينك[3].

وطلبة العلم ليسوا كلهم سواء في طلب العلم أو في استيعابه والذي يجلس للعلم ثلاثة: رجل يأخذ كل ما يسمع فذلك حاطب ليل، ورجل لا يكتب ويسمع فذلك يقال له جليس العالم، ورجل ينتقي وهو خيرهم[4]. وعليه ألا يطلب العلم من أجل الدنيا، وأن يخشى الله في سره وعلانيته ويحذر ابن حزم من موافقة الجليس فيما يضر في أخراه ودنياه، ولا يتصرف في مجلسه تصرفًا يسيء إليه، ويؤدي إلى الأذى والمنافرة والعداوة[5].

وإذا كان للجلوس في طلب العلم آدابه، فالسؤال له أدبه وأصوله وقواعده، وقد أوجز ابن حزم ذلك في قوله: أن يسأل طالب العلم عما يجهله، فإن السؤال عما تدريه سخف وقلة عقل، وشغل لكلامك، وقطع لزمانك بما لا فائدة فيه لا لك ولا لغيرك، وربما أدى إلى اكتساب العداوات، ويجب أن يبتعد عن الفضول فإنها صفة سوء، وإن أجاب الذي سألت بما فيه الكفاية لك فاقطع الكلام، فإن لم يزدك بيانًا وسكت أو أعاد عليك الكلام الأول، ولا مزيد فأمسك عنه، وإلا حصلت على الشر

---

(1) مراتب العلوم، 4 / 77.

(2) مداواة النفوس، 1 / 412.

(3) المداواة، ص 411.

(4) جامع بيان العلم ص 90.

(5) مداواة النفوس، ص 382.

والعداوة ولم تحصل على ما تريده من الزيادة، كما يجب على صاحب السؤال ألا يلجأ إلى اللجاجة والمكابرة، «وإياك وسؤال المعنت ومراجعة المكابر الذي يطلب الغلبة بغير علم»، وإذا سأل فليسأل سؤال المتعلم فيستزيد علمًا، ولا يعارض لمجرد المعارضة دون بينة، وإذا لم يكن عنده إلا تكرار قوله أو المعارضة فالأحسن له أن يمسك عن ذلك لأنه لن يحصل على أجر زائد أو تعليم، بل على العداوة التي قد تؤدي إلى المضرة[1].

والعالم الذي يؤخذ عنه العلم يتصف بالأخلاق الحميدة، والعلم الواسع وشدة التواضع، والترفع عن الصغائر، وليعلم العالم «أن العلم موهبة وهبها الله له فعليه أن يحافظ عليها ولا يقابلها بما يسخط الله عليه، فربما حرمه الله منها بعلة تنسيه ما علمه وما حفظه»[2]، وكثير من أهل العلم يجدون في القراءة والإكباب على الدرس والطلب، ثم لا يرزقون منه حظًا، فيجب على العالم أن يتذكر دائمًا نعمة الله عليه بهذه الموهبة، لأنه لو كان بالإكباب وحده لكان غيره فوقه[3].

والعالم يجب أن يتصف بالتواضع إذا وصل إلى المعرفة، ولا يظهر الإعجاب بنفسه والإزراء بالآخرين فيستحق المقت[4]، وإن أعجب بآرائه، فعليه أن يتذكر سقطاته، ويحفظها ولا ينسى في كل رأي قدره صوابًا، فخرج بخلاف تقديره، وأصاب غيره، وأخطأ هو وعليه أن يعتقد أنه معرض للخطأ أكثر من الصواب، أو على الأقل يوازن سقوط رأيه بصوابه فتخرج لا لك ولا عليك.

والعالم هو الذي يترفع عن المسلك الوضيع، ولا يستعلي على من هو دونه، ولا يترك مناسبة يزيد منها علمًا أو معرفة جديدة إلا استفاد منها، ويقول ابن حزم: لكل شيء فائدة، ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة، وهي أنه توقد طبعي واحتدم خاطري، وحمي فكري، وتهيج نشاطي، فكان ذلك سببًا في تواليف لي عظيمة

---

(1) مداواة النفوس، 1 / 412، وفي هذا الباب ذكر معاصره ابن عبد البر في كتابه بيان العلم على لسان لقمان لابنه قوله: يا بني لا تجادل العلماء فتهون عليهم ويرفضوك، ولا تجادل السفهاء فيجهلوا عليك ولكن اصبر نفسك لمن هو فوقك في العلم ولمن هو دونك، فإنما يلحق بالعلماء من صبر لهم ولزمهم واقتبس من علمهم في رفق. ابن عبد البر: جامع بيان العلم، ص 129.

(2) مداواة النفوس، 1 / 388.

(3) ن. م.

(4) مراتب العلوم، 4 / 81.

المنفعة، ولولا استثارتهم ساكني، واقتداحهم كامني، ما انبعثت لتلك التواليف[1].

ويكره ابن حزم الحسد، ولكنه يعتبر الحسد نوعان للعالم: حسد بغيض وحسد محمود، فالحسد البغيض هو الذي ينتقص من العلماء ويزري بأقوالهم وأفعالهم دون وجه حق ويشوه صورتهم في غيبتهم، وأما الحسد المحمود هو رغبته في الوصول إلى من هو أعلى منه في العلم بزيادة البحث والقراءة والمنافسة في طلب العلم، ويقول ابن حزم: «ألا يحسد من فوقه حسدًا يؤديه إلى تنقيصه، وأما إن حسده ولم ينتقصه، وكان ذلك رغبة في الوصول إلى ما وصل إليه محسوده فحسن ورغبة في الخير»[2].

ويرفض ابن حزم أن يكون العالم مجرد ناقل لأقوال الآخرين ومقلدًا لهم، ومتبعًا لكل من سبقه دون أن يفرق بين قول وقول، أو بين رأي ورأي، ويكون للعالم رأيه واجتهاده، ولا يتأتى هذا إلا بكثرة البحث والاطلاع.

والعالم هو الذي لا يشغل نفسه بأدنى العلوم ويترك أعلاها وهو قادر عليها، وشبهه ابن حزم بزارع الذرة في الأرض التي يجود فيها البر، وكزارع الشَّعراء حين يزكو النخيل والتين[3].

ومن صفات العالم النظر في كل العلوم بذهن صاف وفكر نقي وعقل سليم، فيستفيد منها، ويجدها تفتح له كل مستغلق وتنير له كل غامض في جميع العلوم[4].

ولا يطلب بعلمه عرض دنياه، فيبذل الأفضل بالأدنى، وأن يستعمل تقوى الله في سره وجهره فهو زين العالم[5].

وإذا عهد إلى العالم بالكتابة عن موضوع، فعليه بالتأني في كتابته لاستيعاب الموضوع وحسن التفكير فيه، واختيار العبارات اللازمة للمناسبة، والإلمام بجوانب الموضوع حتى يتقنه، وقد ذكر ابن حزم ما حدث عندما أمر المنصور بن أبي عامر أبو عمر أحمد بن دراج[6]، وأبو مروان عبد الملك بن إدريس المعروف بابن الجزيري[7] بإنشاء كتب الفتح إلى الحضرة وسائر الأعمال، فأجاب ابن الجزيري بالسمع

---

(1) مداواة النفوس، 1 / 367، 368.

(2) مراتب العلوم، 4 / 81.

(3) مداواة النفوس، ص 344.

(4) مراتب العلوم، ص 100.

(5) مراتب العلوم، 4 / 81.

(6) الكتاني: التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق د. إحسان عباس، ص 296.

(7) ن. م. ص 317.

والطاعة، أما ابن دراج فقال: لا يتم لي ذلك في أقل من يومين أو ثلاثة، وكان معروفًا بالتنقيح والتجويد والتؤدة، فخرج الأمر إلى ابن الجزيري بالشروع في ذلك، فجلس في ظل السرادق ولم يبرح حتى أكمل الكتب في ذلك، وقيل لابن دراج: افعل ذلك على اختيارك فقد فسح لك فيه، فوصف ابن دراج الغزاة من أولها إلى آخرها، ومشاهد القتال وكيفية الحال بأحسن وصف وأبدع عبارة، فاستحسنت وأعجب الجميع بها، ولم تزل منقولة متداولة إلى الآن، وما بقي من نسخ ابن الجزيري في ذلك الفتح على كثرتها عين ولا أثر.

والعالم لا يخالط إلا أهل العلم من قرنائه، أو من هم أوسع منه علمًا حتى يستطيع أن يستفيد مما خفي عليه، أو تتفتق له فكرة جيدة غابت عنه، فيزيدها بحثًا واطلاعًا، ويبتعد عن طائفة السوء من الذين ينتسبون إلى العلم، وهم أقرب إلى الجهل بعلمهم القليل المحدود، والذين امتلأت قلوبهم بالحسد ممن هم أعلم منهم وهذه طائفة سوء قد نسبت أنفسها للقعود على طريق العلم، يصدون الناس عنها ليكثر نظراؤهم من الجهال[1].

ويقول ابن حزم: غاظني أهل الجهل مرتين من عمري: إحداهما بكلامهم فيما لا يحسنونه أيام جهلي، والثانية بسكوتهم عن الكلام بحضرتي أيام علمي، فهم أبدًا ساكتون عما ينفعهم، ناطقون فيما يضرهم، وسرني أهل العلم مرتين من عمري، إحداهما بتعليمي أيام جهلي، والثانية بمذاكرتي أيام علمي[2].

ويحذر ابن حزم من موافقة الجليس السيىء ومساعدة أهل زمانه، دون مراعاة لما يصيبه من خزي في الدنيا والآخرة، فلا يستفيد إلا الندم، حيث لا ينفع الندم، ويقول: «ولن يحمدك من ساعدته، بل يشمت بك، وأقل من ذلك وهو المضمون أنه لا يبالي بسوء عاقبتك، وفساد مغبتك، كما أوصى وحذر من مخالفة جليسه أو معارضة أهل زمانه، فيما لا يضره في دنياه ولا آخرته فربما أدى ذلك إلى المطالبة والضرر العظيم دون منفعة أصلا» [3].

---

(1) مداواة النفوس، 1 / 388.

(2) ن . م. ص 845. وقد قال الخليل بن احمد: أيامي أربعة: يوم أخرج فالقى فيه من هو أعلم مني فأتعلم منه، فذلك يوم فائدتي وغنيمتي، ويوم أخرج فالقى فيه من أنا أعلم منه، فذلك يوم أجري، ويوم أخرج فألقى فيه من هو مثيلي فأذاكره فذلك يوم درسي، ويوم أخرج فيه فألقى من هو دوني وهو يرى أنه فوقي فلا أكلمه وأجعله يوم راحتي. ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله، 1 / 161.

(3) مداواة النفوس، ص382، 383.

فإذا اتخذ العالم مجلسه للتعليم فعليه ألا يتكلم في علم قبل أن يحكمه فيخزى، وألا يزري أو يستهين بأي علم لجهله به، أو يذم علم من العلوم وألا يكتم علمه «فيحصل هو ومن لا علم له في منزلة واحدة، إذ كلاهما غير مستعمل للعلم ولا مظهر له، والعالم لا يبخل عن طالب يسأله أو يستفسره، فالعلم لا يغني على النفقة، ولا يفارقه مع البذل»[1].

وإذا جلس العالم فليكن واضح الحديث ويبتعد عن التعقيد، واستعمال الغامض من الألفاظ، والمستغلق من الكلام قصد التمويه، فيظن المرء أن كلامه مملوء حكمة وهو في حقيقته أبعد عن هذا كله، وأن يسهله جهده، ويقربه بقدر طاقته، ويخففه ما أمكنه، ولا يسخر ويحتقر من هو دونه إذا سأله، لأنه كان مثله قبل أن يعلم ما علم»[2].

من آراء ابن حزم المتناثرة بين كتبه ورسائله، وإن كنا لم نحط بها جميعًا لضعفنا وقلة باعنا في فهم كل كتب ابن حزم، لأن ذلك يتطلب التفرغ له، والإحاطة بعدد كبير من علومه التي تناولها، ومشاغل العمل لا تساعد عليه، لكننا استطعنا بهذا العمل البسيط أن نخرج بتصور تقريبي للتربية والتأدب بآداب العلم،من آراء ابن حزم، ومحاولة ابن حزم أن يرسم صورة مهذبة وراقية تتخلق بأخلاق سامية، وسلوك شريف، ليستحق أن ينطبق قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «العلماء ورثة الأنبياء».

* * *

(1) التقريب لحد المنطق، 4 / 101.

(2) مراتب العلوم، 4 / 81.

المصادر والمراجع

- ابن بسام: الذخيرة. تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1928.
- ابن حزم: رسالة التلخيص. تحقيق د. إحسان عباس.
  رسالة التوقيف. تحقيق د. إحسان عباس.
  التقريب لحد المنطق. تحقيق د. إحسان عباس.
  مراتب العلوم. تحقيق د. إحسان عباس.
  مداواة النفوس. تحقيق د. إحسان عباس.
- ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله.
- الحميدي: جذوة المقتبس. تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة 1952.
- الذهبي: تذكرة الحفاظ. جـ 3.
- القاضي عياض: الإلماع.
- القابسي: الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين. نشرها د. أحمد الأهواني بعنوان: التربية في الإسلام، القاهرة 1955.
- الكتاني: التشبيهات في إشعار الأندلس. تحقيق د. إحسان عباس.
- المقري: نفح الطيب. جـ 2 تحقيق محمد عبد الله عنان.
- د. أحمد ساسي شبشوب: منزلة العلم والتعليم بالأندلس. ندوة الأندلس بالمملكة العربية السعودية سنة 1993.
- د. سالم يفوت: تصنيف العلوم لدى ابن حزم. مجلة دراسات عربية 1983.
- د. محمد أبو زهرة: ابن حزم، حياته وأثاره.
- د. ناصر الدين الأسد: جوامع السيرة.

* * *

معاهد العلم والتعليم بالأندلس

في عهد المرابطين

معاهدُ العلم والتّعليم بالأندلس في عهْد المرابطين

اهتمّ المرابطون بالتعليم ونشره منذ اللحظة الأولى التي ارتبطوا بها بدعوة ابن ياسين وأخذوا يقبلون على الكتاتيب والمدارس في شغف، واعتنوا بنشرها في أنحاء المغرب، وليس أدل على ذلك من أن ابن تومرت قبل سفره للمشرق قد حفظ القرآن الكريم وجوده وألم بقدر من علوم الدين واللغة العربية بمسجد قريته إيجلي الواقعة بجبال الأطلس ببلاد السوس[1] مما يدل على انتشار معاهد العلم.

وعندما احتك المرابطون بحضارة الأندلس، تفتحت أمامهم آفاق جديدة في العلم، وبدأوا يتعلمون من الأندلسيين الذين عرفوا بحبهم للعلم وشغفهم الكبير بالتعلم، فاهتموا بتربية وتعليم أبنائهم منذ نعومة أظفارهم، ولم يكن التعليم مقصورًا على الأولاد، بل شمل البنات أيضًا، ولم يطرأ أي تغيير على النظام الذي كان معمولاً به من قبل، إذ كانوا يرسلون أبناءهم إلى الكتاب الذي يسمونه بالمحضرة، أو الحضار أو المسيد[2] وعلل الدكتور بنشريفة[3] سبب تسمية الكتاب بالمحضرة لحضور التلاميذ إليه أو لكونه يحضرهم ويهيئهم للتعليم المتوسط أو العالي، وكلمة المحضرة أو الحضار ما زالت مستعملة إلى اليوم.

وبرغم اهتمام المرابطين بالتعليم، إلا أنه لم يكن عندهم مدارس خاصة لتلقي العلم كما كان الحال بالمشرق، بل ظل المسجد هو المكان المخصص للدراسة، فإن لم يكن المسجد فبيت الأستاذ نفسه، وطالب العلم هو الذي ينفق على نفسه، وربما ترك عمله الذي يتعيش منه من أجل تلقي العلم، يقول المقري[4]: ومع هذا فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة، فهم يقرؤون لأن يعلموا، لا لأن يأخذوا جاريًا، فالعالم منهم بارع، لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه، يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه، وينفق من عنده حتى يعلم.

---

(1) ابن القطان: نظم الجمان، ص 37

(2) ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص 25.

(3) الزجالي: أمثال العوام، تحقيق د. محمد بنشريفة، ص 1، 231

(4) المقري: نفح الطيب، ص 1، 221.

وكان ابن عبدون[1] ينهى عن تعليم الأطفال في المساجد، ويأمر بأن يكون لهم محضرة خاصة بهم، وإن كان ولا بد في المسجد، فتكون في السقائف خشية أن يتسبب الأطفال في نجاسة المسجد.

واهتموا بالمحضرة والشخص الذي يقوم بتأديب الصغار، واشترطوا فيه شروطًا عديدة، لأنه مسؤول عن ترويض الصغار، فكان يشترط في المؤدب ألا يكون عزبًا، ولا شابًا، بل يكون شيخًا خيرًا، دينًا عفيفًا، ورعًا، قليل الكلام والشهوة إلى استماع ما لا يعنيه، وأن لا يحضر الجنائز البعيدة، ولا يكثر من البطالة، ولا يهمل الصبيان، ولا يتغيب عنهم إلا لأخذ الغذاء والوضوء، ويكون راتبًا في مكانه، محافظًا على حوائج الصبيان[2].

وبالرغم من الاشتراط على المؤدب بألا يكثر من عدد المتأدبين عنده، حتى يستطيع أن يؤدبهم ويعلمهم، إلا أن كثيرًا من أصحاب هذه الكتاتيب لا يلتزمون بهذا الشرط، وكان الفقيه الزاهد أبو العباس ابن العريف[3] (ت 536هـ / 1141م) يرى أن يباح للمؤدب المشهود له بالصلاح والعلم وعدم الجشع إذا وجد في نفسه القدرة أن يعلم عددًا أكبر من الصبيان، إذ يرى في تعليم الصغار القرآن ثوابًا وأجرًا، فيقول «إذا علم المعلم من نفسه علم يقين أنه ليس بحريص على حظ نفسه من المال والجاه، وأمكنه أن يستكثر من الصبيان بوجه مباح صحيح فعل من ذلك الغاية، فإن أولى الناس بتعليم الخير أقربهم من القبول».

وكانوا يراقبون تعليم أولادهم[4]، ويختبرون حقهم، ولا يقبلون عذر المؤدب إذا أهمل أو قصر[5]، ويجلس بعض الآباء بالقرب من المحضرة ينتظر خروج أولادهم، ومنهم من يدخل بين الفينة والأخرى يسأل عن شيء مما يشوش على المؤدب[6]

(1) ابن عبدون: م. س. ص 24، 25.
(2) ن. م.
(3) مخطوط طريق السعادة وتحقيق طريق الإرادة ص 589، ابن عباد الرندي: الرسائل الصغرى، الرسالة الخامسة من رسائل ابن العريف.
(4) انظر: د. حسين مؤنس وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس. صحيفة المعهد المصري بمدريد، المجلد الثاني، سنة 1954، الرسالة التي أرسلها الأمير علي بن يوسف أمير المسلمين إلى ابنه أبي بكر ينهره فيها ويقرعنه بسبب شكوى الوزير أبي مروان بن زهر الذي يقوم على تعليمه وتربيته.
(5) يقولون «لا صبي يحفظ ولا مؤدب يعذر»، الزجالي: م. س. ص 223.
(6) ابن عباد الرندي: م. س. الرسالة الرابعة.

ويزعجه، ويرون ضرورة استعمال الدرة في تعليم هؤلاء الصغار حتى يتعودوا من صغرهم على العلم[1].

ويرى ابن عبدون[2] ألا يؤدب الصبي بأكثر من خمسة أسواط للكبير وثلاثة للصغير، وتكون من الشدة على حسب احتمالهم، وذلك أن إرهاف الحد من التعليم، مضر بالمتعلم لا سيما أصاغر الولد، لأنه من سوء الملكة، ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر، وضيق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل، وحمل على الكذب والغش والخبث، وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفًا من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقًا، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن، وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله، وصار عيالاً على غيره، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل، فانقبضت عن غايتها، ومدى إنسانيتها فارتكس وعاد أسفل سافلين[3].

أما المواد التي كانت تدرس لهؤلاء الصغار في المرحلة الأولى مرحلة الكتاب فهي تعلم القرآن الكريم الذي جعلوه أصلاً من التعليم، ثم أخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والهجاء، وحسن الألفاظ في القراءة وتجويد التلاوة، ويأمر من كان كبيرًا بالصلاة ويكتب له التشهد وما يقول في الصلاة ويعطى بعض الحساب[4].

أما القاضي أبو بكر بن العربي فكان يرى تقديم العربية والشعر على سائر العلوم، «لأن الشعر ديوان العرب»، ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين، ثم ينتقل إلى دروس القرآن، فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة، لأنه من الصعب أن يؤخذ الصبي بكتاب الله يقرأ ما لا يفهم، فيكل ويتعب عن فهم غيره، ثم بعد ذلك ينظر في أصول الدين ثم أصول الفقه، ثم الجدل، ثم الحديث وعلومه، ونهى مع ذلك أن يخلط في التعليم علمان إلا أن يكون المتعلم متقبلًا لذلك، لجودة فهمه

---

(1) يقولون «ضرب المعلم للصبي كالماء للزرع».

(2) ابن عبدون: م. س. ص 25.

(3) ابن خلدون: المقدمة، ص 4، 1363، 1364.

(4) ابن عبدون: م. س. ص 25، ابن خلدون: م. س 1360.

ونشاطه وذكائه[1].

وكان يرى الاقتصار على كتب الأشعرية والعبارات الإسلامية والأدلة القرآنية، أما العلوم الأخرى كالفلسفة وعلم الكلام وكتب الباطنية وغيرها فهذه تتوقف على الشخص إذا وجد في نفسه منة، أو تفرس فيه الشيخ المعلم له لذلك فلا بد من توقيفه على صميم مآخذ الأدلة، واتساع درجات العلم، وتمكنه من بجبوحات المعارف؛ حتى يكون مستقلاً بأعباء الشريعة مطيقًا على حمل أثقالها، بصيرًا بالنضال عنها والذب عن حرماتها، إذا احتيج إليه فيها[2].

ولكن الأندلسيين كانوا يؤثرون دراسة القرآن تبركًا وثوابًا، وخشية ما يعرض للولد في سنوات الصبا من الأمراض والآفات والقواطع عن العلم، فيفوته القرآن ـ مادام في الحجر ـ منقاد للحكم، فإذا تجاوز البلوغ وانحل من ربقة القهر، فربما عصفت به رياح الشبيبة، فألقته بساحل البطالة فيغتنمون في زمان الحجر، وربقة الحكم تحصيل القرآن لئلا يذهب خلوًا منه، وكان ابن خلدون[3] يحبذ رأي ابن العربي في منهجية التعليم ويرى رأيه.

ولابن العريف[4] رسالة مهمة في طريقة تربية وتعليم الصغار يقول فيها: وليس على المعلم واجبًا أن يتولى كل صبي بنفسه في كل أوقاته وأحواله، فإن هذا غلو وحقحقة، وإنما عليه أن يتولى جميعهم بنظره ورأيه حتى لا ينصرف الصبي، إلا وقد كتب وقرأ غيره إذا أمكنه ويتركه إلى الغفلة في بعض الأوقات فلا بد منها، ولا بد للمعلم أن يسمح لهم فيها، فإنها العون على وقت الشدة، والمجاهدة له ولهم، ولكن ليكون هم المعلم في تعليمهم أخلاق الديانة من الحياء والتواضع وذكر أخبار الفقر، وعيوب الغنى ونحو ذلك من أوصاف الإيمان، أهم عليه وأوجب إليه من حفظهم لحروف السواد، يلقي ذلك إليهم كلمة كلمة وينبههم عليها وقتًا وقتًا، وإذا حضر مخالفة مع مولاه من بلاء ونحوه فلا يستره عنهم، وليأخذ معهم في بعض أوقاته من العشيات فيما أمكنه من الدعاء وفيما يحضره من حكايات العباد والزهاد والصالحين والعلماء تحببًا منه للسلف الصالح عندهم، وإحياء لما درس من ذكرهم وآثارهم

(1) ابن خلدون: ن. م. ص 1362.

(2) ابن العربي: العواصم من القواصم 2 / 109.

(3) ابن خلدون: م. س. ص. 1362، 1363.

(4) ابن العريف: طريق السعادة ص 589.

وتذكرة لنفسه.

والتعليم في نظر بعضهم[1] صناعة تحتاج إلى معرفة ودراية ولطف وكياسة، فهي كالرياضة للمهر الصعب الذي يحتاج إلى سياسة ولطف، وتأنيس حتى يرتاض، ويقبل التعليم، لأن حفظ القرآن الكريم شيء والتعليم شيء آخر لا يحكمه إلا عالم به، إذ أن المرحلة الأولى من التعليم تستلزم الصبر والدربة فكثير منهم لا يرغب في التعلم «وإذا بالصبيان لا يبذلون جهدًا ولا يفقهون رشدًا»[2].

وكان لانتشار الكتاتيب في المدن والقرى أن أقبل الصغار عليها لتلقي العلم، وكان يتعذر أن يوجد فلاح أندلسي لا يعرف القراءة والكتابة في حين كان ملوك أوربا لا يقدرون أن يكتبوا أسماءهم في توقيعاتهم[3].

والمؤدب أو المعلم الذي يعلم في الحضار أو المسيد يتفق معه على عقد ينص فيه على مرتبه وما يشترط عليه وكانت هذه المرتبات في الغالب قليلة لا تكفي المؤدب، لذلك لا يخلو الأمر من بعض الهدايا التي تقدم إلى المؤدبين في المناسبات وتسمى الفتوح، أو عندما يتم الصبي حفظ القرآن ويحذقه وتسمى بالحذقة[4].

ويتفاوت الأجر من مؤدب إلى آخر، ويرى البعض[5] أن الأجر رمزي وأن الغاية من الجلوس هو تعليم القرآن.

فابن العريف[6] يؤكد على ذلك بقوله: «وإني وإن كنت آخذ منهم الأجرة فإني لم أجلس لهم من أجلها وإنما جلست لتعليمهم كتاب الله» وقوله عليه السلام: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، وفي موضع آخر يقول: «فإن أجرتهم وإن كانت لفاقتي مسدًا ولحاجتي مردًا، فما من أجلها قعدت، فليس من مجيئها أو فقدها مسرة ولا مبرة بل هي في بعض النظر حجاب ومضرة، والمرجو منهم الذي قعدت من أجله هو التعليم».

أما في المرحلة المتوسطة والعالية فكان التعليم يستلزم نفقات كبيرة خاصة أنه

---

(1) ابن عبدون: م. س. ص 25

(2) ابن عباد الرندي: م. س. الرسالة الخامسة ص 226، ابن العريف: م. س و58.

(3) د. سامي العاني: دراسات في الأدب الأندلسي ص 96.

(4) الزجالي: م. س. ص 232، الونشريسي: المعيار 7 / 7، 17م ـ 18، 86.
ابن العريف: م. س. و33، ابن عباد الرندي: م. س. الرسالة الرابعة، ص 217.

(5) ن. م.

(6) الزجالي: م. س. ص 232.

كان يوجد بعض الأساتذة الذين يطلبون أجرًا كبيرًا، مما يشكل عبئًا كبيرًا على كثير من الطلبة الذين يكونون قطاعًا كبيرًا من أبناء الطبقة الوسطى وأصحاب الحرف الذين كانوا يرون في التعليم وسيلة إلى فتح الأبواب أمامهم[1]، فالعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة، يشار إليه ويحال عليه وينبه قدره وذكره عند الناس، ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة وما أشبه ذلك[2].

وذكر أن أبا بكر الخِدَب (ت 580هـ / 1184م) رئيس النحويين في زمانه دون مدافعة يشتط على طلبة العلم فيما يشترطه عليهم جعلاً على إقرائه إياهم ولا يتساهل في تحصيله منهم، شديد المشاحة فيه، مع أنه لم يكن محتاجًا إذ كان يعمل بالتجارة والخياطة[3].

بينما كان هناك أساتذة بارون بالطلبة يشفقون عليهم مقدرين لظروفهم، فعرف عن أبي عبد الله بن الفخار (511 ـ 590هـ / 1117 ـ 1193م) الذي عد من «أحفظ أهل زمانه للحديث والفقه واللغات والآداب والتاريخ»، أنه كان بارًا بطلاب العلم مبالغًا في إكرامهم، متناهيًا في التحفي بهم[4].

وكان أبو الحسن بن هذيل متى توجه إلى ضيعته لبلة من جزء الرصافة بغربي بلنسية صحبه طلبة العلم إليها للقراءة عليه والسماع منه، فيحمل ذلك منهم طلق الوجه منشرح الصدر، جميل الصبر، ويتنابونه ليلاً ونهارًا فلا يسأم من ذلك ولا يضجره برغم كبر سنه حسبما كان عليه أمره معهم من قبل، وأقرأ ببلنسية أكثر من ستين عامًا[5].

وذكر أيضًا عن الفقيه أبي عمر أحمد بن سعيد أن الطلبة كانوا يقصدونه في داره وهم أكثر من أربعين طالبًا في أشهر الشتاء فيحتفي بهم ويقدم لهم الطعام كل يوم بعد الفراغ من الدرس، وكان الطعام وافرًا حتى إن هؤلاء الطلبة يبقون على هذه الوجبة إلى اليوم التالي طيلة الثلاثة شهور[6].

---

(1) الزجالي: م. س. ص 232.
(2) المقري: م. س. 1 / 220.
(3) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، سفر 5، قسم 2، رقم 1235.
(4) ن. م. سفر 6، رقم 218.
(5) ن. م. سفر 5، رقم 638.
(6) ابن بشكوال: الصلة، ج1 رقم 71.

وإذا سمع طلبة العلم بأستاذ مبرز في علم من العلوم رحلوا إليه ليسمعوا منه ويكتبوا عنه أو ليعطيهم إجازة، وتشعبت هذه الرحلات داخل البلاد وخارجها، وكان الإقبال شديدًا من أبناء العدوة في الرحلة إلى الأندلس لينهلوا من التقدم الفكري والحضاري الذي سبقتهم فيه الأندلس، وتصور كتب الطبقات هذه العلاقات التي نشأت بعد التوحيد بين المغرب والأندلس فتتحدث بإسهاب عن أهل المغرب الذين وفدوا على الأندلس والتحقوا بمدارسها، وجلسوا إلى فقهائها وعلمائها وأدبائها وشعرائها، وعادوا إلى بلادهم بذخيرة علمية عظيمة ينفعون الناس، كما أن كثيرًا من كتاب وفقهاء وعلماء وشعراء الأندلس شدوا الرحال إلى الحاضرة مراكش يعرضون مواهبهم وخدماتهم، وتجولوا بمدنه يحيط بهم الطلاب، يروون عنهم، ويأخذون منهم ويتعلمون على أيديهم، يمهد لهم الأمراء السبيل، ويحيطونهم بالرعاية والتكريم.

وكان ملوك وأمراء المرابطين يستقدمون أعلام الفقهاء والعلماء لتأديب بنيهم وحضور مجالس مشورتهم، وتعليم أهل المغرب وتأديبهم[1].

فرحل الناس إلى أبي عبد الله بن الفرس (501 ـ 567هـ / 1107 ـ 1171م) في مرسية من شرق وغرب الأندلس ومن العدوة يتدارسون الفقه، ويتذاكرون بين يديه ويسمعون الحديث عليه، ويتلقون كتاب الله بالقراءات السبع[2].

وكان لاشتهار أبي عبد الله بن ذي النون الحجري (505 ـ 591هـ / 1111 ـ 1194م) لعلو إسناده، ومتانة حفظه، أن تسابق الناس في الرحلة إليه للسماع منه والأخذ عنه، واستدعي إلى حضرة السلطان بالمغرب ليسمع عليه هناك، فتوجه إلى مراكش وأقام بها حينًا، فحدث عنه عالم من الجلة الأعلام من الأندلس والعدوة[3].

بينما تنافس الطلبة في الأخذ عن أبي بكر بن صاف كبير المقرئين بإشبيلية فكان لا يقرىء مع القرآن شيئًا من النحو والأدب إلا يومًا أو يومين في الجهة[4].

وصار دكان أبي بكر بن علي بن خلف مألوفًا للجلة من طلبة العلم بإشبيلية وكان أكابر شيوخه يقصدونه بموضعه ويغتنمون مجالسته والمذاكرة معه، والاستفادة

(1) د. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص 430.
(2) ابن عبد الملك: م. س. سفر 6، رقم 995، ابن الأبار: التكملة ج 2، رقم 1394.
(3) ابن الأبار، ن. م. رقم 2080.
(4) ابن عبد الملك، م. س. سفر 6 رقم 535.

منه لتبريزه في حفظ القرآن واستبحاره في الذكر لمسائله وشدة عنايته بالحديث وروايته[1].

وهذا أبو الحسين سراج بن سراج يجتمع إليه للسماع الأربعين والخمسين من رؤساء الملثمين ومهرة الكتاب، فأبو عبد الله بن أبي الخصال قال عنه ابن الأبار[2]: «خاتمة أولي البيان وصدر أعيانها العلماء» وكان من أكمل أهل عصره مروءة وصيانة وأوسعهم مالاً وجاهًا وأكثرهم مهابة.

ومن الملاحظ أن جل الاهتمام في التعليم كان منصبًا على قراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث فللفقه رونق ووجاهة، وسمة الفقيه عندهم جليلة، حتى أن الملثمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه، وكان لقب الفقيه يطلق على أي عالم في أي فرع من فروع العلم[3].

وساعد على نمو الحركة العلمية النشاط في حركة اقتناء الكتب وتأسيس المكتبات، وانتشرت المكتبات ليس في المدن الكبرى، بل في القرى الصغيرة أيضًا[4]، وتنافس الأغنياء في جمع الكتب الجديدة وضمها إلى مكتباتهم[5] فقد صف الحجاري أبا إسحق إبراهيم بن عبيد الله المعروف بالنوالة بأنه بحر أدب ليس له ساحل، وأفق رئاسة قد زينه الله بنجوم المكارم والفضائل، وأنه كان ممن يؤخذ من ماله وأدبه، وأنه استعان بخزائن كتبه العظيمة على ما صنفه في كتاب المسهب، وبلغ في دولة الملثمين من الجاه والمال والذكر بقرطبة ما لم يبلغه أحد، ولم يكن تأسيس المكتبات مقصورًا على الأثرياء وحدهم، بل إننا نجد هذه الرغبة أيضًا عند الطبقات الفقيرة[6].

وكان لبعض أمراء المرابطين اهتمام بالعلم وتنافسوا في اقتناء الكتب، فحدثنا ابن الأبار[7] عن الأمير المنصور بن محمد بن الحاج اللمتوني بقوله: «كان ملوكيّ

(1) ن. م. رقم 1194، ابن الأبار: م. س. ج1 رقم 1053.
(2) ابن الأبار: المعجم، رقم 295.
(3) المقري: م. س. 1 / 221.
(4) د. إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، ص 49.
(5) انظر ابن سعيد: المغرب، ج 1، رقم 15، من 71.
(6) المقري: م. س. 1 / 462.
خوليان ريبيرا: المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا، ترجمة: جمال محرز، مجلة معهد المخطوطات العربية، مجلد 4، سنة 1958، ص 92.
(7) ابن الأبار: المعجم، رقم 174

الأدوات، سامي الهمة، نزيه النفس، راغبًا في العلم، منافسًا في الدواوين العتيقة والأصول النفيسة جمع من ذلك ما عجز أهل زمانه».

ولم يقتصر جمع الكتب على الرجال وحدهم، بل شاركتهم النساء في ذلك، ولم تكن المرأة في هذا العصر كما تخيلها كثيرون جالسة مسترخية على الوسائد الوثيرة، تستنشق عبير البخور المتصاعدة من المواقد، قابعة داخل الحريم[1].

واشتهرت بعض النساء اللائي تتلمذ عليهن طلبة العلم مثل الحرة تاج النساء بنت رستم التي قرأ عليها عدد من الطلبة، منهم الفقيه العالم عمر بن عبد المجيد بن خلف[2] وروى قراءة وسماعاً عن أم الفتح فاطمة بنت أبي القاسم الشراط ابنها القاسم بن محمد بن سليمان الأنصاري الأوسي[3].

وأخذ عن أم العفاف نزهة بنت أبي الحسين سليمان اللخمي القراءات، وتلا عليها حفيدها محمد بن أحمد بن يحيى بن أبي القاسم سيد الناس، فتلا عليها بالتسع والسبع المشهورة، وقراءتي يعقوب وابن محيصن[4].

وتلت فاطمة بنت أبي القاسم عبد الرحمن على أبيها القرآن بحرف نافع ثم استظهرت عليه «تنبيه مكي» و«شهاب القضاعي» و«مختصر الطليطلي»، وقابلت معه «صحيح مسلم»، و«السير» تهذيب ابن هشام، و«كامل» المبرد، و«أمالي القالي» قرأته على أبي محمد عبد الله الأندرشي الزاهد، وابن المفضل الكفيف، وحدث عنها ابنها أبو القاسم بن الطيلسان، وتلا عليها القرآن بقراءة ورش، وقرأ عليها ما عرضت على أبيها من الكتب وسمع عنها الكثير، وأجازت له بخطها[5].

وكان في إمكان المرأة أن تتعلم الخط والنحو والشعر ولم يقتصر هذا الأمر على نساء الطبقة العليا أو الدنيا واحترفت مئات من النساء نسخ المصاحف وكتب العبادات التي يكثر الإقبال عليها، وكن يبعثنها فيما بعد إلى الوراقين لما يمتزن به في عملهن من إتقان كبير، ومهارة في الكتابة، هذا فضلاً عن أنهن أرخص أجرًا[6].

---

(1) خوليان ريبيرا: م. س. ص 92.
(2) ابن عبد الملك: م. س. سفر 5، قسم 2، رقم 780.
(3) ن. م. رقم 1090.
(4) ن. م. رقم 1245.
(5) ن. م. سفر 8 رقم 267.
(6) خوليان ريبيرا: م. س. ص 94.

والقرآن الكريم كان أكثر انتساخًا، إذ يقرأه التلاميذ في المدارس ويتلوه المصلون في صلواتهم، ويقرأ ويرتل في المساجد إلى غير ذلك، وكان نسخ المصاحف أحسن الكتب من حيث الشكل، وتجويد الخط، وفخامة التغليف وهناك دائمًا نساخون متفرغون بصفة خاصة لنسخ المصاحف سواء أكان ذلك لعظم الربح الذي يدره عليهم كتابتها أو تبركًا بها[1].

وأقبل الأمراء والنبلاء على الثقافة والعلم، كما أقبل عليها عامة الملثمين، وتحدثنا كتب التراجم التي سجلت أعمالهم عن بعضهم مثل المنصور بن محمد بن الحاج داود بن عمر الصنهاجي اللمتوني الذي سمع بقرطبة من أبي محمد بن عتاب وأبي بحر الأسدي، وبمرسية من أبي علي الصدفي، ومع أنه من رؤساء لمتونة وأمرائها فقد برع في معرفة الأخبار والسنن والآثار، وصحب العلماء للسماع، بل نافس في الدواوين والأصول العتيقة، وجمع من ذلك ما لم يجمعه أحد من أهل زمانه، وهو فخر صنهاجة، ليس مثله[2].

وتتلمذ الأمير عمر بن إمام بن معتز الصنهاجي أمير ألمرية على الشيخ أبي علي الصدفي وبلغ من علمه أن سمي بالفقيه القائد[3]. وأخذ الأمير أبو إسحق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين على نفس العالم أبي علي الصدفي أثناء إمارته على مرسية[4]، وأخذ الأمير ميمون بن ياسين الصنهاجي اللمتوني عن شيوخ المرية، ووصل إلى مكة، وحدث الناس بالأندلس، وسمع منه الناس بإشبيلية[5].

بينما نجد أمير المسلمين علي بن يوسف استجاز له عبد الله الخولاني جميع رواياته لعلو إسناده، وبرع الأمير أبو بكر سير الصنهاجي في العلم وتبحر فيه، فلما توفي كتب على شاهد قبره، هذا قبر الشيخ الفقيه الخطيب الحاج أبي بكر الصنهاجي[6].

---

(1) ن. م.

(2) ابن الأبار: التكملة، 1 / 163، ط مدريد.

(3) ن. م. ص 269.

(4) ابن الأبار: المعجم، رقم 40.

(5) ابن الأبار: التكملة، ج 2، رقم 1823.

(6) د. حسن أحمد محمود: م. س. ص 439.

.Levi - Provincal, Inscription Arabes d'Espagne, p 123

وذاع صيت طائفة من هؤلاء الملثمين في أواخر القرن الخامس وأوائل السادس الهجري مما يدل بوضوح على أن الملثمين لم يكونوا أعداء للعلم أو للثقافة فاشتهر منهم زاوي بن مناد بن عطية الله بن المنصور الصنهاجي المعروف بابن تقسوط الذي كان من أعلام مدرسة دانية وجلة شيوخها[1]، وخلوف بن خلف الله الصنهاجي الذي سمع بقرطبة وولي قضاء غرناطة[2]، وغيرهم كثير.

* * *

المصادر والمراجع

1) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، نشر عزت العطار، القاهرة 1956.
2) ابن الأبار: التكملة، طبعة مدريد 1886.
3) ابن الأبار: معجم أصحاب أبي علي، نشر فرانشيسكو كوديرا مجريط 1985.
4) ابن بشكوال: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، الدار المصرية للنشر 1966.
5) ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: د. علي عبد الواحد وافي، القاهرة 1968.
6) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، تحقيق: د. شوقي ضيف، ط. 3، القاهرة 1978.
7) الزجالي: أمثال العوام في الأندلس، تحقيق: د. محمد بنشريفة، فاس 1975.
8) ابن عباد الرندي: الرسائل الصغرى، تحقيق: بولس نويا، بيروت 1973.
9) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، سفر 5، 6، تحقيق: د. إحسان عباس، بيروت 1965، 1973.
10) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، سفر 8، تحقيق: د. محمد بنشريفة، الرباط 1984.

---

(1) ابن الأبار: المعجم، رقم 75.
(2) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ص 84.

11) ابن عبدون: رسالة في الحسبة، نشر ليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة 1955.
12) ابن العريف: مفتاح السعادة وتحقيق طريق الإرادة، الخزانة الحسنية، الرباط.
13) ابن العربي: العواصم من القواصم، تحقيق: د. عمار الطالبي، نشره بعنوان: آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، الجزائر 1974.
14) ابن القاضي المكناسي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل بمدينة فاس، الرباط 1973.
15) ابن القطان: نظم الجمان، تحقيق: د. محمود مكي، تطوان.
16) المقري: نفح الطيب، تحقيق: د. إحسان عباس، بيروت 1968.
17) د. إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، بيروت.
18) د. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، القاهرة 1957.
19) د. حسين مؤنس: وثائق جديدة عن دولة المرابطين صحيفة المعهد المصري بمدريد، 1954.
20) خوليان ريبيرا: المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا، ترجمة د. جمال محرز، مجلة معهد المخطوطات العربية، مجلد 4، ص 1، 1958.
21) د. سامي مكي العاني: دراسات من الأدب الأندلسي، بغداد 1978.

* * *

أسرة بني حمدين

ودورها السياسي في الأندلس

أسرة بني حمدين ودورها السياسي في الأندلس

من الظواهر الملفتة للنظر في تاريخ الأندلس تأثير بعض البيوتات الكبيرة في مساره الاجتماعي والسياسي منذ الفتح إلى سقوط الأندلس، وكانت هذه الأسر تنتهز فرصة ضعف الحكومة المركزية فتعمد إلى الانتزاء والاستقلال مكونة إمارات أو دويلات متنافسة ومتنافرة تلجأ في غالب الأحوال إلى الاستعانة بالممالك النصرانية، مما أدى في النهاية إلى سقوط الأندلس.

يهمنا من هذه البيوتات أسرة بني حمدين التغلبية في قرطبة، وقد دخل جدهم حمدين الأندلس في طلعة بلج، فنزل باغة ابن هيثم واستوطنها مدة وتكاثروا بها[1]،وعرف بيت بني حمدين بأنه بيت فضل وعلم وصلاح وخير، وشغلوا مناصب الشورى والقضاء في قرطبة[2]، ومدحهم الشعراء، فمن قصيدة لأبي بكر بن سوار[3]:

مِنْ مَعْشَرٍ حُمِدُوا فأُحمِدَ سَعْيُهُمْ   فَلِذَاكَ مَا سُمُّوا بَنِي حَمْدِين

مَضَتِ القُرونُ ومَرَّت الدُّنْيا ومَنْ   فِيها ومَا جَاءَتْ لَهُمْ بِقَرِين

ولا نعرف متى انتقل أبو الحسن علي بن عبد العزيز بن حمدين إلى قرطبة، ولكن يبدو أنه استقر بها بعد زواجه من إحدى بنات المنصور بن أبي عامر التي أنجب منها ابنه حمدين والد أبي الحسن المعروف بالفلفلي في أصل بيته[4].

كان أبو الحسن مشاور للأحكام بقرطبة صدرًا فيمن يستفتى بها، وله مجلس بالمسجد الجامع بقرطبة، وما أدراك ما المسجد الجامع! هذا الذي كان يعد من عجائب العالم الإسلامي من حيث بنائه المعماري كما كان يشغل هذا المسجد مكانة كبيرة في نفوس القرطبيين، فكان أبو الحسن علي يسمع الناس فيه، ويتحلق حوله طلبة العلم يأخذون عنه، وشهر عنه التدين والتواضع، وكان متعاونًا وقورًا من أهل العلم والحفظ والرأي، كثيرة التلاوة للقرآن الكريم رطب اللسان يذكر الله كثيرًا،

---

(1) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 252.

(2) ابن بشكوال: الصلة، 2 / رقم 900 ص 399.

(3) ابن بسام: الذخيرة، قسم 2، 1 / 817.

(4) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج2، رقم 151، ص 255.

فحمدت سيرته واحترمته العامة والخاصة[1].

وأبو الحسن علي أخذ العلم عن علماء عصره، وكان مصاهرًا للقاضي أبي زكريا يحيى بن محمد القليعي من أهل غرناطة الذي كان مشاورًا بها، فأخذ عنه، ونحن لا نعرف هل تزوج بابنة القليعي قبل ابنة المنصور بن أبي عامر أو بعدها، ولكن من المرجح أنه تزوج بابنة القليعي قبل انتقاله إلى قرطبة وبنائه بابنة المنصور، فابنه البكر أبو عبد الله محمد هو حفيد القليعي[2] ولد سنة 439هـ بقرطبة.

وعندما سئل أبو الحسن بن مغيث عنه قال: «هو من بيت شرف ورفعة من أهلِ الفضل والعلم والعمل الصالح ومن أهل الحفظ والإتقان والإمامة في الدين، مثلاً في العقلاء الفضلاء، ما رأيت في أهل العلم مثله سمتًا وطريقة»[3].

توفي أبو الحسن علي بن عبد العزيز بن حمدين سنة 482هـ / 1089م، فاختير ولده أبو عبد الله محمد في منصب الشورى بقرطبة، وكان ذلك في بداية دولة المرابطين بالأندلس، وأبو عبد الله محمد تفقه بأبيه وطبقته، وسمع منه ومن أبي عبد الله محمد بن عتاب وأبي القاسم الطرابلسي وغيرهم. وأجازه أبو عمر بن عبد البر والدلائي. وكان ذكي الفهم سريع الخاطر رقيق الطبع، ورعًا دينًا حذرًا من العواقب، وهو أحد شيوخ القاضي عياض الذي حلاه بقوله: «أجل رجال الأندلس وزعيمها في وقته ومقدمها جلالة ووجاهة وفهمًا ونباهة مع النظر الصحيح في الفقه والأدب البارع والتقدم في النثر والنظم»[4].

وفي سنة 490هـ / 1096م قلده الأمير يوسف بن تاشفين قضاء الجماعة واستمر في منصبه هذا إلى وفاته سنة 508هـ / 1114م، فكسب ثقة أمير المسلمين يوسف وابنه علي وحب الناس وثقتهم، وكان ساعيًا في كل خير، قطع الضرائب والمعاون على أهل قرطبة وسن طريقة جميلة وسيرة حسنة[5].

عاصر أبو عبد الله محمد أحداثًا هامة وكانت له مواقف صارمة في هذه الأحداث التي شكلت منعطفًا خطيرًا في حياته وجعلته مقربًا من المرابطين من الأمير

---

(1) ابن بشكوال: م. س.

(2) ترجمة القليعي في الصلة، ج2، رقم 47، ص 632.

(3) ابن بشكوال: م. س. ج 2، رقم 900، ص 399.

(4) عياض: م. س.

(5) ابن القطان: نظم الجمان، ص 18.

يوسف ثم من ابنه الأمير علي بن يوسف بن تاشفين، فهو الذي أشار على الأمير يوسف بن تاشفين أثناء جوازه للأندلس 496هـ أن يفتدي يهود ألسانة غرناطة أنفسهم بأموال جمة لأنهم التزموا للنبي صلى الله عليه وسلم إذا جاءت سنة خمسمائة للهجرة دون ظهور نبي منهم على ما زعموا فإن الإسلام لازم لهم.

وفي أثناء توليته قضاء الجماعة كان الوالي على قرطبة هو الأمير محمد ابن الحاج داود اللمتوني، فلما مرض الأمير يوسف بن تاشفين مرضه الأخير وثقل عليه في 499هـ قام ابن الحاج بنقض بيعة ولي العهد الأمير علي بن يوسف ودفع إمرته «ومالأه الملأ من أهل قرطبة ومشيختها وفقهائها» وشجعه على هذا العمل وحسنه له وزيره أبو بكر محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز المعروف بابن المرخي، وأبو عبد الله بن أبي الخصال، ورفض قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد نقض البيعة واعتبرها فتنة، ويصفها ابن بسام[1] بقوله: «تلك الفتنة التي ألقحوا حائلها وما لحوا مخايلها، وطمعوا أن يغتالوا ملكًا معصومًا وأبرموا من كيدهم ما غدا بيد القدر مفصومًا»، لكن ابن الحاج والمؤيدين له لم يعجبهم موقف ابن حمدين، فنكلوا به وهددوه بالموت إن لم يغير موقفه، فلم يأبه بهم واستطاع الإفلات من قبضتهم. ومع أن الذين ترجموا له لم يذكروا هذا الحادث الهام مثل ابن بشكوال والقاضي عياض والذهبي إلا أن الفتح بن خاقان ذكره ونقله عنه المقري في «أزهار الرياض» يقول: وما أدار ابن الحاج من خلافة 499هـ ما أدار، واتفق هو ومن واطأه على ما فسخته الأقدار، استشير في الخلع فما أساغه وأريغ ضبيره فلم يكن فيمن راغه، وعرض على الحِمام فما هابه، ووالى في نقض ما أبرموه جيئته وذهابه، وسمح في ذلك بنفسه، وقنع من غده بذكر أمسه، فلما انجلت ظلماؤه، وتحلت بنجوم ظفر سماؤه، أُغري بالمطالبين اهتضامه وحيفه، وسرى إليهم مكره سُرَى قيس لِحمَل وحذيفة، وأعلن لم أسر إغراءه ولم ينظر بالمكروه نظراءه، فأُخْمل منهم أعلامًا، وأورث نفس الدين منهم آلامًا، وألبسهم ما شاء، ذمًا من الناس وملامًا فدجت مطالع شموسهم، وخلت مواضع تدريسهم فأصبحوا ملتحفين بالمهانة، متشوفين إلى الإهانة، يروعهم الرّواح والغُدُو، ويحسبون كل صيحة عليهم هُمُ العدو، ويذعرهم طروق النوم للأجفان، وينكرهم الثابت العرفان، فقد فقدوا حبورًا، وعادت منازلهم قبورًا، إلى أن نُفِّس

(1) ابن بسام: الذخيرة، ج 3، قسم 2، ص 784.

مُخَنَّقهم بعد أحوال، وخلا أفقهم من تلك الأهوال، فتنشقوا ريح الحياة، وأشرفوا من تلك الظلمات بعد أن مال البؤس نعيمهم وأخذ الحِمَامُ زعيمَهم»[1].

نجح قاضي الجماعة ابن حمدين في تأليب الناس على عصابة ابن الحاج كما بادر بإرسال رسالة إلى الأمير يوسف بن تاشفين وعلي بن يوسف يعرفهما بالأحداث والصعوبات التي يلاقيها من بعض عماله فأجابه برسالة يفوض له الأمور ويطلق يده في اتخاذ القرار ويعطيه صلاحية كاملة في محاسبة وسجن من يستحق من أمراء وعمال المرابطين، ومصادرة أموالهم إذا لزم ذلك ويعطيه الحرية في تقدير معاشه في منصبه ويطلب منه الصبر على ولاية القضاء والالتزام بالكتاب والسنة والعدل بين الناس، ولا يبالي برغم راغم، ولا يشفق من ملامة لائم. وقد خاطبه أمير المسلمين علي بن يوسف بقوله: «وصل كتابك فوقفنا على معانيه، وأحصينا الجمل والمفصل مما ذكرته فيه، والذي أومأت إليه من أن الأمر الذ ي وليته ذو شغوب مشغبة، وأشغال على محاولها صعبة، حق لا امتراء فيه، ولا غطاء على محصليه ولذلك ما اختير له على وجه الزمان، أهل المنن من أولى الديانة والصيانة الذين نرجوا أن تكون منهم محسوبًا، وفي صدر ديوانهم مكتوبًا فاستهد الله يهدك، واستعن بالله يعنك في صدرك ووردك، وتول القضاء الذي ولاكه الله بجد وحزم وجلد وعزم، وأمض القضايا على ما أمضاها الله تعالى في كتابه وسنة نبيه، ولا تبال برغم راغم، ولا تشفق من ملامة لائم، وآس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع قوي في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك، ولا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له، ولا أضعف من القوي حتى تأخذ الحق منه، وانصح لله تعالى ولرسوله عليه السلام ولنا ولجماعة المسلمين.

وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك في كل حق تمضيه، ولا يعترضوا عليك في قضاء تقضيه، ونحن أولاً وكلهم آخرًا مذ صرت قاضيًا سامعون منك غير معترضين في حقه عليك، والعمال والرعية كافة سواء في الحق، فإن شكت إليك بعامل وصح عندك ظلمه لها ولا يتجه في ذلك عمل غير عزله فاعزله، وإن شكا العامل من رعية خلافًا في الواجب فاشكه منها وقومها له، ومن استحق من كلا الفريقين الضرب والسجن فاضربه واسجنه، وإن استوجب الغُرْم في ما استهلك

---

(1) المقري: أزهار الرياض، 3 / 96، ط 2، وزارة الأوقاف.

فأغرمه، واسترجع الحق شاء أو أبى من لدنه، والأمر في استكفاء من يكفيك، ويغني في بعض الأمور عنك إليك، ولا نشير بشيء عليك، وتصرفك أحيانًا في إصلاح صنعتك وترقيع معاشك، غير مضيق عليك فيه، فاعلمه».

فلما توفي الأمير يوسف في مطلع 500هـ / 1106م أخذت لابنه البيعة من أمراء المرابطين وتلكأ الأمير ابن الحاج، فعزله الأمير علي بن يوسف وعين بدله الأمير أبا عبد الله محمد بن أبي بكر اللمتوني، وأسرع أمير المسلمين علي بالجواز إلى الأندلس مع جيوش المرابطين «لتفقد أهلها وسد خللها» فلما وصل الجزيرة الخضراء بادر إليه قضاة الأندلس وفقهاؤها وزعماؤها ورؤساؤها وأدباؤها وشعراؤها يعلنون الولاء، وامتدحه الشعراء فأجزل لهم العطاء، وقضى لكل صاحب حاجة حاجته، وولي أخاه أبا الطاهر تميم غرناطة، وقبض على ابن الحاج ونكب وفسد تدبيره وهرب من كان يؤازره متفرقين في أنحاء الأندلس إلى أن صفح الأمير علي بن يوسف عن ابن الحاج ومن معه[1].

وكانت من الأحداث المهمة التي ارتبطت بأبي عبد الله بن حمدين والتي كانت لها انعكاساتها الواضحة على الأندلس والمغرب حادثة حرق كتاب «الإحياء» للغزالي 503هـ / 1109م، فقد أجمع فقهاء قرطبة وعلى رأسهم ابن حمدين على ضرورة حرق الكتاب لما يحويه من أحاديث ضعيفة ومعلومات لا يفهمها العامة، مما يشكل خطورة على عقيدتهم، وأخذوا موافقته وأمر أمير المسلمين علي بن يوسف بحرق «الإحياء» فأحرق في رحبة مسجد قرطبة الجامع على هيئته بجلوده بعد إشباعه زيتًا وحضر لذلك جماعة من أعيان الناس وأرسلت الأوامر إلى جميع البلاد بحرق الكتاب حيثما وجد، «وأخذت منه نسخ من أيدي أصحابها كان معول الغزالية عليها»[2].

وقد سئل الإمام أبو بكر الطرطوشي عن شرعية حرق «الإحياء» فأرسل بكتاب إلى الأندلس فيه «وأما ما ذكرت من إحراق الكتاب فلعمري إذا انتشر بين من لا معرفة له بسمومه القاتلة، خيف عليهم أن يعتقدوا إذًا صحة ما فيه، فكان تحريقه في معنى ما حرقته الصحابة من صحف المصاحف التي تخالف المصحف

---

(1) انظر ابن الأبار: المعجم، رقم 120 ص 132، 133 ورقم 125 ص 145، 146، ابن عذاري: البيان المغرب، 4 / 48.

(2) منها كتاب أبو عمر ميمون بن ياسين الصنهاجي اللمتوني، وكتاب القاضي أبي بكر بن العربي ابن القطان: م. س. ص 14.

العثماني»[1]. وقال الطرطوشي أيضًا: «شحن أبو حامد «الإحياء» بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا أعلم كتابًا على بسيط الأرض أكثر كذبًا منه، ثم شبكه بمذاهب الفلاسفة ومعاني رسائل إخوان الصفاء، وهم قوم يرون النبوة مكتسبة، وزعموا أن المعجزات حيل ومخاريق»[2].

وكان لحرق الإحياء رد فعل معاكس لفقهاء قرطبة خصوصًا في ألمرية وتزعم الحركة فيها أبو الحسن علي بن محمد الجذامي المعروف بابن البرجي[3] (ت 509هـ / 1115م). وأوجب في من امتثل لأمر السلطان بحرق كتب الغزالي تضمين قيمتها لأنها مال مسلم ويؤدب محرقها وكتب السؤال في هذه النازلة وكتب فتياه بعقبه، ودفع إلى أبي بكر عمر بن أحمد الفصيح وأبي القاسم بن ورد[4] وغيرها من فقهاء ألمرية ومشايخها فكتب كل واحد منهم فيه بخطه «وبه يقول فلان من المسلمين لعلمه وزهده» فغاظ ذلك قاضي الجماعة ابن حمدين وكتب إلي قاضي ألمرية أبي عبد الملك مروان بن عبد الملك[5] بعزله عن خطة القضاء، وألف ابن حمدين رسائل في الرد على الغزالي ومن تعصب له، يقول: «إن بعض من يَعِظُ ممن كان ينتحل رسم الفقه، ثم تبرأ منه شغفًا بالشرعة الغزالية والنحلة الصوفية أنشأ كراسة تشتمل على معنى التعصب لكتاب أبي حامد إمام بدعتهم، فأين هو من شُنع مناكيره، ومضاليل أساطيره المباينة للدين؟ وزعم أن هذا من علم المعاملة المفضي إلى علم المكاشفة الواقع بهم على سر الربوبية الذي لا يسفر عن قناعه، ولا يفوز باطلاعه إلا من تَمَطَّى إليه ثَبَج ضلالته التي رفع لهم أعلامها وشرع أحكامها»[6].

وكانت المنافسة شديدة بين أسرة بني حمدين والبيوتات الأخرى في قرطبة على منصب قاضي الجماعة خصوصًا مع أسرة ابن رشد، فقد حظيت العائلتان برعاية أمراء المرابطين واحترام رأي عميد الأسرتين أبي عبد الله محمد بن حمدين وأبي الوليد ابن رشد فكانا كفرسي رهان في المنزلة والعلم وإن تميز ابن رشد بتآليفه العديدة في

---

(1) الذهبي: سير النبلاء، 19 / 495.
(2) ن. م.
(3) ابن الأبار: التكملة، رقم 1841، ط مجريط
(4) ابن الأبار: المعجم، رقم 23.
(5) ابن الأبار: التكملة، رقم 1747، ط مجريط.
(6) الذهبي: س. م. ج 19 رقم 204 ص 332.

الوقت الذي لا نعرف لابن حمدين تآليف ضخمة مثل تآليف ابن رشد غير الرسائل التي ألفها في الرد على المعارضين لحرق «الإحياء»، أو بعض المكاتبات الأدبية والرسائل الإخوانية وقليل من النظم، ولم يتيسر له أن جمعت له فتاويه كما حدث لابن رشد، وربما هذا يرجع لانشغاله بمنصب القضاء بينما نجد ابن رشد يستعفي ليتفرغ للتأليف، لكن من خلال «المعيار» للونشريسي نتعرف على اتجاه ابن حمدين في اجتهاداته الفقهية خصوصًا عندما تكون النازلة معروضة على ابن رشد، ومن أمثلة ذلك نازلة عزل قاضي الجزيرة الخضراء ابن عبد الخالق الذي تشكى أهلها من سوء حال قاضيهم لأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين فأحال أمره إلى قاضي سبتة ابن منصور الذي تحرى عنه سرًا فصح عنده أنه لا يصلح للقضاء، غير أن القاضي المعزول لم يرض بالعزل وطلب معرفة مصدر معلوماته حتى لا يكون أحد أعدائه هو الذي أوقع به، غير أن القاضي ابن منصور رفض تعريفه بمصدر معلوماته، فرفعت شكايته إلى فقهاء قرطبة للتحكيم فيها، فقال ابن رشد لا يلزم تعريفه بمن ثبت تجريحه واحتج بأن هذا ليس من باب الأحكام التي يعزل فيها بالتعديل والتجريح، بل يكفي العزل الشكوى، كفعل عمر في سعد بن أبي وقاص. ولهذا المعزول أن يزكي نفسه لتقبل شهادته، ولا يكون عزله جرحة، إذ القضاء حق للمسلمين ولذا لا يمكن من الإعذار، وعندما عرضت النازلة على ابن حمدين قال: لا يصح الاحتجاج بقضية سعد لأن ذلك إنما هو للأمراء، لعام نظرهم في ذلك وغيره واستدل على أن من عزل منهم توسم بعضهم فيما بأيديهم، والقاضي ليس له ذلك ومال إلى الإعذار للقاضي من أجل جرحته[1].

ومثل آخر يتعلق بالحياة الأسرية ويظهر من النوازل التي تتعلق بالأسرة، نجد تشدد ابن حمدين، كنازلة رجل قال لامرأته وكانت تشاجر أمه: بالله الذي لا إله إلا هو إن تشاجرت مع أمي وخرجت من الدار إن خرجت إلا كخروجها. ولكن الزوجة تشاجرت وخرجت وخرجت الأم فأجاب فقهاء قرطبة بأنه لا يلزمه إلا كفارة يمين. ولكن ابن حمدين خالفهم ورأى أنها طالق ثلاثًا، وقضى بذلك وفرق بين الرجل وامرأته بالثلاث[2].

وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن قاضي الجماعة ابن حمدين أراد أن

---

(1) الونشريسي: المعيار، 10 / 115.

(2) ن. م. 4 / 175.

يكون هذا الحكم رادعًا لمن تسول له نفسه على القسم بهذا الشكل ورادعًا للزوجة التي خالفت زوجها ولم تحترم أمه وتشاجرت معها.

ومع هذا التشدد نراه يراعي بعض الظروف التي تحيط ببعض معارفه إذا وضعوا في موقف حرج فمما يذكر عنه أن رجلاً كان مع ابن حمدين وابن رشد حين كانا يتلقيان العلم، فارتفع ابن حمدين حين بلغ القضاء والفتيا وابن رشد كذلك، وخرج الرجل مختلفًا فلم يتم تعليمه، وأخذ طريقًا آخر، وكان له حمام وعتبة يستغلهما ويتعيش من دخلهما.

وحدث أن رفعته العامة أيام قضاء ابن حمدين وذكروا أنه شرب الخمر، فلما وقعت عينه عليه عرفه، فقال له: يا شيخ إنك أحمق، فقال الرجل: ما يعرفني غيرك ، فأمر بإرساله من أيديهم، ومرت مدة فأخذته الناس ثانية إلى ابن حمدين، وذكروا أنهم وجدوه ومعه الخمر، فقال: ما شأنك أيها الشيخ؟ فقال: يا أخي فساد الزمان ومجافاة الإخوان ومعاداته العوام هذا شأني! فقال لهم: أعرف هذا مجنونًا، أرسلوه. فقال بعضهم لبعض: إن هذا القاضي لا يمكنكم منه، اقطعوا مادته فأتوا إلى حمامه وعتبته فهدموهما وحملوا جميع أنقاضهما وترابهما وبقيتا عرصتين كأنهما ما عمرا قط. وقطعوا مادته من قطع معاشه(1).

وبرغم جدية أبي عبد الله محمد بن حمدين فقد قال شعرًا في الغزل يتعارض وصرامته البادية في أحكامه، فقد ذكر أنه حضر مجلس حكمه عبد أسود وامرأة له بيضاء، يتحاكمان إليه فقال بديهة:

رأيت غرابًا على سوسنة ... وذاك دليلٌ لسوء السنة

فيا مرود الأبنوس افتخر ... ويا مكحل العاج زد معونة(2)

وفي أخرى(3):

وزائرة ليلاً فقلت لها أما ... خشيت رقيبًا عن طريقك يقطع

فبادرتها لثمًا وأسرعت ضمها ... عناقًا وما كنا بذلك نطمع

---

(1) ن. م. 4 / 175.

(2) الأصفهاني: خريدة القصر، ج 2، رقم 86، ص 296.

(3) ن. م.

وأبـدت تعـاطيني كـؤوس ملامهـا وتسـمعني مـن ذاك مـا لـيس يسـمع

فقلـت لهـا: حلـي النقـاب تفضـلاً فعمـا قليـل ضـوء صـبحك يطلـع

فأنَّـت كمـا أنَّ السـليم لمـا بـه وقلـبي بتـذكار التفـرق يصـدع

وبتنـا، وأيـم الله، لا إثـم بيننـا بـريئين مـن حـدس بـه الظـن يقطـع

إلى أن دعـا داعـي الصـباح فودعـت ومـرت كمـر البـرق بـل هـي أسـرع

وكان لهذه الوضعية الاجتماعية والعلمية المتميزة لأبي عبد الله بن حمدين أن قصده الشعراء والأدباء يمدحونه وينالون عطاياه وتوجه إليه ذوي الحاجات لقضاء حاجاتهم أو سد ديونهم أو فداء أسراهم[1]. وجه إليه ابن سوار قصيدة لفداء أخيه الذي وضعه مكانه عند النصارى يقول:

لله درك أيهـا القاضـي فمـا حبـل الرجـاء لـديك غـير مـتين

ولقـد ذكرتـك والعـدو يعضـني والعلـج يلطـم صـفحتي وجبـيني

يـوم العـذاب وللكـلاب تضـور حـولي ونشـاب الـردى تـرميني[2]

ومع ذلك فهناك من هجا بني حمدين بشعر لاذع فقد عرّض أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البني من أهل مدينة جيان بالقاضي أبي عبد الله بن حمدين بأبيات أولها:

أدجـال هـذا أوان الخـروج ويـا شمـس لـوحي مـن المغـرب

يريـد ابـن حمـدين أن يعتفـي وجـدواه أنـاي مـن الكوكـب

إذا سـئل العـرف حـك اسـته ليثبـت دعـواه في تغلـب[3]

---

(1) مدحه الشاعر أبو بكر بن سوار والأعمى التطيلي وابن خفاجة وأبي حاتم الحجاري وأبو مروان عبد الملك بن محمد بن شماخ والزجال المعروف ابن قزمان، انظر: الذخيرة، القسم الثاني 1 / 222، 747، 750، القسم الثالث 2 / 590، 592، 659، 661، 665، 666، 827، 828، 829. وديوان الأعمى التطيلي، وديوان ابن خفاجة، وخريدة القصر، نفح الطيب 4 / 76.

(2) ابن بسام: م. س. قسم 2، 2 / 817.

(3) المعجب، ص 236.

بعد هذه الحياة الحافلة وبعد عمر تجاوز التسع والستون عامًا سقط هذا الرجل مريضًا مدة خمسة عشر يومًا بالفواق ومات في المحرم لثلاث بقين منه سنة 508هـ وصلى عليه ابنه صاحب «أحكام القضاء» أبو القاسم أحمد، فحزن الناس عليه ورثاه بعض الأدباء والشعراء وقال ابن القطان عنه بعد أن حلاه بصفات كثيرة: «كسب ثقة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وابنه الأمير علي من بعده فحاز على مكانة لديهم لم يحزها غيره ممن سلف وكانا لا يخالفانه في شيء».

ونظرًا لهذه الثقة التي نالتها هذه الأسرة من أمراء المرابطين فقد كلف ابنه أبو القاسم أحمد صاحب «الأحكام» بأن يحل محل والده في منصب قاضي الجماعة بقرطبة واستمر إلى سنة 511هـ / 1117م فعزل وعين أبو الوليد بن رشد قاضيًا للجماعة الذي استمر في هذا المنصب إلى أن طلب استعفاءه منه أثر الهيج الكائن بقرطبة حين استطالت العامة على بيوت وأملاك المرابطين، لكي يتفرغ لتأليف كتابه «البيان والتحصيل» فعاد أبو القاسم أحمد بن حمدين مرة أخرى لمنصب قاضي الجماعة واستمر يشغله نافذًا في أحكامه إلى أن توفي من علة خدر طاولته ودفن يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وخمسمائة ودفن بالربض وصلى عليه ابنه أبو عبد الله محمد.

عين الأمير علي بن يوسف مرة أخرى في منصب قاضي الجماعة الأخ الآخر لأبي القاسم بن حمدين وهو أبو جعفر حمدين سنة 522هـ / 1128م، ولكنه عزله 527هـ / 1132م، وعين القاضي الفقيه أبا عبد الله بن الحاج مكانه واستمر في منصبه إلى أن قتل سنة 529هـ / 1134م ونظرًا لهذا الحادث البشع الذي اغتيل فيه قاضي الجماعة أثناء الصلاة في مسجد قرطبة الجامع، وأهمية الحادث خصوصًا أن مسجد قرطبة كان له دور كبير في الحياة السياسية والاجتماعية في الأندلس، فقد اضطربت الأمور وبقيت قرطبة حوالي خمسة شهور دون قاضي إلى أن استدعي أبو جعفر بن حمدين وكلف بمنصب قاضي الجماعة للمرة الثانية في صفر 529 / نوفمبر 1134م، ثم صرف عن القضاء 532هـ / 1137م، وحل محله القاضي أبو القاسم أحمد بن رشد غير أن ابن رشد واجه صعوبات وعراقيل كثيرة في منصبه، فلم يكن قويًا على ما يظهر من تتابع الأحداث، ولم يكن في حزم ومكانة والده أبي الوليد، وكما يبدو أنه تعرض لدسائس ابن حمدين وأنصاره خصوصًا أن منصب قاضي الجماعة صار أشبه بمنصب وراثي لآل بني حمدين تتداوله العائلة فكثرت حول ابن

رشد الشائعات التي وصفته بالضعف والتقصير خصوصًا بعد أن أفتى هو والمشاورين الذين معه لأمير المسلمين علي بن يوسف بأشياء يقتضيها مذهب مالك وأصحابه في أموال بني عامر وبني صمادح وإعادة النظر في رجوعها إلى بيت المال، وخالفهم ابن حمدين وقال بأن هذا يؤدي إلى تضييع كثير من أموال الرعية والتعرض إليهم[1]. مما تسبب في اضطراب الأمور في قرطبة على ابن رشد ومن وافقه في هذه الفتوى واستطالت الأيدي وشغب العامة التي انتهزت الفرصة بما عرف عن أهل قرطبة من سرعة التقلب والميل للشغب والثورة.

كانت فرصة لأبي جعفر بن حمدين، ولما يتمتع من احترام بين الناس ولما لبيتهم من نفوذ ومكانة فقد خرج للناس ونجح في ردع العامة وتهدئة الخواطر، وظهر في هذه المناسبة كزعيم يملك تهدئة الأحوال بوافر حكمته، غير أن الأمور تعقدت إثر فرار قاضي الجماعة أبو القاسم بن رشد واختفى مستعفيًا عن القضاء. فعاود العامة الهرج والشغب مما أحنق أمير المسلمين علي بن يوسف، فلم يعين لها قاض وبقيت قرطبة دون قاض وتعطلت الأحكام أكثر من عام وفي خلال هذه السنة انتشر أنصار ابن حمدين يدعون له ويشيعون في كل أنحاء قرطبة أن أمور القضاء لا تستقيم إلا بابن حمدين، ومصالح الناس معطلة لا يستطيع حلها إلا ابن حمدين، فأذن أمير المسلمين لأهل قرطبة في اختيار قاضيها فاتفقوا على أبي جعفر بن حمدين 536هـ / 1141م وفي ذاك يقول ابن قزمان:

خيروا الناس في قاض	والرفيع كل مختار
فالتوى أمرك أيام	ووقع ثم أخبار
رفعت عنك الأسباب	وجرت فيه الأقدار
فجرت بالتفرج	وجا الأمر مزروب
العلا قد قطع من	كل منسوب بحمدين
جمعوا بين الاثنين	بين الدنيا والدين
يعني الدنيا والدين	ليس محتاج لتبيين

(1) الونشريسي: م. س. 6 / 98.

ولا ظهـــــر لـــــه مخفـــــي   ولا كشـــف لـــه محجـــوب

وفي هذه الكائنة يعلق الفقيه القاضي أبو الحسين بن سراج على ما حدث بين ابن رشد وابن حمدين بقوله: «ما كان بينه وبين بني حمدين من البعد والتنافس لا تزال قرطبة دار عصمة ونعمة ما ملك أزمتها أحد من بني حمدين»(1).

تولى أبو جعفر بن حمدين منصب قاضي الجماعة وعادت أمور قرطبة إلى بيت بني حمدين، وسارع الشعراء والأدباء للتهنئة ونيل عطاياه، يقول ابن قزمان:

قـــد ســبَقْتَ الكــرامَ وأهـــل البَلَـــدْ

بتقـــدم جـــاوزت فيـــه كـــلّ حـــدّ

فمتـــى مـــا نقـــيس عـــلاك مـــع أحـــد

فقـــد أقرنــــت الفضــــة للقزديــــر

مشـــى ذكـــرك علـــى المـــداين وطـــاش

مـــن يقـــول إن عنـــد غـــيرك يعـــاش

فهـــو أخـــذل فـــذا الكـــلام مـــن نعـــش

وهُ أكـــذب في الحـــديث مـــن أســـير

طبـــع الإنســـان كـــي يختـــبر في الحـــين

فكـــانوا قـــد كـــان صـــحبه ســـنين

منــــذ لم تحكمـــوا بـــني حمـــدين

وقــــع الجِـــسّ والــــذكا فــــالبير

كانت ثورة المريدين في غرب الأندلس بزعامة أحمد بن قسي، وفتنة الموحدين بعدوة المغرب قد بدأت تحدث إثرها، وأخذت بذور الفتنة تختمر من جديد في أذهان أهل قرطبة القلب، وسنحت لهم الفرصة عندما خرج واليها الأمير أبو زكريا يحيى بن

(1) ابن الأبار: التكملة، ج1، رقم 771، ص 286.

غانية بقواته في اتجاه إشبيلية لحمايتها من عبث المريدين فثارت العامة على نائبه الرئيس أبي عمر المسوفي، وخلعوا دعوة المرابطين واتفقوا على مبايعة القاضي أبي جعفر بن حمدين الذي كانت تضطرم نفسه بأطماع كثيرة وآمال عريضة، قال عنه ابن الخطيب «كان شهماً يجبس في صدره الأمر الذي برز فيه»[1].

بايع الناس قاضي الجماعة أبا جعفر بن حمدين في الخامس من رمضان سنة 539هـ / 1144م فسكن قصر الإمارة وتلقب بأمير المسلمين وناصر الدين والمنصور بالله، وقام أهل قرطبة بمطاردة المرابطين الموجودين بها واستباحوا ديارهم، فلما بلغ ابن غانية ذلك عاد أدراجه مسرعًا وترك حصار المريدين بلبلة.

وفي واقع الأمر فإن قرطبة لم تجتمع كلها على ابن حمدين فبعضها كان يؤيده ويقر رياسته، والبعض بقي على ولائه للمرابطين، وهناك من له حرص على دعوة ابن قسي ورغبة فيه، وهم المريدون بالربض الشرقي وعلى رأسهم أبو الحسن بن عتيق بن مؤمن، وفريق آخر كان يرى استدعاء سيف الدولة بن هود خير ممثل للزعامة الأندلسية العريقة، وكان سيف الدولة قد اتفق مع ملك قشتالة على تحريض الأندلس على المرابطين، ونجح سيف الدولة في مداخلة أهل قرطبة وإغرائهم بالوعود والعطايا للتخلي عن دعوة ابن حمدين وأمده ملك قشتالة بقوة من النصارى التي وصلت قبل قوات ابن قسي الذي انصرف خائبًا.

هرع أهل قرطبة القلب إلى تأييد سيف الدولة وقد سحرتهم نسبته الملوكية، وثروته الطائلة فسهلوا له دخول قرطبة وخلع ابن حمدين الذي اضطر للفرار إلى حصن فرنجولش المنيع الواقع شمال غربي قرطبة وانتظر به يترقب الأحداث، بينما نودي بسيف الدولة بن هود أميرًا على قرطبة باسم المستنصر بالله.

لم يدم الأمر لسيف الدولة بن هود إذ سرعان ما تغير عليه القرطبيون فلم يطيقوا منظر الجند النصارى ولا عسف وزيره ابن الشماخ، فهاجموا قصر الإمارة وفتكوا بوزيره وعدد كبير من أصحابه، فلما رأى سيف الدولة ما قام به أهل قرطبة وما حل بأصحابه فرّ ناجيًا بنفسه، ولم يكن قد مضى عليه في إمارة قرطبة سوى اثني عشر يومًا، واتجه إلى مدينة جيان التي تغلب عليها القاضي يوسف بن عبد الرحمن بن جزي الذي تلقب بالرئيس واستطاع ابن هود الاستيلاء على جيان. لا شك أن

(1) ابن الخطيب: أعمال الأعلام. وانظر كتابنا الأندلس في نهاية المرابطين.

الفريق الموالي للقاضي ابن حمدين كان له دور كبير في إثارة الناس على سيف الدولة وجنده النصارى، كما أن أنصار ابن قسي كانوا يحاولون استدعائه للاستيلاء على قرطبة خصوصًا بعد أن رفع ابن غانية حصاره عنهم في لبلة، وكانت حركة ابن حمدين أسرع من ابن قسي فوصل قبله إلى قرطبة واستأنف رياسته الثانية في 10 ذي الحجة 539هـ يونيه 1145م.

وكاتب ابن حمدين زملاءه من القضاة المتنزين يطلب اعترافهم برئاسته والدخول في طاعته، وفعلاً فقد أرسل له القاضي أبو جعفر بن أبي جعفر القائم في مرسية مشايعًا ومتابعًا، فقدمه ابن حمدين إلى خطة القضاء بمرسية وأقطارها، كما وجه له القائد أبا محمد بن فرج الثغري لقيادة الجيش ومعاونته في ضبط المدينة.

وقام أبو الغمر بن السائب بن عزون بدعوة ابن حمدين في شريش وأركش وأرسل له أخيل المترئس في رندة ببيعته وكذلك حذا حذوهم القاضي أبو الحسن بن أضحى في غرناطة وأرسل ابن حمدين جيشًا لمعاونته بقيادة ابن أخيه المعروف بابن أم العماد وعندما علم سيف الدولة بن هود بتدخل ابن حمدين في غرناطة ووصول قواته إليها، عجل بدخول المدينة في عسكر من أوباش النصارى وسقاط الجند، وقد مال عامة البلد إلى سيف الدولة بينما مال ابن أضحى والفقهاء وجماعة من أهل المدينة إلى ابن حمدين.

كانت غرناطة لا تزال أهم مدينة في يد المرابطين وقد اشتد الصراع بين كافة الأحزاب المتناحرة من أجلها غير أن أهل غرناطة تصالحوا مع المرابطين، ودبر حساد ابن حمدين في قرطبة المكيدة له، فكتبوا إلى يحيى ابن غانية الذي كان موجودًا بإشبيلية ونجم الحزب الموالي للمرابطين بقرطبة بمساعدة ابن غانية في دخول المدينة بعد أحد عشر شهرًا من حكم ابن حمدين من 12 شعبان 540هـ / يناير 1146م، ففر ابن حمدين إلى بطليوس فأجاره صاحبها ثم لجأ ابن حمدين إلى حصن أندوجر بالقرب من قرطبة وتحصن به فحاصره ابن غانية لكن ابن حمدين استصرخ بألفونسو ريمندس ملك قشتالة وبذل له الوعود بما أطمعه في حال نجاحه، فتوجه ملك قشتالة بجيش كبير لتخليص ابن حمدين من حصار ابن غانية ودخل ملك قشتالة وابن حمدين قرطبة في 20 ذي الحجة 540هـ / 20 مايو 1141م فاعتصم ابن غانية بقصبتها يدافع النصارى الذين عاثوا في شرق قرطبة فسادًا فاستباحوا المسجد الجامع وأخذوا ما كان به من المصابيح ومزقوا مصاحفه ومنها مصحف عثمان وأنزلوا المنار من الصومعة وكان كله من الفضة وحرقت الأسواق.

وفي هذه الأثناء اتصلت الأخبار بجواز الموحدين للأندلس وظهور دعوتهم بإشبيلية، فرأى ملك قشتالة أن يستبقي ابن غانية ويهادنه ويجعله سدًا في وجه الموحدين وتم الصلح مع ابن غانية على شروط من مال وبلاد التزمها له.

وانصرف ابن حمدين قاضي الجماعة السابقة في ظل صاحب قشتالة فأقام بحصن فرنجلوش، ثم قصد عبد المؤمن بن علي بمراكش فأقبل عليه وأحسن وعده، وهذه طريقة الموحدين في البداية حتى يكسبوا المنتزين، ولكن هيهات أن يأمن له عبد المؤمن الموحدي، فرجع ابن حمدين إلى الأندلس واستقر بمالقة التي ثار بها حليفه وصنيعته أبو الحكم بن حسون قاضيًا وأوعز إليه النهوض إلى قرطبة لكن ابن حسون أخفق في مسعاه، إذ ظهر ضعفه وبان وهنه ولم يستطع الاستيلاء على قرطبة فعاد إلى مالقة بخفي حنين، لكن ابن حمدين حرضه على مخالفة الموحدين فدعا لنفسه بها.

توفي ابن حمدين بمالقة بعد فترة قصيرة في التاسع عشر من رجب 546 ودفن بقبلي مسجدها، ولما استولى الموحدون على مالقة نبشوا قبره وصلبوه مع اثني عشر رجلاً من أصحابه، وأبو جعفر ابن حمدين لم يترك عقبًا له بمالقة لكن بقي بها عقب أخيه أبي القاسم أحمد قاضي الجماعة بقرطبة السابق، وهم أبو عبد الله محمد وعلي المعروف بابن أم العماد وعند الفتنة الأشقيولية انتقل من بقي من بني حمدين من مالقة إلى عدوة المغرب واستقروا بمدينة سلا وبقي أعقابهم بها، وذكر القاضي أبو الحسن النباهي عبارة «وأعقابهم بها حتى الآن تحت عناية ورعاية». أي آخر القرن الثامن الهجري.

ومن المفارقات أن أول قاضي للجماعة من أسرة بني حمدين يتمسك بدعوة المرابطين وببيعة أمير المسلمين علي ويتعرض بسبب ولائه هذا للتنكيل والتعذير بينما آخر قاضي للجماعة منهم يسارع بنبذ دعوة المرابطين عند أول فتنة المريدين ويدعو لنفسه بالإمارة وينهج السلوك السيىء الذي انحدر إليه كل منتز بالأندلس وهو الارتماء في أحضان العدو طالبين منه النصرة باذلين له الحصون الإسلامية التي استشهد من أجلها العدد الوفير من المسلمين.

* * *

المصادر والمراجع

ـ الأصفهاني: خريدة القصر. جـ 2، تحقيق د. عمر الدسوقي، القاهرة 1964.

ـ الأعمى التطيلي: الديوان. تحقيق د. عبد الحميد الهرامة.

ـ ابن الأبار: الحلة السيراء. تحقيق د. إحسان عباس، القاهرة 1963.

ـ التكملة لكتاب الصلة. نشر عزت العطار، القاهرة 1956.

ـ معجم أصحاب الصدفي. نشر كوديرا، مجريط 1885.

ـ ابن بسام: الذخيرة جـ 2، 1، جـ 3 قسم 2. تحقيق د. إحسان عباس، بيروت.

ـ ابن بشكوال: الصلة. نشر الدار المصرية 1966.

ـ ابن الخطيب: أعمال الأعلام. نشر ليفي بروفنسال، بيروت 1956.

ـ أعمال الأعلام. تحقيق د. العبادي، إبراهيم الكتاني.

ـ ابن خفاجة: الديوان. تحقيق د. السيد مصطفى غازي، الإسكندرية 1960.

ـ ابن عذاري: البيان. المغرب جـ 4، تحقيق د. إحسان عباس، الجزء الموحدي، تحقيق مجموعة من الأساتذة.

ـ ابن قزمان: الديوان. تحقيق د. كورينتي.

ـ ابن القطان: نظم الجمان. تحقيق د. محمود مكي.

ـ الذهبي: سير أعلا النبلاء. جـ 14، تحقيق شعيب الأرناؤوط.

ـ المراكشي: المعجب. تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة 1949.

ـ المقري: أزهار الرياض. ط 2، وزارة الأوقاف المغربية.

ـ الونشريشي: المعيار المعرب. وزارة الأوقاف بالمملكة المغربية 1981.

ـ د. عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين. دار الغرب الإسلامي 1988.

* * *

ابن طفيل

نتاج عصره

ابن طفيل نتاج عصره

أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي الوادي آشي، واختلف في نسبته البلدية، وفي سنة ميلاده، فبعض المصادر تنسبه إلى برشانة من عمل ألمرية[1]، أو جليانة من عمل وادي آش[2] أو إلى حصن تاجلة من عمل بسطة[3]، لأنه كانت له دار في تاجلة ينزل بها الأضياف والمرضى[4].

ومهما يكن فقد شهرت نسبته إلى وادي آش، وكل هذه الأماكن التي نسب إليها تابعة لمنطقة غرناطة أو ألمرية، وأهمية هذه الأماكن تشير إلى الحواضر التي كان فيها تحصيله العلمي، والتيارات الفكرية التي تأثر بها.

فوالده كان مقرئًا شديد العناية بالتجويد والإتقان، وانتقل من برشانة إلى وادي آش عند أخيه أبي العباس أحمد فأخذ عنه وروى وتلا بالسبع، إذ كان أبو العباس مقرئًا مجودًا اعترف له بالتقدم في هذا العلم[5]. ويبدو أن والد ابن طفيل استقر مع أسرته فيما بعد بجوار أخيه في وادي آش، لذا غلبت عليه النسبة الوادي آشي.

لم تشر المصادر إلى سنة ولادة ابن طفيل ولكن من المرجح أن ولادته كانت بعد سنة 492هـ وقبل سنة 500هـ لأن أبا العباس أحمد بن الصقر السرقسطي صديق ابن طفيل والذي يدعوه كبيره ولد سنة 492هـ وإن كنا نجهل بكم كان يكبره. يقول ابن طفيل في رثاء صديقه ابن الصقر:

مجيري بل كبيري كان أودي ... وما يبقى الصغير ولا الكبير

كما أن ابن طفيل كان يكبر ابن رشد الحفيد المولود سنة 520هـ بعشرين سنة أو أكثر قليلاً وقد افترض جوتيه وهرنانديز أن تكون ولادته سنة 504هـ أو 505هـ[6].

---

(1) ابن الأبار: تحفة القادم، رقم 43، ص 96.

(2) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، سفر 5، رقم 77، ص 34.

(3) ابن سعيد: المغرب، ج 2 ، رقم 403، ص 84.

(4) ن. م.

(5) ابن عبد الملك: م. س.

(6) Leon Sauthier, Ibn Tofail sa vie. P.S, paris, 1909, Hernandez. C. C. Felosophia Musulmana p. 312.

إذاً عاش ابن طفيل ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن تزيد قليلاً، تذبذبت فيها الحياة السياسية بين الاستقرار حينًا والفتن التي تعصف بهذا الاستقرار من حين لآخر، فقد عاش في عهد المرابطين ما يقرب من نصف قرن ثم التحق بخدمة الموحدين سنة 549هـ[1] كاتبًا عند السيد أبو سعيد عثمان والي سبتة وطنجة ثم ارتحل معه إلى إشبيلية وبعدها التحق بخدمة الخليفة أبي يعقوب يوسف ولازمه إلى أن توفي سنة 580هـ وتوفي بعده ابن طفيل سنة 581هـ، هذه المرحلة من حياة ابن طفيل غنية بأحداثها وثرية بازدهارها الفكري.

فقد ورث المرابطون ومن بعدهم الموحدون إرث دول الطوائف بما فيه من سلبيات وإيجابيات، وهذه الدويلات كانت صورة سيئة للانهيار السياسي والاجتماعي، لكنها كانت صورة مشرقة لازدهار الحياة الفكرية والثقافية، وقد انعكس ذلك على طبيعة أهل الأندلس، وعلى سلوكياتهم خاصتهم وعامتهم، وعلى المفاهيم التي استوحتها من الأفكار الدينية والمفاهيم العامة السائدة في المجتمع والتي كان يغذيها ويشجعها أصحاب المصالح الخاصة من الطبقات العليا. فمن الدين جاءهم الإيمان بالقضاء والقدر، والإرادة الإلهية، وكثير من مفاهيم الخير والشر وشرعية الحكم، وإطاعة أولي الأمر، ولكن الظروف العصيبة التي كانت تمر بها هذه الطبقة وما يقع عليها من غبن في كل الأحوال عكس في داخلها مفاهيم قد لا تتفق مع المفاهيم التي يوصي بها الدين، لكنها امتزجت بنفسياتهم وتحكمت في سلوكهم وأخلاقهم، فكان رجل الشارع متدينًا، بل يبدو متعصبًا أحيانًا، معتقدًا بالقضاء والقدر، وبقوة الله وجبروته، ومع ذلك لا يمتنع عن الغش والنهب وخداع الآخرين في معاملاته عندما تحين له فرصة، وكان يستنكر عدم العدالة في الحياة، ولكنه ينتهز أي اضطراب أو فساد لاستغلالها، لأن حياته اليومية تدفعه إلى ذلك[2].

وتمتعت الأندلس في عهد المرابطين ومن بعدهم الموحدين بقدر من التسامح، وحدث الاستقرار السياسي الذي كانت تفتقده هذه البلاد، ونشطت حركة الغزو، فانتعشت الحالة الاقتصادية والفكرية، ورحل عدد كبير من فقهاء وعلماء وكتاب الأندلس من المسلمين وغيرهم إلى الحاضرة مراكش، فمنهم من استدعي من قبل

الحضارة الإسلامية في الأندلس 2 / 1105.

(1) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 194.

(2) د. عصمت دندش: الأندلس حتى نهاية المرابطين، ص 285.

السلطان، ومنهم من ارتحل طلبًا للجاه والمال، أو لعرض خدماته، حتى أضحت مراكش أشبه بحاضرة العباسيين في صدر دولتهم[1].

وشجع أمراء المرابطين وخلفاء الموحدين هؤلاء الوافدين خصوصًا الفقهاء منهم، فازداد مركزهم قوة ودعمًا من السلطة الحاكمة، انطلاقًا من المصلحة المشتركة وهي تأييد الفقهاء للسلطان، فهم الذين يعلون جاهه بين الناس، والسلطان يؤيد الفقهاء بإضفاء الاحترام والأموال والخطط على من يطلبها منهم، فكان أولو الأمر مهما بلغت قوتهم لا يستطيعون البطش بهم خوفًا من سلاحهم الذي يعمل له حساب والذي يلوحون به دائمًا وهو الاتهام بالفساد والخروج على الدين، أو الاتهام بالانقلاب على أيديولوجية الدولة التي قامت عليها، لذلك تحاشى أولو الأمر الصدام بهم، وحاولوا في كثير من الأحيان تنفيذ مطالبهم إما بحرق كتب، أو إصدار فتوى بتكفير من يخرج على محيط تفكيرهم.

لكن حالة الاستقرار والازدهار التي يتسم بها أي عهد جديد ما تلبث أن تخبو ويتحول الجد والجهاد في تدعيم الدولة إلى مجرد شعارات، ويستكين الجيل الثاني الذي لم يقاس ظروف الجيل الأول إلى الدعة وجني ثمار المؤسس الأول، ويبدأ الفساد ينخر في جسم الدولة ومجتمعها حتى تنهار فجأة كما حدث للمرابطين، أو رويدًا رويدًا كما حدث للموحدين، ويركن المؤسس الثاني إلى الأعوان والوزراء لتسيير شؤون الدولة، وهؤلاء تختلف فطرهم وإخلاصهم، ويتفرغ لمجالسة العلماء والأدباء والشعراء للأخذ عنهم أو للمسامرة، وكل على حسب اهتمامه، ومن الصدف أن الأمير علي بن يوسف المرابطي والخليفة الموحدي الثاني أبي يعقوب يوسف قد شغفا بالعلوم العقلية، فقربوا إليهم الفقهاء الذين برزوا في هذه العلوم، فأمير المسلمين علي بن يوسف مال إلى علوم الأوائل وعلوم القوم، وظهر اهتمامه بتاريخ الأديان والسحر والتنجيم في آخر عهده، فقرب إليه الفيلسوف مالك بن وهيب، فكان وزيرًا وأنيسًا وجليسًا[2]، وكان ببلاطه عدد من علماء اليهود الأطباء الفلاسفة واختص بالطبيب أبي يعقوب بن المعلم فهو علاوة على اطلاعه على الفقه اليهودي «كان يتقن السحر والنفاذ إلى المنغلق من الأمور باللغتين العربية

---

(1) أ. عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 164.

(2) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 184، المقري: نفح الطيب، 3 / 479.

والعبرانية»، كما كان يحضر مجلسه الطبيب ابن قمنيل الذي كان يحادثه عن التوراة[1].

أما الخليفة الموحدي الثاني فقد أظهر اهتمامه بالنحو وعلوم الأوائل منذ أن كان واليًا على إشبيلية، فلما انتقل إليه الأمر قرب إليه عددًا من العلماء والأطباء وكان أقربهم وألزمهم له ابن طفيل، حتى أنه لم يعد يستغني عنه، فكان يدخل إلى القصر ويقيم معه أيامًا ليلاً ونهارًا لا يظهر، وبلغ من حظوته عند الخليفة أن رسمه في عدة مناصب يأخذ على كل منها الجامكية مع الأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والأجناد إلى غير هؤلاء من الطوائف وكان يقول: «لو نفق عندهم علم الموسيقى لأنفقته عندهم»[2]. فكان ابن طفيل رجل السلطان وشاعر الدولة في المهمات الصعبة، كما كان له تأثير كبير على الخليفة أبي يعقوب يوسف في اختيار الكتب والعلماء، وكان ابن طفيل يجلب إليه العلماء وينبهه عليهم ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم، ومن حسناته أن قدم له ابن رشد الحفيد فلتة هذا العصر، واجتمع لهذا الخليفة من العلماء والكتب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب كما ذكر صاحب «المعجب»[3].

وقد بلغ من شغف أبي يعقوب بمجالس المذاكرة، أنها كانت تنسيه مسئوليات الدولة، وتشغله عن بعض المواقف الخطيرة التي تستلزم صفاء الذهن والتركيز والمتابعة عن قرب خصوصًا، إذا كان الأمر يتعلق بمعركة مصيرية، ولا أدل على ذلك من أنه تسبب في هزيمة وبذة التي أوشكت على السقوط في أيدي المسلمين، فعندما ذهب إليه قائد الموقع أبو العلاء بن عزون يطلب العون لم يجاوبه لاشتغاله مع الطلبة في المذاكرة، يقول ابن عزون والمرارة والألم يعتصره: مشيت بنفسي إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين وهو جالس مع أخيه السيد الأعلى أبي حفص ومع طلبة الحضر يتكلم معهم في المسائل، فقلت: يا أمير المؤمنين عسى عون فقد أشرفت على الفتح وإنما كنت طامعًا أن يركب فيراه الناس وجميع العساكر فيدخلون المدينة في حينهم، فلم يجاوبني واشتغل عني بما كان فيه ولا جاوبني السيد الأعلى أبو حفص، فعلمت أن النية في الجهاد قد فسدت وأن الغزوة قد تنكدت ورجعت يائسًا من النصر في

(1) د. عصمت دندش: أضواء على معاملة المرابطين لليهود من خلال الحكيم بن قمنيل.

(2) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 312.

(3) نفسه، ص 311.

غاية الهم والفكر[1].

ولا شك أن اهتمام هؤلاء الحكام بهذه العلوم وتشجيعها وتقريب الأمراء للفقهاء الفلاسفة وميلهم إلى علوم الحكمة وتشجيعها وتقريبهم لعلمائها سمح بإضفاء نوع من الحماية والشرعية لهؤلاء العلماء وأبعد عنهم إرهاب الحانقين عليهم والحاسدين لهم، ولا أدل على ذلك من موقف الفتح بن خاقان من ابن باجة، فنجده قد أطنب في مدحه والثناء عليه وعلى علمه الذي لا يجارى وشاعريته التي لا تبارى، وعندما فقد ابن باجة حماية الأمير أبي بكر بن تافيلويت أمير سرقسطة بوفاته، فقد نفوذه وسلطانه سلقه بألسنة حداد ولم يجد نقيصة إلا ألصقها به وأخطر من ذلك أنه اتهمه بالخروج على الدين.

فوصفه عندما كان راضيًا عنه هكذا: «نور فهم ساطع، وبرهان علم لكل حجة قاطع، تتوجت بعصره الأعصار، وتأرجت من طيب ذكره الأمصار...» إذا به بعد غضبه عليه يقول: «هو رمد جفن الدين، وكمد نفوس المهتدين، اشتهر سخفًا وجنونًا، وهجر مفروضًا ومسنونًا... إلى أن يقول بعد سلسلة من العبارات الجارحة: «ولا يؤمن بشيء قادنا إلى الله في أسلس مقاد، مع منشأ وخيم ولؤم أصل وضيع، وصورة شوهها الله وقبحها، وطلعة إذا أبصرها الكلب نبحها، وقذارة يؤذي البلاد نفسها...»[2].

وقد شجع الناس على تعاطي هذه العلوم والخوض فيها، والتصنيف في فروعها وتهافت الناس على جمع كتبها وبذل المال لاقتنائها، وكانت لبعضهم خزائن نفيسة تضم العديد من كتب الحكمة، حتى أن أحدهم كان يستعير من صاحبها الكتب في غرائر، يحمل غرارة ويستبدلها بأخرى لكثرتها، وقد جمعها صاحبها عندما قامت الفتنة على المرابطين، وعندما علم بأمرها الخليفة أبو يعقوب يوسف أرسل حاجبه فاستولى عليها وعوض صاحبها بأن عينه في ولاية كبيرة[3].

وقد حافظت حواضر الأندلس على خصوصيات علمية أو فكرية اشتهرت بها وازدهرت فيها، ولم يتدخل المرابطون أو الموحدون في تغيير هذه الخصوصيات أو التأثير على المزاج الأندلسي الذي كان سائدًا قبل حكمهم، أو أن يفرضوا مذهبًا لما

---

(1) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 506، 508.

(2) المقري: نفح الطيب، 7 / 24، 25، 27.

(3) ابن عبد الواحد المراكشي: م. س. ص 311.

اعتادوه وألفوه. نظرًا لتفوق الأندلس الحضاري وحاجة أهل العدوة لهذه الحضارة[1].

وأنسب ما يقال عن العلوم والتيارات الفكرية التي سادت عصر ابن طفيل عبارات ابن سعيد[2] التي يقول فيها: «وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة، للفقه رونق ووجاهة، ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم، وسمة الفقيه عندهم جليلة، حتى أن الملثمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه، لأنها عندهم في نهاية علو الطبقة حتى أنهم في هذا العصر كأصحاب خليل وسيبويه ـ وهم كثيرو البحث فيه، وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه[3]، وكل عالم في أي علم لا يكون متمكنًا من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق، فليس عندهم بمستحق للتمييز، ولا سالم من الازدراء مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية». والشعر عندهم له حظ عظيم، والمجيدون منهم ينشدونه في مجالس ملوكهم المختلفة ويوقع لهم بالصلات على أقدارهم[4]. وإذا كان الشخص نحويًا أو شاعرًا، فإنه يعظم في نفسه لا محالة، ويخف، ويظهر العجب، عادة جبلوا عليها[5].

وكان أولو النباهة من العلماء يكتمون ما يعرفونه من علوم الحكمة، ويظهرون ما تجوز لهم فيه من الحساب والفرائض والطب وما أشبه ذلك[6] لأن من نشأ بالأندلس من أهل الفطرة الفائقة قبل شيوع المنطق والفلسفة فيها قطعوا أعمارهم بعلوم التعاليم، وبلغوا فيها مبلغًا رفيعًا، ولم يقدروا على أكثر من ذلك، ثم خلف من بعدهم خلف زادوا عليهم بشيء من علم المنطق ونظروا فيه ولم يفض بهم إلى

---

(1) د. عصمت دندش: م. س. ص 273.

(2) المقري: نفح الطيب، 1 / 221.

(3) ظهر من هذه الفترة عدة شروح وتعليقات على كتاب سيبويه والفصيح لثعلب والجمل للزجاجي وغيرها من المصنفات، انظر د. عصمت دندش: المصدر السابق، ص 428 ـ 429.

(4) كان عصر ابن خفاجة والزقاق والأعمى التطيلي وابن المنخل الشلبي وأخيل الرندي وابن سيد الإشبيلي المعروف باللص وابن طفيل وأبو الحسن بن عباس وغيرهم، انظر المصدر السابق.

(5) المقري: م. س. 1 / 221، 222.

(6) صاعد الطليطلي: طبقات الأمم، ص 76.

حقيقة الكمال[1].

«وكان لرقابة الفقهاء وتزمت المالكية التي تكره الخوض في هذه العلوم فيما أبعد من ذلك، جعل هؤلاء العلماء على حذر من أن تطالهم تهديدات المتزمتين من الفقهاء ويقول ابن طفيل: ومن ظفر بشيء لم يكلم الناس به إلا رمزًا، فإن الملة الحنيفية والشريعة المحمدية قد منعت من الخوض فيه وحذرت منه»[2] وهذا على ما يبدو هو الذي منع ابن باجة من استكمال معظم تآليفه، فهي غير كاملة ومجزومة من آخرها. واعتذر بضيق الوقت والسفر، أو ربما رأى أنه إن وصف تلك الحال اضطره القول إلى أشياء فيها قدح عليه في سيرته[3] خصوصًا وقد كان من ألد خصومه أبو العلاء بن زهر والفتح بن خاقان الذي كان يحسده على مكانته وقربه من الأمراء وقد اتهمه بالتعطيل ومذهب الفلاسفة وانحلال العقيدة، ومع هذه العداوة إلا أنه اعترف بتفوقه وقد شهدت هذه المرحلة انتشار التصوف ومدارسه التي اختلفت ممارستها من جهة إلى أخرى، لكن المنطقة التي كان يعيش بها ابن طفيل الفكر الصوفي الفلسفي وكثر الكلام في أصول الديانات وأرسلت المسائل إلى مشاهير العلماء في المشرق وشد الرحال إليهم، وكانت الأسئلة حول الذات الإلهية والقدم والحدوث والدهر والجوهر والنفس واليوم الآخر والحساب والدلالة على صدق الأنبياء وجبريل والملائكة وحكم التقليد إلى غير ذلك[4].

وقد أدخل متصوفو هذا العصر خصوصًا في منطقة ألمرية وأحوازها العنصر الفلسفي إلى تصوفهم، متأثرين بالغزالي الذي اتخذوه نموذجًا وأستاذًا، وعكفوا على كتبه بالدرس والتحصيل، ونشر آرائه والدفاع عنها في إيمان وحرارة، وكان من الطبيعي أن يتخذوا من الغزالي نموذجًا يقتدى به، وإمامًا يسيرون على هداه، لأنه أقرب إلى مشاربهم في فهمه للدين وموقفه من التصوف الذي اعتمد في كتبه على الرمز والإشارة، فلا ينتفع بها إلا من وقف عليها ببصيرة نفسه أولاً، ثم سمعها ثانيًا، أو كان معدًا لفهمها فائق الفطرة يكتفي بأيسر إشارة[5]، وقد اقتدوا به في نظريته في

(1) ابن طفيل: حي بن يقظان، ص 111.
(2) نفس المصدر، من ص 110، 111، 112.
(3) الونشريسي: المعيار، 11 / 212، 292.
(4) الونشريسي: المعيار، ج 11.
(5) ابن طفيل: حي بن يقظان، ص 114.

آخر كتاب ميزان العمل التي ميزها في ثلاثة آراء: رأي يشارك فيه الجمهور فيما هم عليه، ورأي بحسب ما يخاطب به كل سائل ومسترشد، ورأي يكون بين الناس وبين نفسه لا يطلع عليه إلا من هو شريكه في اعتقاده.

ومن اللافت للنظر أنه برغم فتوى فقهاء قرطبة بحرق كتاب «الإحياء» للغزالي سنة 503هـ، ومنع كتبه والتشديد على عدم قراءتها ومحاسبة من توجد عنده، وتكرار هذه الأوامر من حين لآخر، وكان آخرها الرسالة التي بعثها الأمير تاشفين بن علي في جمادى الأول سنة 538هـ، يؤكد فيها الالتزام بتحريم كتب الغزالي والتشديد على منعها والالتزام بمذهب مالك[1]. إلا أن كتب الغزالي استمر تداولها بين الناس وقراءتها وحفظها خصوصًا المتصوفة، وزعموا أن بينها كتبه المضنون بها على غير أهلها.. وأشاعوا أنه ضمنها صريح الحق.

وقد ذكر ابن طفيل هذه الكتب، والتي قرأها قراءة عالم مدقق وقال عنها: «وهذه الكتب وإن كانت فيها إشارات فإنها لا تتضمن عظيم زيادة في الكشف عن ما هو مثبوت في كتبه المشهورة وقال ابن طفيل عن كتابيه «المضنون» الصغير والكبير: فكتابا «المضنون» اللذان وصلا إلينا إن كانا أصليين متهافتا المضمون ولا علاقة لهما بعلم المكاشفة»[2]. كما ألف ابن خلف الإلبيري «النكت والأمالي في الرد على الغزالي»[3] وانتقد ابن طفيل بعض آراء الغزالي في بعض كتبه مثل «كتاب التهافت» و«المنقذ من الضلال» و«ميزان العمل»، وعاب عليه تضاربه في أقواله بحسب مخاطبته للجمهور «فهو يربط في موضوع، ويحل في آخر، ويكفر بأشياء ثم ينتحلها ولكنه دافع عنه ضد الذين هاجموا أقواله في كتاب «مشكاة الأنوار» بأنهم لم يفهموا كلامه وأكد أن الغزالي «ممن سعد السعادة القصوى ووصل

(1) د. حسين مؤنس: نصوص سياسية عن فترة الانتقال بين المرابطين إلى الموحدين، وثيقة رقم (1) مجلة المعهد المصري بمدريد عدد 3 سنة 1955.

(2) الكتب التي ذكرها ابن طفيل هي: كتاب المعارف العقلية وكتاب الحكمة الإلهية وكتاب النفخ والتسوية، ومسائل مجموعة، والمقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، والمشكاة (مشكاة الأنوار) وكتاب جواهر القرآن وكتابيه المضنون الصغير والكبير وكتاب التهافت وكتاب ميزان العمل، وكتاب المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال، حي بن يقظان ص 113، 114.

(3) ابن طفيل: حي بن يقظان، ص 115.

تلك المواصل الشريفة المقدسة»[1].

ولم تقف ثقافة هذا الفريق الروحية الفلسفية عند الغزالي وكتبه بل تأثرت بذلك الجزء الضخم من التراث الفلسفي اليوناني الذي ترجم في المشرق ثم نقل إلى الأندلس، ومن ذلك فلسفة أفلاطون وأرسطو، كما اتصلت بمؤلفات فلاسفة المشرق المسلمين أمثال الفارابي وابن سينا وإخوان الصفا، وبمؤلفي كبار المتكلمين لاسيما المعتزلة، وبمؤلفات الصوفية حتى عصر القشيري، مع أنه لم تظهر في تصوفهم نزعة فلسفية واضحة على نحو ما ظهر من تصوف ابن عربي في الجيل الذي تلاهم.

وكان لابن السيد البطليوسي صاحب كتاب الحدائق، وابن باجة قصب السبق في تناول كتب أفلاطون وأرسطو والفارابي وابن سينا بالشرح والتعليق والنقد، وألف ابن باجة عددًا من الرسائل والشروحات والمقالات عن تآليف أرسطو[2]، إذ كان عقلية فلسفية كبيرة وعقلاً ثاقبًا يملك رؤية أسلم من أسلافه في الأندلس «لكن للأسف شغلته الدنيا واخترمته المنية قبل ظهور خزائن علمه وبث خفايا حكمته. وهو صاحب مدرسة الشك، وقد أشاع هذا المذهب في شعر بعضهم[3] لون من ألوان التحرر من قيود الدين.

واتجهت جماعة المريدين التي ظهرت في آخر عهد المرابطين بالتصوف إلى وجهة جديدة ذات طابع إشراقي متميز في أساليبه ومصطلحاته كما يظهر من مؤلفات ابن العريف وابن برجان وابن قسي، وكان لابن باجة في العلم الإلهي إشارات في أثناء أقاويله في رسالة الوداع، وفي اتصال الإنسان بالعقل الفعال في غاية القوة والدلالة على نزوعه في ذلك العلم الشريف الذي هو غاية العلوم ومنتهاها، وكل ما قبله من المعارف فهو من أجله وتوطئة له[4].

فابن طفيل تأثر بكل هذه المعارف الفلسفية والصوفية وهو يعترف بأنه لم يكتب ابن يقظان إلا بعد أن تتبع كلام الغزالي وابن سينا وصرف بعضها إلى بعض، بالإضافة إلى الآراء التي راحت في زمنه وأخذها عن أهل عصره خصوصًا ابن باجة حتى استقام له الحق أولاً بطريقة البحث والنظر، ويضيف: ثم وجدنا منه الآن هذا

---

(1) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، ص 6، رقم 546، ص 193، 194.

(2) ابن طفيل: حي بن يقظان، ص 115.

(3) انظر مؤلفات ابن باجة لجمال الدين العلوي.

(4) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، 3 / 103. الأصفهاني: الخريدة، رقم 94.

الذوق اليسير بالمشاهدة، وحينئذ رأينا أنفسنا أهلاً لوضع كلام يؤثر عنا وهو يحتاج إلى مقدار من الزمان غير يسير وفراغ من الشواغل، وإقبال بالهمة كلها على هذا الفن، ويعترف أنه خالف السلف الصالح في الضنانة به والشح عليه، لكن الذي سهل عليه الأمر ما ظهر في زمانه من الضلالات والبدع والآراء الفاسدة من مدعي التصوف والفلسفة التي انتشرت في البلاد وعم ضررها ويقول: «وخشينا على الضعفاء الذين اطرحوا تقليد الأنبياء صلوات الله عليهم، وأرادوا تقليد السفهاء والأغبياء أن يظنوا أن تلك الآراء هي الأسرار المضنون بها على غير أهلها فيزيد بذلك حبهم فيها وولعهم بها[1]، لكل هذه الاعتبارات ألف كتابه «حي بن يقظان» لأن مراده الأساس أيضًا هو تقريب الطريق وتسهيله على السالكين وتشويقهم إلى الدخول من طريق القوم[2].

لقد تأثر ابن طفيل بكل هذه التيارات الفكرية، وأخذ من كل هذه العلوم التي كانت سائدة في عصره، وتفوق فيها، وتأثر بشكل واضح بجاره وصديقه أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن السرقسطي ت 569هـ / 1173م، فأخذ عنه كثيرًا من المعارف، وتطارح معه الشعر والأدب، وأعجب بسلوكه ونهجه في الحياة وجاوره مدة ليست بالقصيرة قبل انتقاله إلى مراكش لخدمة بني عبد المؤمن، فقد وصفته المصادر بأنه «كان محدثًا مكثرًا، ثقة ضابطًا، مقرئًا مجودًا، حافظًا للفقه، ذاكرًا للمسائل عارفًا بأصولها، متقدمًا في علم الكلام، عاقدًا للشروط، بصيرًا بعللها، حاذقًا بالأحكام، كاتبًا بليغًا، شاعرًا محسنًا، أتقن أهل عصره خطًا، وأجلهم منزعًا، ما اكتسب قط شيئًا من متاع الدنيا، ولا تلبس بها، مقتنعًا باليسير، راضيًا بالدون مع الهمة العلية والنفس الأبية، على هذا قطع عمره، وكتب من دواوين العلم ودفاتره ما لا يحصى كثرة بجودة وإتقان وضبط، وحسن خط»[3] وكان لهذا العالم الكبير عدة مؤلفات في علم الكلام وأصول الفقه، وأخذ عنه الصغير والكبير.

كان لسكنى ابن طفيل وادي آش وتنقله ما بين ألمرية وغرناطة، ثم بعدها إلى إشبيلية وربما قرطبة[4] تأثير كبير على تفكيره الفلسفي الصوفي، واهتماماته العلمية،

---

(1) ابن طفيل: حي بن يقظان، ص 235.

(2) ابن طفيل: حي بن يقظان، ص 235.

(3) ابن الخطيب: الإحاطة، 1 / 182، ابن فرحون: الديباج، ص 48، 49.

(4) عمل ابن طفيل كاتبًا وطبيبًا عند أحمد بن ملحان الذي ثار على المرابطين سنة 539هـ واستقل بوادي

وظهر تأثير ابن طفيل الواضح بمعاصره ابن باجة الذي كان علامة وقته في علوم الحكمة، وأوحد زمانه في شرح كتب أرسطو، كما كان متميزًا في العربية والأدب، حافظًا للقرآن، ويعد من الأفاضل في صناعة الطب، متقنًا لصناعة الموسيقى، جيد اللعب بالعود[1]، ظهر تأثر ابن طفيل الواضح في الفصول المتعلقة بالإنسان والعقل الفاعل، وكانت هذه الفكرة الأساسية التي بنى عليها رأيه الصوفي في وحدة الوجود وتناولها ابن رشد بعده وسار بها إلى الأمام.

وقد اعترف ابن طفيل بأن ابن باجة عقلية فلسفية كبيرة تتمتع بعقل ثاقب، ويملك رؤية أسلم من أسلافه في الأندلس، وقال عنه ابن أبي أصيبعة: «وكان في ثقابة الذهن ولطف الغوص على تلك المعاني الشريفة الدقيقة أعجوبة دهره ونادرة الفلك في زمانه»[2]. ولكن للأسف اخترمته المنية قبل ظهور خزائن علمه وبث خفايا حكمته، ومع إعجاب الرأي الذي ذهب إليه في أن الإدراك الباطني الذي يفخر فيرد عليه ابن طفيل مسترشدًا بالمثل القائل: «لا تستحل طعم شيء لم تذقه، ولا تتخط رقاب الصديقين»[3]. لأن ابن باجه كما يستنتج ابن طفيل لم يختبر حال النشوة هذه، وبالتالي لا يحق له أن يفسر الحدس الباطني على أنه إيحاء ذاتي من وحي الخيال، أي على أنه مجرد وهم نفسي، ولكنه يتفق مع ابن باجة في إمكان بلوغ الإنسان لرتبة الاتصال بالعقل الفاعل، ويعترف صراحة أن ابن باجة قد وصل إلى ذلك، وبفضل هذه الإمكانية سيبلغ بطله حي بن يقظان المرتبة هذه بفضل البحث الفكري حتى في ظل الوحدة الكاملة ودون أن يتعلم شيئًا من الآخرين، فيقول: عن ابن باجة عن هذه المرحلة: «ولا شك أنه بلغها ولم يتخطها»[4] وفي نفس الوقت يختلف مع ابن باجة الذي يجعل من العلم النظري شرطًا لبلوغ حالة النشوة في حين يمكن بلوغها بالحدس الصوفي.

آش، وعندما وجد ابن ملحان أنه لا يستطيع الاحتفاظ بإمارته بسبب تهديد ابن مردنيش أمير شرق الأندلس وحلفائه النصارى دخل في طاعة الموحدين سنة 546هـ ولحق به ابن طفيل. انظر كتابنا الأندلس في نهاية المرابطين والمصادر التي اعتمدتها.

(1) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، 3 / 100، 101.

(2) ابن أبي أصيبعة: نفس المصدر والصفحة.

(3) ابن طفيل: حي ابن يقظان، ص 107، 110.

(4) ابن طفيل: حي ابن يقظان، ص 235.

هذا هو ابن طفيل الذي عاصر زمنًا ليس بالقصير، عصر ازدهار العلوم الإسلامية كلها، وكانت شهادة ابن دحية[1] دليلاً على علم الرجل وثقافته، وثقافة عصره فقد قال عنه: «الوزير الفقيه المقرئ المحدث الشاعر اللغوي النحوي المهندس الطبيب، واحد عصره، وفريد دهره»، فدلت شهادته على قدر الرجل ومكانته وقال عنه عبد الواحد المراكشي[2]: «كان الأقدر على الجمع بين الحكمة والشريعة، حافظًا للنبوات ظاهرًا وباطنًا مع اتساع في العلوم الإسلامية»، وقال عنه ابن عبد الملك المراكشي[3]: «كان فقيهًا بارع الأدب، ناظمًا ناثرًا، مشاركًا في فنون ومعارف، طبيبًا حاذقًا».

وفضله ابن سعيد وقال: «قال والدي: لقيت علماء كثرة يفضلونه على فيلسوف الأندلس ابن باجة».

وكان ابن طفيل صاحب خلق رفيع، ونزاهة في القول والفعل ولا أدل على ذلك تقديمه للعلماء عند الخليفة أبي يعقوب يوسف والتنويه بهم والثناء عليهم، وإظهار جهدهم، فعندما كلف ابن رشد أن يبسط رأي الفلاسفة أرسطو وأفلاطون عن السماء في كتاب ليقدمه للخليفة بسبب كثرة مشاغله[4]، كان من الممكن أن ينتحل هذا الكتاب أو غيره وينسبه لنفسه ويقدمه للخليفة على أنه من تصنيفه، ولكن نزاهة نفسه وعلو قدره في العلم منعته.

وابن طفيل لم يكثر من التأليف فله حي بن يقظان ورسالة في النفس، وكان يقترح على تلاميذه الكتابة في موضوعات معينة فهو الذي اقترح على البطروجي كتاب نقد لآراء بطليموس في الفلك، وهو الذي اقترح على ابن رشد تلخيص كتب أرسطو وشرحها فأتاح بذلك القيام بأعمال علمية وفلسفية كان لها أثر كبير على الفكر الإسلامي والأوربي فيما بعد.

توفي ابن طفيل سنة 581هـ / 1186م بعد حياة حافلة، وحضر السلطان يعقوب المنصور جنازته تقديرًا له، فرحم الله هذا العالم الجليل الذي احتفلت به

---

(1) ابن دحية: المطرب من أشعار العرب، ص 66.

(2) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 312.

(3) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، سفر 5، ص 34، رقم 77.

(4) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 314.

مراكش مرتين؛ الأولى سنة 1986 بإشراف الأستاذ الفاضل علال سي ناصر عندما كان في اليونسكو، والثانية هي اليوم التي تنظمها مجموعة مستشفى ابن سينا للبحث.

وأختم في النهاية بأحد أبيات ابن طفيل:

فانحاز علواً وخلى الطين للكفن　　　نور تردد في طين إلى أجل

* * *

المصادر والمراجع

- الأصفهاني: الخريدة. تحقيق د. عمر الدسوقي، القاهرة 1964.
- ابن الأبار: تحفة القادم. تحقيق د. إحسان عباس.
- ابن أبي زرع: روض القرطاس. فاس 1973.
- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، بيروت 1956.
- ابن دحية: المطرب من أشعار المغرب. تحقيق إبراهيم الأبياري وآخرون.
- ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة. تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة 1977.
- ابن سعيد: المغرب في حُلي المغرب. تحقيق د. شوقي ضيف ط 3 / 1978.
- ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة. تحقيق د. عبد الهادي التازي، الإسكندرية.
- ابن طفيل: حي بن يقظان.
- ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة. سفر 5 تحقيق د. إحسان عباس.
- ابن فرحون: الديباج المذهب. القاهرة 1939.
- عبد الواحد المراكشي: المعجب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة 1949.
- صاعد الطليطلي: طبقات الأمم. مصر، بدون تاريخ.
- المقري: نفح الطيب. تحقيق د. إحسان عباس.
- الونشريشي: المعيار المعرب. وزارة الأوقاف بالمملكة المغربية.
- د. حسين مؤنس: نصوص سياسية.
- د جمال العلوي: مؤلفات ابن باجة.
- عصمت دندش ـ أضواء على معاملة المرابطين لليهود.
- د. عصمت دندش ـ الأندلس في نهاية المرابطين.
- Hernandez C.C. Felosophia Mus 4 Imana. Leon Sauthier, Ibn Tofail sa vie. Paris 1909.

* * *

علاقة الأندلس بمملكة قشتالة

من خلال الأقليات (أهل الذمة) إلى القرن السابع الهجري

علاقة الأندلس بمملكة قشتالة
من خلال الأقليات (أهل الذمة) إلى القرن السابع الهجري

نقصد بالأقليات أهل الذمة من النصارى واليهود الذين عاشوا في الأندلس بعد الفتح، خصوصًا النصارى الذين عرفوا بالمعاهدين أو المستعربين والأقليات المسلمة التي لم تغادر المدن الإسلامية التي سقطت والذين عرفوا بالمدجنين. ولقد استعملت مصطلح الأقليات تجاوزًا، فهذا مصطلح حديث لم يكن معروفاً في الإسلام ولم يستعمله المسلمون وإنما أطلقوا مصطلح أهل الذمة أو أهل الكتاب كما جاء في «القرآن الكريم» والسنة النبوية الشريفة. وقد شاع هذا المصطلح بين المسلمين وصارت في كتب الفقه أبواب خاصة تتعلق بأهل الذمة ومعاملاتهم، وقد استعمل أيضاً في الأندلس ثم غلب عليه مصطلح النصارى المعاهدين أو المستعربين في بعض الأحيان.

وموضوع العلاقات بين الجانب المسلم والجانب المسيحي في الأندلس من خلال الأقليات لم يظفر باهتمام وعناية الباحثين إلا قليلاً. وربما يرجع ذلك إلى قلة المصادر التي تعين الباحث في تناول مثل هذه الموضوعات أو إلى الافتقار للأدوات والوثائق أو إلى صعوبة الحصول عليها من المصادر الأصلية كالكنائس والأديرة.

وقد اهتم الباحثون الإسبان بنشر العديد من البحوث والكتب التي تتناول الفترة الإسلامية. ومن أوائل الباحثين الذين اهتموا بالتأريخ لأوضاع المستعربين أو المعاهدين فرانسسكو سيمونت في كتابه Historia de los Mozarabes ، وايسدور دي لا كاخيجاس في كتابه من مجلدين Los Mozarabes ، والمستعرب المعروف آنخل جونثالث بالنثيا الذي قام بنشر عدد كبير من الوثائق تبلغ 1175 وثيقة في أربعة مجلدات تتعلق بمستعربي طليطلة خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر. وهذه الوثائق عبارة عن عقود بيع وشراء ومزارعات ورهون ووصايا وعقود زواج ومواريث وأحباس على كنائس وأديرة، ومن الملاحظات المهمة والجديرة بالتوقف عندها هو أن مستعربي طليطلة كانوا يكتبون هذه الوثائق باللغة العربية التي استمر استخدامها بعد سقوط طليطلة بنحو ثلاثة قرون، مما يؤكد التأثر الكبير بالثقافة العربية. كما اهتم ليفي بروفنسال في كتابه Histoire de Es pagne Musulmane بدراسة المستعربين في الأربعة قرون الأولى للحكم الإسلامي في

الأندلس. وصدر للدكتور هارفي عن مطبعة شيكاغو سنة 1990 كتابه Islamic Spain 1250 - 1500. وقد تعرض في عدة فصول منه للمدجنين وأوضاعهم في قشتالة وأراجون وبلنسية ونبرة وفي الأندلس بعد سقوط مملكة غرناطة. ويتناول المؤلف في كتابه التجارب الاجتماعية والسياسية والدبلوماسية والثقافية لكل من مملكة بني نصر في غرناطة وجماعات المدجنين المبعثرة في أنحاء شبه الجزيرة الإيبرية.

ومن الجانب العربي، اهتم الدكتور حسين مؤنس والأستاذ محمد عبد الله عنان من خلال كتاباتهما عن تاريخ الأندلس، اهتما بالتعرض لدراسة النصارى المعاصرين أو المدجنين، ولكن الدراسة التي خصصت لدراسة النصارى المعاهدين رسالة دكتوراه نوقشت في جامعة القاهرة سنة 1983 للسيد عبادة عبد الرحمن كحيلة. وأعتقد أن هناك أبحاثاً وكتبًا تتعلق بهذا الموضوع، في جانب ما، صدرت في السنوات الأخيرة لم يتيسر لي الاطلاع عليها.

ولاشك أن العلاقات بين الطرفين الإسلامي والمسيحي في الأندلس كانت تنطلق من تاريخ مشترك ومصالح سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية متبادلة. فالتعايش الذي دام عدة قرون خلق من شبه الجزيرة الإيبيرية مجتمعًا جديدًا وصارت فيه للأندلس شخصية متميزة حتى ليبدو من القسوة والحيف الادعاء بأنه كان مجتمعًا بربريًا خالصًا أو عربيًا خالصًا أو إيبريًا خالصاً. وإنما امتزجت كل هذه العناصر وتشابكت الأنساب وكونت أجيالاً تجمع بين كل هذه الأجناس والطوائف، امتزجت دماء المسلمين بدماء النصارى بالمصاهرة سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي: فجل أبناء الأمراء والخلفاء كانوا من أمهات أولاد من أصل نصراني، وتزوج المنصور بن أبي عامر من تيريزا ابنة برمند بن أردون ملك ليون[1] ومن ابنة شانجة بن غرسية ملك نافار التي أسلمت وتسمت باسم عبدة وأنجب منها ابنه عبد الرحمن الذي عرف بشنجول[2]. وهناك أمثلة كثيرة على ذلك، حتى أن كثيراً من الأسر كانت تضم أقارب نصارى وأقارب مسلمون وكانت العلاقات الاجتماعية بين أهل الذمة والمسلمين داخل المدن الإسلامية عادية، بل لقد اختلطت العادات بينهم فكانوا يحتفلون معهم بأعيادهم ويأكلون طعامهم، ومع أن بعض الناس كان يجد حرجًا في ذلك حتى أنهم كانوا يسألون الفقهاء من حين لآخر عن جواز أكل طعام أهل الذمة

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 2 / 396.

(2) م. ن.

فكانوا يفتون بإباحة مشاركة طعامهم استنادًا إلى قول الله تعالى : ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم﴾ ولا يشترط في ذلك موافقة ذكاتهم لذكاتنا[1]. وارتوت أرض الجزيرة الإيبيرية بدماء الطرفين، إذ كانت العوامل القومية والدينية تشتد حينًا وتخبوا حينًا تبعًا لتطور الحوادث والمحرك لتأجيج هذه الصراعات التي من الممكن اعتبارها أشبه بالحروب الأهلية كانت تنتهي بتغلب الفئة المدعمة من الفقهاء في شكل جهاد أو من الفئة المدعمة من الكنيسة في شكل حروب صليبية عرفت فيما بعد بحرب الاسترداد. فالتعصب القومي أو الديني لم يكن ليظهر إلا بتحريض من الطرفين الفقهاء أو القساوسة، وعلى رأسهم بابا روما الذي وضع الحروب الصليبية من أوليات مهامه. وكانت البابوية تملك الورقة التي تسير بها ملوك النصارى وتحرض رعاياهم عليهم وهي التلويح بالحرمان الكنسي أو إصدار صكوك الغفران. ولا شك أن هؤلاء الملوك كانوا يعون ما يحل بهم: إذا أصدر البابا قرار الحرمان، فمعناه الموت الأدبي والعزلة الإجبارية بعدم تعاون رعاياه معه. لذلك فإن التلويح بهذا الحق البابوي جعل ملوك النصارى في الغالب يعملون بتوجيه الكنيسة دون مراعاة لمصالحهم القومية. ويبدو ذلك واضحاً في وقت الأزمات أو الثورات أو عقب سقوط دولة وقيام دولة أخرى[2]. ولا شك أن كلا الجانبين المسيحي والمسلم كان يشعر بحرج موقفه كلما اتحد أحد الفريقين وقوي، وأصبح يشكل خطرًا على الجانب الآخر. فعندما نجح عبد الرحمن الناصر في توحيد الأندلس والقضاء على المتنزين في أوائل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ووصلت الدولة في عهده أوجها، شعر نصارى الشمال بالخطر الداهم على كيانهم، وأخذت العوامل الدينية والقومية تستيقظ وتشتغل في تحريض ممالك الشمال على التصدي للمد الإسلامي، فاتحدت مملكة ليون ونافار (نبرة) واتخذ الصراع بين الشمال والجنوب فوق النزعة القومية نزعة دينية واضحة. فالجانب الإسلامي اتخذ شعار الجهاد، وتسارع أهل الثغور لنيل شرف الجهاد والاستشهاد صحبة الفقهاء والعلماء الذين يحمونهم ويحرضونهم على القتال. وبالمثل من الجانب الآخر هرع القسس والرهبان لإذكاء حماس النصارى

---

(1) الونشريسي، المعيار، 1 / 99، 2 / 9.

(2) انظر كتاب التبيان مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين؛ وانظر كتاب المقتبس لابن حيان، تحقيق د. مكي، ابتداء من ص 292.

ومصاحبة الجند حاملين المباخر والصلبان[1]، وسقط من الجانبين العدد الكبير.

وكان هجوم القوى الإسلامية من حين لآخر دون مبرر مدعاة لنوع من الاستفزاز والتحفز، خصوصاً في عهد المنصور بن أبي عامر[2] فقد كانت معظم حملاته سياسية ودعائية أكثر منها جهادية، ولم يكن لها ما يبررها، ولكنه أراد أن يشغل الناس عما كان يدبره لإضعاف الخلافة والسيطرة على مقاليد الأمور.

لقد كان كلا الطرفين يشجع الثورات والاضطرابات الداخلية ويساعد أصحاب المطامح في الثورة والانتزاء، وكان ذلك واضحًا خصوصًا في تشجيع الممالك النصرانية للثوار سواء كانوا مسلمين أو مولدين أو مسيحيين[3] وتقديم المساعدات لهم، مما كان يستدعي خروج الأمراء والخلفاء لتأديب هذه الممالك الناشئة نافار وقشتالة وعلى الأخص في منطقة الثغر الأعلى التي كان معظم ثوارها تتشابك أنسابهم مع نصارى ممالك الشمال: فعائلة بني قسي أو بني موسى الذين كثيرًا ما خلعوا الطاعة وأعلنوا الثورة كان على رأسها موسى بن موسى بن قسي فكان يستعين بأخيه لأمه فرتون إينجز أمير بنبلونة كما كان غرسية ملك نافار زوجًا لابنة موسى المسماة أورية (Uria).

وعندما قامت الثورة في طليطلة في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن 240هـ، كان عماد هذه الثورة جمع كبير من المولدين والنصارى والمعاهدين الذين كانوا يُحرضون من بعض القساوسة بدعوى اضطهاد نصارى قرطبة. وقد بادروا بمخاطبة ملك ليون ونافار للاستعانة به، ولكن الأمير محمد استطاع الإيقاع بالثوار وحلفائهم النصارى. على أن الفتنة لم تهدأ في طليطلة بسبب تحريض النصارى المتعصبين، وأصبحت المدينة الثائرة موئلاً لطائفة من القسس الذين لجأوا إليها لبث دعايتهم في المدينة وما جاورها محرضين النصارى على الثورة ضد الحكم الإسلامي، وقد شغلت هذه الثورة الأمير محمد فأرسل عدة حملات نحوها وشدد الحصار عليها وضرب حصونها حتى استسلم له الثوار سنة 245هـ / 859م[4].

---

(1) ابن عذاري: م. س. 2 / 396، 397، 3 / 164.

(2) انظر غزوات المنصور في ابن عذاري ج 2، ج 3، Histoire, R. Dozy, des Musulmans d,Espagne, vol II, p 299.

(3) انظر المقتبس، تحقيق مكي. يظهر معاونة هذه الممالك لابن حفصون والجليقي، وانظر: مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين؛ والذخيرة القسم الأول، مجلد 1، بالنسبة لعهد الطوائف.

(4) ابن حيان: م. س. ص. ص 295، 306.

وكانت طليطلة تشعر دائماً بقوتها وحصانتها الطبيعية، بالإضافة إلى أنها كانت ملجأ للتيارات النصرانية الخطيرة التي تأتي إليها من نصارى الشمال ومن النصارى المعاهدين بقرطبة ومن أهلها المعاهدين الذين كانت لهم اليد الطولى في كثير من الأحداث وفي استدعاء ملوك النصارى[1].

وعندما انهارت الخلافة وانهارت معها الحكومة المركزية وقامت على أنقاضها ممالك أو دول الطوائف حدث تغير ملحوظ على أحوال النصارى المعاهدين تبعًا لظروف كل من هذه الدول، وازداد الاعتماد عليهم وأخذت جموع كبيرة من هؤلاء النصارى تغادر قرطبة وتلتحق بالممالك النصرانية أو تلتحق بشرق الأندلس خصوصًا عند مجاهد العامري ملك دانية، إذ كان من أصول نصرانية وأمه وزوجته نصرانية. وقد حاول ملوك الطوائف كسب مودة النصارى المعاهدين ومصانعتهم والاعتماد عليهم في كثير من الأعمال خصوصًا في بلاطهم فصار لهم مكانة. فقد احتضن المعتضد بن عباد ششنذو[2] في حداثته وساعده على الظهور، ورفع مكانته ونظمه بين وزرائه وحاشيته، واستخدمه في مهام مسيحية خاصة عند فرناندو ملك قشتالة، لكنه فر من إشبيلية ولجأ إلى بلاط قشتالة عند فرناندو الذي رحب به وجعله أحد مستشاريه وأولاه رعايته لما كان عليه من معرفة تامة باللغة العربية والدين الإسلامي وأحوال المسلمين وعاداتهم فكان له دور كبير في تكييف سياسة قشتالة تجاه ملوك الطوائف.

وضمت مملكة سرقسطة أقلية نصرانية كبيرة. وفي الواقع، فإن منطقة الثغر الأعلى كانت ميداناً خصباً لالتقاء العناصر المسلمة والنصرانية وامتزاجها بقوة، وكانت سياسة حكام الثغر الأعلى هي سياسة التسامح المطلق تجاه رعاياهم النصارى، وكانوا يحاولون بهذه السياسة أن يتجنبوا الدسائس والاضطرابات الداخلية وأن يغنموا حياد ملوك النصارى، فكانت تربط المنذر بن يحيى التجيبي بجيرانه النصارى علاقات ود وصداقة وثيقة، ويبدو أنه بالغ في هذه الصداقة حتى أنه أقام في قصره بسرقسطة حفلاً لعقد المصاهرة بين سانشو ملك نافار ورامون بوريل أمير برشلونة حضره الفقهاء والقساوسة وأعيان الملتين مما أسخط الناس عليه[3]. بيد

---

(1) ابن عذارى: م. س. 3 / 160.

(2) ابن بسام، الذخيرة، قسم 4، مجلد 1، ص 129، القسم الثالث، مجلد 1، ص 44.

(3) د. حسين مؤنس، الثغر الأعلى، ص 127؛ مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة مجلد 2، 1949.

أنه حقق بهذه السياسة لنفسه مسالمة ملوك النصارى وكف عاديتهم عن بلاده.

وتولى عدد من ملوك النصارى المعاهدين في سرقسطة مراكز ووظائف هامة فكان من بين وزراء المقتدر بن هود الوزير الشاعر الأديب أبو عامر غند شلب[1] كما علا شأن السيد الكيمبطور Rodrigo Diaz Vivar[2] في بلاط سرقسطة بعد فراره من قشتالة، وتوطدت مكانته واشتد نفوذه عند المؤتمن بن هود، فكان لا يبرم أمراً من أعمال الحرب أو السياسة دون مشاورته، وغدا بجيشه الصغير الذي كونه من النصارى المرتزقة والنصارى المعاهدين قوة يحسب حسابها، بل غدا كأنه يفرض بحلفه ومعاونته على سرقسطة نوعاً من الحماية، ثم بدأ يعمل لحسابه حتى نجح في الاستيلاء على بلنسية لحسابه الخاص.

بينما نجد إمارة غرناطة تعتمد على اليهود في أول الأمر وتتخذهم وزراء مثل ابن النيغريلة، فلما استبدوا بالأمور، تحولوا لمصانعة النصارى المعاهدين واعتمدوا عليهم واستخدم الأمير عبد الله بن بلقين عدة من أكابر النصارى القشتاليين في شؤون الحرب والإدارة[3].

لقد كان النصارى المعاهدون يكونون أقليات كبيرة لها أهميتها في معظم المدن الكبرى خاصة طليطلة وقرطبة وإشبيلية وغرناطة وسرقسطة وبلنسية، وظلوا يتمتعون في ظل الحكم الإسلامي بالرعاية والتسامح فالدولة تحترم عقيدتهم الدينية وتقاليدهم القومية ولم يعرف أنها أرغمت أحداً على ترك دينه واعتناق الإسلام بل إننا نجد من خلال النوازل مدى مرونة القضاء الإسلامي وحرص القضاة على المصلحة العامة لأهل الذمة ويظهر ذلك في الأحكام الخاصة بحضانة أطفال الزواج المختلط، فكثيراً ما كان يحكم القاضي بتفضيل حضانة الجدة النصرانية على حضانة الأب المسلم في حالة وفاة الزوجة سواء كانت قد دخلت في الإسلام أو بقيت على دينها.

لقد ترك المسلمون أهل الذمة أحرارًا ينظمون أمورهم على النحو الذي أرادوه ما داموا على الطاعة والعهد يؤدون ما عليهم من الأموال. وقد ظلوا يفصلون في

---

(1) Dozy R. Recherches sur l'histoire et litterature de l'Espagne pendant le moyen age, vol .II pp, 203 - 233. Pidal, R. M, la Espana de Cid, p. 71

(2) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص 103.

(3) ابن بسام: م. س. قسم 1، مجلد 2، ص 766. مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين، ص 54؛ ابن الخطيب، الإحاطة، 1 / 447. أعمال الأعلام، ص 233. ابن عذارى: م. س. ج3، ص ص 266، 275، 276.

أقضيتهم وفقًا للقانون القوطي القديم وظلت علاقاتهم بكنائسهم وقساوستهم على ما كانت عليه قبل الفتح، يدير أمورهم قومس Comes وكان مسئولاً عن كل ما يتصل بأمورهم يجمع الضرائب منهم ويؤديها عنهم لبيت المال، كما كان يعين لهم القضاة الذين يشرفون على كنائسهم.

ومع كل هذا التسامح، فإن النصارى المعاهدون كانوا ينتهزون آية فرصة لمساعدة وممالأة ملوك النصارى وتسهيل مهمتهم في غزو البلاد التي يقيمون بها بين المسلمين. ففي أثناء حصار قلمرية سنة 456 / 1064م، لعب النصارى المعاهدون دورًا بارزًا في معاونة الجيش القشتالي المحاصر للمدينة ولجأ إلى معسكر فرناندو عدد منهم يدلونهم على عورات المدينة وأمده رهبان دير لوريان القريب من قلمرية بالمؤن والأطعمة حتى اضطرت المدينة المحاصرة للتسليم[1].

وكانت سياسة ألفونسو السادس قائمة على ضرب ملوك الطوائف بعضهم ببعض واعتمدت خطته على أخذ الإتاوات وتهديد بعضهم لبعض حتى تنهار دولهم وتسلم إليه المدن والحصون التي يطمع في الاستيلاء عليها، وتشجع المعاهدين على إثارة البلبلة والفتن داخل المدن الإسلامية، لأنه كان يرى أن هذه السياسة أجدى له وأنفع من المواجهة العسكرية وفرض هيمنته بالقوة على هذه الدويلات. يقول الأمير عبد الله بن بلقين على لسان ألفونسو: «إن من غير الملة، وكل الناس يَشْنَأُني فبأي وجه أطمع في أخذها؟ إن كان من باب الطاعة، فأمر لا يمكن، وإن كان من وجه القتال، فيهلك فيها رجالي وتذهب أموالي، وتكون الخسارة على أكثر مما نرجوه إن صارت إلي، ولو صارت لم تتمسك إلا بأهلها ثم لا يؤمنون؟ ولا من الممكن أن نستبيح أهلها ونعمرها بأهل ملتي. ولكن الرأي كل الرأي تهديد بعضهم ببعض وأخذ أموالهم أبداً حتى ترق وتضعف، ثم هي تلقي بيدها إذا ضعفت، وتأتي عفوًا، كالذي جرى لطليطلة، إنما كان من فقر أهلها وتشتتهم، مع اندبار سلطانها، وصارت إلي بلا مشقة»[2].

ومن خلال «كتاب التبيين» يمكن التعرف على نجاح سياسة ألفونسو. فقد لجأ إليه بعض المتنزين أو الطامعين وأغروه بمساعدتهم في استعادة نفوذهم بالتعهد له بالتنازل عن حصون مهمة وإدلائهم على عورات البلاد التي يستطيع أن يدخل منها

---

(1) Cagigas, op, cit., T. II, p 455.

(2) مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين، ص. ص 70، 73.

بسهولة، أو يستأجروا عسكرًا من ألفونسو يعاونهم في اقتحام المدن التي طردوا منها، ويعلق الأمير عبد الله بقوله: «فكان الجميع يساير الأمور، ويدافع الأيام».

وفي طليطلة كان دورهم واضحًا في تدبير الدسائس والفتن والاضطرابات داخل المدينة والاتصال المستمر بألفونسو ملك قشتالة وأعوانه، ومؤازرة الناقمين على ابن ذي النون والعمل على تحطيم كل جبهة للمقاومة الداخلية حتى انتهى الأمر بتذليل الصعوبات أمام ألفونسو حتى استولى على طليطلة سنة 478هـ[1].

وتوالت هجمات ألفونسو على دول الطوائف. وفي كل مرة يغير على إحداها، كان يصحب معه عددًا من النصارى المعاهدين لإعمار طليطلة وسكناها[2].

ولقد بلغ اجتراء وخيانة المعاهدين الذروة حينما استدعوا ألفونسو المحارب ملك قشتالة وليون لغزو الأندلس ووعدوه بأن ينضموا ألوفًا إلى جيشه متى اخترق الأندلس للاستيلاء علي غرناطة وقد تمت المراسلات بينه وبين النصارى المعاهدين بها. وقام ألفونسو فعلاً باختراق الأندلس من شمالها إلى شرقها وجنوبها وتجول في أنحائها، فخرج من سرقسطة سنة 519 هـ (سبتمبر 1125م) في عهد الأمير علي بن يوسف واخترق الأندلس من الجانب الشرقي مارًا بقرب بلنسية ودانية ومرسية وهو يعيس في بسائطها، والمعاهدون ينضمون إلى جيشه من كل صوب واستمر في سيره حتى وادي آش ووصل إلى ظاهر غرناطة في يناير من العام التالي 1126م، ولكنه أدرك أنه لا يستطيع الاستيلاء عليها فبعث إلى زعيم المعاهدين بغرناطة يلومه على تقصيرهم في معاونته فردوا عليه بأنه هو الذي أضاع الوقت في زحفه الطويل سدى ثم أخذت القوات المرابطية بقيادة الأمير أبي الطاهر تميم تلاحقه وترهقه باستمرار وهو يتجول بقواته في شمالي غرناطة، ووقعت بينه وبين المرابطين في مارس 1126م / 520هـ موقعة عند فحص الرينسول هُزم فيها المرابطون، لكن ألفونسو لم يستفد من نصره واستمر في زحفه جنوبًا واخترق جبال البشرات حتى شاطىء البحر المتوسط ثم عاد إلى الشمال بعد أن خسر الكثير من جنده بسبب الإعياء والوباء[3].

كان من أثر هذا العدوان الجسيم أن قرر أمير المسلمين علي بن يوسف تغريب النصارى المعاهدين الذين ثبت تعاونهم وتورطهم في حملة ألفونسو المحارب، وذلك

(1) ابن الكردبوس، م. س. ص 78 - 89. الذخيرة: القسم الثالث، مجلد 1، ص 44 وما بعدها.
(2) ن. م. ص 91.
(3) الحلل الموشية، ص 98. ابن عذارى: م. س. 4 / 72، 73.

بناء على فتوى قاضي الجماعة أبي الوليد بن رشد لأنهم نقضوا العهد وخرجوا عن ذمة المسلمين فأبعدت منهم بناء على هذه الفتوى ألوف عديدة فرقت في أنحاء العدوة المغربية[1].

بعد ثبوت تورط النصارى المعاهدين في مساعدة ملوك قشتالة، ازداد شعور التوجس والشك ضد جماعات النصارى المعاهدين في مختلف المدن الإسلامية، وارتفعت أصوات الفقهاء بالاشتداد في معاملاتهم والحذر والحيطة منهم. واشتد «ديوان النزاع»[2] في مراقبتهم وحركاتهم.

وقد نشط أهل الذمة في ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية والعبرية. وفي الغالب لم يكونوا يراعون الأمانة في نقل هذه الكتب، إذ كانوا ينسبونها إلى أنفسهم وإلى أساقفتهم، لذلك حذر المحتسبون من عدم أمانتهم في نقل علوم المسلمين، ونصحوا المسلمين بعدم شرائها، على الأخص كتب العلوم، ولا يبتاعوا منهم إلا كتب شريعتهم. يقول ابن عبدون: «يجب أن لا يباع من اليهود ولا من النصارى كتب علم إلا ما كان من شريعتهم: فإنهم يترجمون كتب العلوم وينسبونها إلى أهلهم وأساقفتهم وهي من تواليف المسلمين»[3].

وإذا كان ابن عبدون وغيره من المحتسبين قد حذر في القرن السادس الهجري من خطورة ترجمة أهل الذمة للكتب الإسلامية وانتحال علمائهم لها وبيعها على أنها من تواليف أحبارهم ورهبانهم، فقد تأكدت أقواله بعد بضعة قرون عندما اكتشفت العديد من كتب العلوم الإسلامية التي انتحلها بعض من علماء أوربا في عصر النهضة ونسبوها لأنفسهم.

من ناحية أخرى كان من نتيجة سقوط طليطلة وغيرها من القواعد والمدن الإسلامية في يد قشتالة وأراجون أن برزت مشكلة المسلمين الذين لم يغادروا مدنهم وبقوا تحت الحكم النصراني وكونت بذلك أقلية مسلمة داخل المجتمع النصراني، والذين بدأت تزداد جموعهم تباعاً كلما سقطت قاعدة أندلسية جديدة وهي التي كونت مجتمع المدجنين، وكان أكثرهم في مدن شرق الأندلس. وقد عاش المدجنون في ظل ملوك قشتالة وأراجون في البداية دون تغيير كبير، إذ ظلوا يتمتعون بنوع من

(1) م. ن.

(2) د. حسين مؤنس، م. س. ص 127

(3) ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص 49. وعصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين، ص 257.

الطمأنينة والأمن، وكانت تسامح النصارى في البداية وتركهم المسلمين يتمتعون بتطبيق شريعتهم وأحكام دينهم فيما بينهم قد شجع الكثير منهم على البقاء. ويلخص لنا المؤرخ فلورسيو خانير (Florecio Janer) في كتابه Condition Social de los Moriscon de Espana أحوال المدجنين في عصور التسامح بقوله: «كانت ثمة معاهدات من كل ضرب تحترم بإخلاص في سائر نقطها الجوهرية وتعتبر أساساً للحقوق المدنية للأندلسيين المدجنين، ويختلف بعضها عن بعض سواء في أراجون أو قشتالة وفقًا للبنود التي تتعلق بالامتيازات المختلفة فتطبق بروح من التسامح أو التشدد، يقل أو يكثر حسب الحرية التي منحت للمسلمين وفقاً لما نصت عليه اتفاقيات تسليم هذه المدن»[1]. وكان يخصص للمدجنين في كل مدينة حي خاص لإقامتهم يفصل بينه وبين أحياء النصارى سور ضخم وكان هذا هو الشأن بالنسبة لليهود أيضاً. وفي الغالب كان يتفق على أن يسكن النصارى المدينة ويسكن المسلمون أرباضها[2].

وكان انضمام المدجنين إلى الجيوش النصرانية يقع في حدود نسبتهم العددية وكان يعتبر الإعفاء من الخدمة العسكرية امتيازًا[3].

وكانت سياسة ألفونسو السادس بعد استيلائه على طليطلة محاولة استمالة المسلمين الذين بقوا بها أو بالحصون والقرى التي تجاورها، وساعد ضعاف الفلاحين بالأموال لكي يقوموا بزراعة الأرض وليشجع المسلمين على البقاء وعدم الهجرة[4]، كما كان يرمي إلى أن تشيع معاملته بين المسلمين المحاصرين في مدن أخرى والتي أوشكت على السقوط.

وكان من حسن سياسة ألفونسو أنه عندما استولى على طليطلة ولى ششنندو أمرها فبسط في أهلها من عدل أحكامه حتى استمال قلوب أعلامها وحبب التنصر إلى عامتها وفجأ المسلمين من اختلاف أهوائهم وتنصر سفهائهم[5] حتى أن الفقيه أبا القاسم بن الخياط تنصر وحلق وسط رأسه وشد الزنار وأخذ يعمل كاتبًا عند

---

(1) ابن الكردبوس، م. س. ص ص 118، 119.

(2) ابن عذاري، م. س. 4 / 39.

(3) Loa. H. Ch. History of the Inquisition in Spain, vol. I pp 62 - 64.

(4) ابن الكردبوس، م. س. ص 91.

(5) م. ن.

ألفونسو[1]. وتمثل هذه الحالة غاية الشذوذ في إيثار المصلحة الفردية. كما كان لششنندو دور كبير في احتواء الثورة التي قامت في طليطلة إثر تحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة والذي قام به الأسقف برنار الفرنسي عميد دير ساهاجون وكان له نفوذ كبير على الملكة كونستانس زوجة ألفونسو وهي فرنسية برجونية الأصل وعين لرياسة الكنيسة الإسبانية فغير الكثير من طقوسها وتقاليدها، فانتهز فرصة غياب الملك ألفونسو واقتحم المسجد الجامع في جمع من الفرسان وحطم المحراب وأمر بإقامة الهياكل وفي اليوم التالي عقد بالمسجد الجامع قداسًا حافلاً، فهاج المسلمون. ولولا حكمة ششنندو ووجود حامية قشتالية كبيرة، لتحولت إلى ثورة مدمرة، وبعد سقوط المرابطين، نجح ابن مردنيش في إقامة دولته في شرق الأندلس، ولم يستطع الموحدون القضاء عليه لمدة طويلة بسبب اعتماده على محالفاته مع الممالك النصرانية وتوطيد علاقاته الطيبة معها، فكان يسهل لهم ولرعاياهم مصالحهم، بل بلغ من شططه أنه أقطع أحد أكابر فرسان البشكنس بيدرو رويث أثاجرا (Pedro Ruiz Azgra) مدينة شنتمرية ابن رزين مع سائر مرافقها وأراضيها. ولم تقتصر علاقته فقط على الممالك النصرانية بالأندلس، بل تمتعت المدن الإيطالية بامتيازات خاصة. فقد تعهد لجنوة بأن يبني لرعاياها الذين يسكنون بلنسية ودانية فندقًا يزاولون فيه تجارتهم وشؤونهم، وأن يعين لهم حمامًا يذهبون إليه كل أسبوع مجانًا. وبلغ من تأثره بالنصارى أنه كان يتشبه بهم في لباسهم وركوبهم، وكان يرى المدن الإسلامية تسقط في الثغر الأعلى الواحدة تلو الأخرى دون أن يحرك ساكنًا لإنقاذها. فبعد سقوط المرابطين، دعا البابا أوجين الثالث إلى حملة صليبية لفتح المدن الإسلامية في الثغر الأعلى وهي لاردة وإفراغة ومكينسة (مكناسة) وطرطوشة وجميعها تقع على حدود إمارة برشلونة فاجتمعت قوات النصارى من أراجون وقطلان وبيزا وجنوة وطوقوا ثغر طرطوشة برًا وبحرًا، ولم يتدخل ابن مردنيش لارتباطه برباط الصداقة والمهابة مع الكونت برنجر أمير برشلونة، وترك هذه المدن تسقط الواحدة تلو الأخرى دون تقديم أي محاولة لإنقاذ هذه المدن[2].

وكان بعض قادة الجيوش النصرانية يستغلون بعض أشرار المسلمين الذين سموا بالدوائر لمهاجمة المسلمين والاستيلاء على ما يحملونه أثناء فرارهم من مدنهم

---

(1) ابن سعيد: المغرب، 2 / 22.

(2) عصمت دندش، م. س. ص 258.

التي سقطت أو أوشكت على السقوط. فقد ذكر ابن الكردبوس أنه أثناء حصار السيد رودريجو دياز بيبار (Rodrigo Diaz Vivar) بلنسية والذي طال مدة عشرين شهرًا، «انقطع إلى القنبيطور وغيره من أشرار المسلمين وأرذالهم وفجارهم وفسادهم. وممن يعمل بأعمالهم خلق كثير وتسموا بالدوائر وكانوا يشنون على المسلمين الغارات ويكشفون الحرمات ويقتلون الرجال ويسلبون النساء والأطفال، وكثير منهم ارتد عن الإسلام ونبذ شريعة النبي (عليه السلام) إلى أن انتهى بيعهم للمسلم الأسير بخبزة وقدح خمر ورطل حوت، ومن لم يَفْدِ نفسه قطع لسانه وفقئت أجفانه وسلطت عليه الكلاب الضارية فأخذته أخذة رابية»[1].

ومن خلال الوثائق التي نشرها آنجل جونثالث بالنتيا[2] يتبين أن ملوك النصارى لبثوا عصورًا يحرصون على الانتفاع بنشاط المدجنين وحمايتهم. فقد كانت هناك طوائف كبيرة منهم ـ حتى القرن الخامس عشر الميلادي التاسع الهجري ـ تعيش في أنحاء إسبانيا النصرانية محتفظة بدينها ولغتها وتقاليدها.

وكان مجتمع المستعربين أو النصارى المعاهدين، حتى في القواعد الأندلسية التي سقطت في يد النصارى وبسطوا عليها سلطانهم، يتأثر بمجتمع المدجنين وبأحواله وتقاليده، حتى أنهم كانوا يتخذون اللغة العربية لغة التعامل ولغة التخاطب أحيانًا إلى جانب لسانهم القومي. فمعظم الوثائق التي نشرها بالنثيا محررة بين المستعربين، وأحيانًا بينهم وبين المدجنين باللغة العربية. وكلها تستهل بالبسملة مقرونة أحيانًا بعبارة «وبه نستعين» أو «الحمد لله وحده» وعلى كثير منها شهود مدجنون إلى جانب الشهود النصارى.

كما توجد في كتدرائية سرقسطة مجموعة وثائق عربية قام بنشرها المستعرب الإسباني جارسيا دي لينارس (R. Garcia di Linares)[3]؛ وهي تلقي ضوءًا على المدجنين، وأحوالهم في مملكة أراجون منذ القرن العاشر الميلادي إلى القرن الخامس

---

(1) ابن الكردبوس، م. س. ص 103.

(2) نشرها في أربعة مجلدات. وانظر الوثيقة المرفقة.

(3) نشرت في بحث عنوانه: Escrituras Arabes Pertececientes al Archivo de Nuestra Senora del Pilar de Zaragoza.

عشر؛ وهي عبارة عن عقود للبيع والشراء والوديعة وغيرها بين أفراد من المدجنين وبين المدجنين والنصارى، ويستفاد من قراءتها أن المدجنين حتى القرن الخامس عشر في مملكة أراجون كانوا يحتفظون بدينهم الإسلامي، وأنه كانت ما تزال بعض المساجد قائمة في بعض أنحاء سرقسطة.

ولكن هذا التعايش بين المدجنين والنصارى لم يكن يحظى برضاء البابوية التي كانت ترى في وجود المسلمين في قلب المجتمع النصراني خطراً يهدد مصالحها، واستمرت في تحريض وحث ملوك النصارى على اتباع سياسة الانتقام والعنف إزاء الرعايا المسلمين. ومنذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي تتوالى أوامر البابوية وقراراتها ضد المدجنين والحض على استرقاقهم أو تنصيرهم. وكان ملوك قشتالة وأراجون يعارضون هذه السياسة العنيفة في بادىء الأمر، لأنها تتعارض مع مصالحهم القومية ورخاء بلادهم الاقتصادي، إذ كان المسلمون من أنشط العناصر وأكثرها إنتاجًا وعملاً وأوفرها في تأدية الضرائب كما أنها تتفوق على النصارى في العلوم والفنون والمهن المختلفة.

وكان من نتيجة الاضطهاد الذي بدأت تلوح بوادره من تحريض الكنيسة أن ارتفعت أصوات الفقهاء والعلماء تدعو إلى هجرة المسلمين من المدن التي سقطت[1] خوفًا من أحكام النصارى التي تجري عليهم وتغير سيرهم ولسانهم وعاداتهم بطول السنين وخوفًا من فرض الضرائب والمغارم المجحفة التي تؤدي إلى استغراق المال والخوف من الفتنة في الدين وتحريض المسلمات على الفساد. وصدرت الفتاوى بألا يتوارث من ولد بأرض الشرك مثل المسبيين والمستأمنين إلا أن يثبت لهم ببيِّنة أو يكونوا جماعة كثيرة تحملوا فيشهد بعضهم لبعض[2]، وأفتوا بعدم جواز الأخذ بخطاب قضاتهم[3].

كما ارتفعت أصوات الشعراء تندب سقوط المدن الإسلامية وتحرض المسلمين

---

(1) الونشريسي: م. س. 6 / 124.

(2) م. ن. 2 / ابتداء من 140.

(3) م. ن. 10 / 66، 67.

على تركها وتنعى ذل حكام الأندلس بمداراتهم واصطناعهم للنصارى وذل الناس الذين يرضون الدنية بالخضوع والخنوع للحكم النصراني. وقد احتفظ لنا المقري[1] بقصيدة لشاعر لم يذكر اسمه يندب فيها طليطلة ويثور ثورة عارمة على أهلها الذين فضلوا البقاء تحت الاسترقاق قائلين أين نفر ولا أملَ لنا ولا دور، دعونا في مدينتنا فإنها ذات فاكهة طرية وماء نمير وهؤلاء المحتلون أحمى لحوزتنا ونحن ندفع لهم الجزية:

كفى حزنًا بأن الناس قالوا	إلى أين التحول والمسير
أنترك دورنا ونفر عنها	وليس لنا وراء البحر دور
ولا ثم الضياع تروق حسنًا	نباكرها فيعجبنا البكور
وظل وارف وخرير ماء	فلا قَر هناك ولا قرور
ويؤكل من فواكهها طري	ويشرب من جداولها نمير
يؤدى مَغْرَمٌ في كل شهر	ويؤخذ كل صائفة عشور
فهم أحمى لحوزتنا وأولى	بنا وهم الموالي والعشير
لقد ذهب اليقين فلا يقين	وعز القوم بالله الغرور
رضوا بالرق يا الله! ماذا؟	رآه وما أشار به مشير

وكان من نتيجة الضغوط التي يتعرض لها المدجنون تفكك الروابط الأسرية ولم يعد للأب سلطة على أبنائه. وعن ذلك يتحدث ابن جبير[2] فيقول: «ومن أعظم ما مني به أهل هذه الجزيرة أن الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجته، أو تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المغضوب عليه أنفة تؤدي إلى التطارح في الكنيسة فيتنصر ويتعمد ولا يجد الأب للابن سبيلاً، ولا الأم للبنت سبيلاً، فتخيل حال من يُمْنى بمثل هذا في أهله وولده ويقطع عمره متوقعًا لوقوع هذه الفتنة منهم».

---

(1) المقري: نفح الطيب، 2 / 593.

(2) ابن جبير: الرحلة ص 264. وهذه العبارة التي استشهدت بها ذكرها ابن جبير عندما زار صقلية، وهي لا تختلف عما حدث بجزيرة الأندلس في معظم مدنها التي سقطت.

على أنه بالرغم من جميع الفوارق التي كانت تفصل بين المدجنين وبين النصارى، فقد جنح الكثير منهم إلى التشبه بجيرانهم، وكانت العوامل الاجتماعية والمحلية تحدث أثرها التدريجي في مجتمع المدجنين، وانتهوا بمضي الزمن وأثر الاختلاط والتزاوج إلى فقد دينهم ولغتهم ومميزاتهم الجنسية والقومية والاندماج شيئًا فشيئًا في المجتمع الذي يعيشون فيه. وهكذا أصبحوا بالتدريج قشتاليين ونصارى، وصار علماؤهم يكتبون كتب الدين والشريعة بالقشتالية للرجوع إليها.

* * *

الوثيقة

بسم الله الرحمن الرحيم

اشترى الوزير دون ميقايل بيطس أعزه الله من بهلول وأخيه بيطُره ابن مرتين ابن بهلول رحمه الله جميع الدار الكبيرة والقرَّال المتصل بها من جهة الغرب والقبلا رينة المتصلة بها أيضًا من جهة القبلة. حدود جميع ذلك كله من الشرق الطريق السالك وإليه يشرع الباب، وفي الغرب دار ابن طورينة المسلم أمين الفخارين، وفي القبلة دار بيطرة البنا بن بهلول، وفي الجوف دار تبقت بيد البائعين ودار سلمة بن حسان بجميع حقوق الدار والقبلا رينة والقرال ومنافع ذلك كله ومرافقه ولكل حره ومخدومه ومنسوب إليه في العلو والسفل والداخل والخارج وبكل ما اشتملت عليه الحدود المذكورة فوق هذا. لم يستبق البائعان بهلول وأخوه بيطره المذكوران لأنفسهما في المبيع الموصوف المحدود حقًا ولا ملكًا قليلاً ولا كثيرًا دقيقًا ولا جليلاً، ولا منتفعًا ولا مرتفقًا بوجه من الوجوه ولا بسبب من الأسباب إلا وخرجا عنه إلى المبتاع المذكور بالبيع الصحيح البتل التام الناجز الصريح الذي لم يتصل به شرط مقيد ولا ثنية ولا خيار بثمن عدته ثمانون مثقالاً ذهبًا مرابطية دفع المبتاع المذكور جميع الثمانون مثقالاً المذكورة إلى البائعين بهلول وأخيه بيطره المذكورين عينيًا وازنًا طنانًا وقبضاه منه وصار في حايزهما وملكهما وأبرأ ذمة المبتاع منه، فبرئت وأنزلاه في المبيع المذكور المحدود منزلتهما قبل وجوب البيع، فنزل وحل فيه محل ذي الملك في ملكه بعد المعرفة منهم بقدر المبيع ومبلغه ومنتهى خطره وعلى سنة النصارى في بيوعهم وأشربتهم ومرجع الدرك فيما بينه شهد على أشهاد المتبايعين المذكورين ثلاثتهم بالمذكور فيه عنهم من عرفهم وسمعه منهم وهم بحال الصحة وجواز الأمر في العشر الأول من شهر أغشت من سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف بتاريخ الصفر.

يحيى بن إسماعيل شهد　　عبد الله بن داود شاهد　　بهلول بن عمر شهد
عامر بن تمام　　عبدالرحمن بن إبراهيم عياش بن عياش　　يحيى بن فرج
وحيد بن عبد الملك بن ليون وكتب عنه

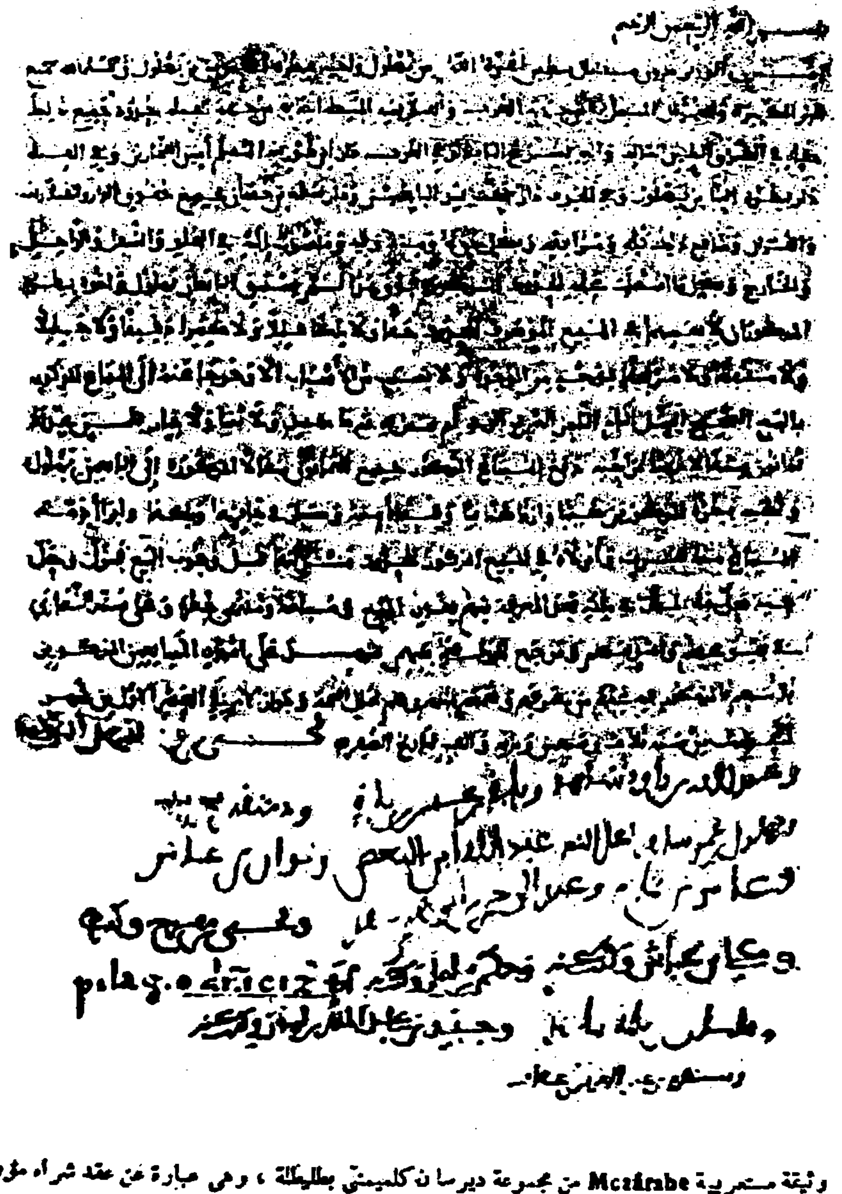

وثيقة مستعربية Mozárabe من مجموعة ديرسان كليمنتي بطليطلة ، وهي عبارة عن عقد شراء مؤرخ في شهر «أغشت» سنة ١١٧٣م ، وقد وقع عليها شهود مسلمون ومدجنون إلى جانب المتعاقدين النصارى.

المصادر والمراجع

- ابن بسام: الخريدة. القسم الأول مجلد 1، قسم 4 مجلد 1، وقسم 3 مجلد 1، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت سنة 1977.
- ابن جبير: الرحلة. تحقيق د. حسين نصار.
- ابن حيان: المقتبس. تحقيق د. محمود علي مكي.
- ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة. تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة.
- ابن الخطيب: أعال الأعلام. نشر ليني بروفنسال، بيروت 1956.
- ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب. تحقيق د. شوقي ضيف، ط 3 القاهرى.
- ابن سماك العماملي: الحلل الموشية. تحقيق د. زكار محمد زمامة.
- ابن عذاري: البيان المغرب. تحقيق د. إحسان عباس.
- عبد الله بن بلكين: كتاب التبيان. نشر ليفي بروفنسال.
- ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس.
- المقري: نفح الطيب. تحقيق د. إحسان عباس.
- الونشريشي: المعيار. وزارة الأوقاف بالمملكة المغربية.
- د. حسين مؤنس: الثغر الأعلى، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، مجلد 2 سنة 1941.
- د. عبادة كحالة: تاريخ النصارى في الأندلس. القاهرة 1993.
- د. عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين، دار الغرب.

- Cagigas, E., los Mozarabes rol. II.
- Dozy. R. Histoire des Musulmans d'Espane.
- Levi Provencel.
- Loa H. Ch. History of the Inquisition in Spain.

* * *

أضواء على معاملة المرابطين لليهود

من خلال نازلة الحكيم ابن قمنيل

أضواء على معاملة المرابطين لليهود من خلال نازلة الحكيم ابن قمنيل

تمتعت الطائفة اليهودية في عهد المرابطين بكثير من مظاهر الحرية الدينية والفكرية، وبرز عدد منهم في الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وفي واقع الأمر أن أهل الذمة عمومًا نصارى كانوا أو يهودًا تمتّعوا في ظل الحكم الإسلامي بحرية ممارسة شعائرهم الدينية، واستظلوا بسماحة الدين الإسلامي، ولم يحدث تحول عن هذه السياسة إلاّ كرد فعل بسبب تجاوز هذه الفئات ما عاهدت عليه المسلمين، خصوصًا عندما يصل الأمر إلى الاتصال بدار الحرب، وتشجيعهم على غزو بلاد المسلمين والإدلاء لهم بمناطق الضعف في المدن الإسلامية، لذلك كان من الطبيعي أن يكون ردّ الدولة قاسيًا تجاه من ثبتت إدانته وتورطه في خيانة الدولة، وكان من أبرز الأحداث في العهد المرابطي تغريب النصارى المعاهدين الذين تورطوا في دعوة ألفونسو المحارب لغزو غرناطة[1] التي كانت تتمتع بوضعية اقتصادية متميزة.

والملاحظ أن اليهود لم يشاركوا في مثل هذه الأحداث، بل كانوا يتحاشون الانزلاق في الفتن التي تحدث بين الأهالي وعمال الدولة، وربما كان موقفهم موازرة السلطة المركزية لتثبيت الحكم[2]. وقد يكون تصرف اليهود هذا نابعًا من حرصهم على المكتسبات التي حصلوا عليها بحماية الدولة لهم، ورعايتها لمصالحهم، وتوفير جو الأمان لممارسة شعائرهم. صحيح أن الأمير يوسف بن تاشفين صادر بعضًا من يهود غرناطة والمغرب وألزمهم دفع مبالغ كبيرة من المال كما يذكر ابن عذارى، لكن هذا الإجراء كان على ما يبدو ضروريًا في وقت تأسيس الدولة، وحاجته الماسة إلى الأموال، ولم يكن اليهود وحدهم الذين غرموا بل حصلت الأموال من المسلمين في بعض المدن المغربية مثل فاس وأغمات وسجلماسة، وعمومًا فقد كانت سياسة المرابطين تجاه أهل الذمة هي التسامح، فاستخدموا بعضهم في بعض الأعمال التي

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 4 / 72 ـ 73، الحلل الموشية، ص 91.
ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، 1 / 119. الونشريسي: المعيار، 8 / 56 ـ 57.
Palencia, Aspects Sociales de l'Espagne Arabe, p. 19.
Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, Tome. III, p. 159.

(2) العذري: نصوص عن الأندلس، تحقيق د. عبد العزيز الأهواني، ص 102، مجلة معهد الدراسات العربية، مدريد سنة 1965.

مهروا فيها، خصوصًا الأعمال الاقتصادية من تجارة وصيرفة وغيرها، كما كانت مهنة الطب وتحضير العقاقير من المهن التي برعوا فيها.

ولم يكن أمراء المرابطين بدعًا في الاستعانة بالعنصر اليهودي كأطباء خاصين في بلاطهم، فقد سبقهم إلى ذلك حكام المسلمين عمومًا، وحكّام الأندلس خصوصًا منذ الفتح، فاليهود هم الذين وقفوا إلى جانب المسلمين أثناء الفتح ودلوهم على نقاط الضعف في استحكامات المدن وخلال الأسوار، وأثبتوا ولاءهم وإخلاصهم للفاتحين، فكانت نظرة المسلمين إليهم نظرة المعاون، فاتخذوا منهم حرسًا خاصًا لما يفتحونه من البلاد بجانب الحرس الإسلامي، يذكر ابن الخطيب عندما فتح طارق بن زياد مدينة إلبيرة «وألفوا بها يهودًا ضموهم إلى قصبة غرناطة فصارت لهم سنة متبعة، متى وجدوا ـ بمدينة فتحوها ـ يهودًا يضمونهم إلى قصبتها، ويجعلون معهم طائفة من المسلمين يسدونها»(1). فحيثما اتجه سلاح المسلمين سار اليهود من ورائه متابعين متزاحمين، فالمسلمون يحاربون واليهود يتجرون(2).

وتمتع اليهود بتسامح كبير، فكانت لهم بيعهم ورجال دينهم ومحاكمهم الخاصة بهم، فكانت الأندلس البلد الوحيد في أوروبا الذي تمتع اليهود فيه بحماية أولي الأمر ورعايتهم، وكان من نتيجة هذا التسامح أن هاجر كثير من اليهود إلى الأندلس، وازدهرت أحوالهم المادية، يقول جوزيف ماكيب(3):«فعلى حين كان كبار تجار اليهود في البلدان الأخرى يجتهدون في إخفاء ما اكتسبوه بعرق الجبين من المال، صاروا يتبوؤون قصورًا كقصور الأمراء ويعدون في أعلى الطبقات من الوجهة الاجتماعية».
وقد حاز بعض اليهود على ثقة أمراء الأندلس حتى أن بعضًا من أطباء اليهود استطاع أن يصل بعلمه وذكائه إلى منصب الوزارة والولاية، يقول ابن جلجل وابن أبي أصيبعة في ترجمة يحيى بن إسحق بعد أن يصفاه بالطبيب الذكي العالم البصير بالعلاج، إن الخليفة عبد الرحمن الناصر استوزره وولاّه الولايات والعمالات، وكان قائد بطليوس زمانًا، «وكان له من أمير المؤمنين الناصر محل كبير، كان ينزله الثقة، ويتطلع على الكرائم والحرم»(4).

---

(1) ابن الخطيب: الإحاطة، 1 / 107.

(2) جوزيف ماكيب: مدنية العرب في الأندلس، ترجمة د. تقي الدين الهلالي، ص 32.

(3) ن. م. ص 60.

(4) ابن جلجل: طبقات الأطباء، رقم 43، ص 100. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، 2 / 68.

وفي عهد ملوك الطوائف استطاع صمويل بن النغرلة وزير باديس بن حبوس ملك غرناطة أن يؤثر عليه ويحوز على ثقته، وفي عهده تسلّط اليهود على المسلمين، واكتسبوا الجاه والمال واحتكروا الوظائف والأعمال، وازدادت شوكتهم في عهد ابنه يوسف بن النغرلة، الذي بسط سيطرته الكاملة على الأمير باديس ودولته، وعندما كشف الأمير بلقين تآمر اليهود وخطرهم، سارع يوسف بن النغرلة بقتله بالسم، والأخطر من ذلك فقد فكّر في إقامة دولة لليهود في مدينة ألمرية بالتواطؤ مع المعتصم بن صمادح، مما أثار حنق المسلمين وحميتهم، فاندفعوا في ثورة عارمة عام 459هـ إلى داخل قصر يوسف بن النغرلة حيث وقعت مذبحة غرناطة التي قتل فيها عدد كبير من اليهود[1]، وكان لقصيدة أبي إسحق الألبيري فعل السحر في النفوس، فقد شهّر فيها باليهود وكشف نواياهم وتآمرهم، فكانت بمثابة منشور سياسي خطير أدّى إلى نكبة اليهود، وقد وصف غارسيا جومس آثار هذه القصيدة بقوله: «ولا نعرف إلاّ في القليل النادر أن أبياتًا من الشعر لعبت دورًا سياسيًا مباشرًا في التاريخ السياسي لأمة من الأمم فكهربت العزائم ودفعتها في سرعة خاطفة إلى إشعال الحرائق وشحذت السيوف للقتل كالدور الذي لعبته هذه القصيدة»[2].

---

(1) توسع الأمير عبد الله بن بلقين في التحدث عن تأثير ابن النغريلة وولده يوسف وتآمرهم وتسلّطهم على المسلمين في كتابه «التبيان»، ص 72 ـ 92.

(2) يقول الإلبيري:

ألا قل لصنهاجة أجمعين	بدور الندى وأسد العرين
لقد زل سيدكم زلة	تقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافرًا	ولو شاء كان من المسلمين
فعز اليهود به وانتخوا	وتاهوا وكانوا من الأرذلين
ونالوا مناهم وحازوا المدى	فحان الهلاك وما يشعرون
فكل مسلم فاضل قانت	لأرذل قرد من المشركين
وما كان ذاك من سعيهم	ولكن منا يقوم المعين

انظر القصيدة كاملة في ملحق كتاب «مع شعراء الأندلس والمتنبي» لغارسيا جومس، ترجمة د. الطاهر أحمد مكي.

وعلى العموم فقد كان المناخ العام الذي ساد في الأندلس منذ الفتح يقوم على حرية العقيدة والتعايش بين جميع طوائف المجتمع على كافة المستويات الاجتماعية، ويتمثل ذلك في الممارسات اليومية في الأسواق والأندية والعلاقات الاجتماعية، يجلس بعضهم إلى بعض يتجاذبون أطراف الحديث والمجاملات، وهذا ابن حزم الذي ردّ بشدّة على النصارى واليهود في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» نجده في حياته اليومية لا يستنكف من الجلوس في دكان عالم ذمي مع ثلة من علماء المسلمين حيث يعقد مجالسه العلمية والأدبية دون أن يجد حرجًا من ذكر هذه الحادثة(1). فالعالم المسلم المتمكّن من دينه وعلمه يأخذ العلم من أي مصدر كان، لا يؤثر ذلك على عقيدته ولا سلوكه، فعلماء المسلمين نهلوا من موارد العلم، ونقلوا كتب الأولين مهما كانت ملّتهم أو جنسهم، وترجموا ونقحوا، وأصلحوا مادّتها العلمية، فأخرجوا تراث البشرية تحت مظلة الإسلام المتفتّح، أدواتهم في ذلك التريث والعدل وعدم اتباع الهوى والتحفظ من الأحكام الخاطئة معتمدين على «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها» ومع ذلك فلم يكن كل علماء المسلمين هكذا، فمنهم من انتحل أقوالاً وأفعالاً أساءت للإسلام عن قصد أو عن غير قصد فكذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلقوا مجالاً للفتنة والبغضاء بين المسلمين وغيرهم.

وحافظت بعض الحواضر على خصوصيات علمية أو اقتصادية أو فكرية اختصت بها، فكانت قرطبة مركز الفتيا والفقه الإسلامي كما تأسست بها مدرسة للدراسات العبرية احتلت مركز الصدارة منذ القرن الخامس الهجري وما بعده، وتوسّعت حتى صارت دارًا للإفتاء في الشريعة اليهودية داخل الأندلس وخارجه، ويعتمد على فتياها يهود المشرق(2)، وشهرت سرقسطة بالعلوم العقلية، وألمرية بالفكر الصوفي، وغرناطة بالنشاط الاقتصادي، بينما جمعت إشبيلية بين هذه الخصائص خصوصًا في الطب والفلسفة والمنطق، فظهر بها عدد كبير من الأطباء

---

(1) يقول ابن حزم: ولقد كنت يومًا بألمرية قاعدًا في دكان إسماعيل بن يونس الطبيب الإسرائيلي، وكان بصيرًا بالفراسة محسنًا لها، وكنا في لمّة، فقال له مجاهد بن الحصين القيسي: ما تقول في هذا؟ وأشار إلى رجل منتبذ عنا ناحية اسمه حاتم ويكنى أبا البقاء، فنظر إليه ساعة يسيرة ثم قال: هو رجل عاشق، فقال له: صدقت. فمن أين قلت هذا؟ قال: لِبُهْتٍ مفرط ظاهر على وجهه فقط دون سائر حركاته، فعلمت أنه عاشق وليس بمريب. طوق الحمامة، ص 67، ط 1985.

(2) دكتور محمد بحر عبد الحميد: اليهود في الأندلس، ص 70، 71.

المسلمين واليهود، وكان على رأسهم أسرة بني زهر التي توارثت الطب وتتلمذ عليها عدد كبير من أطبّاء المسلمين، منهم أبو يحيى بن قاسم الإشبيلي، وأبو الحكم غلندو، وأبو محمد الشذون، وأبو جعفر بن الغزال، وأبو الحسين بن أسدون المشهور بالمصدوم، وأبو بكر بن القاضي أبو الحسن الزهري وغيرهم[1]. ومن اليهود منحم ابن الفوال، وأبو إسحق إبراهيم بن الفخار، ويهودا هالوي، ويهودا ابن شاول بن طبون الغرناطي، وحسداي بن يوسف بن حسداي، وابن بكلارش وغيرهم[2].

كما اشتهرت بعض الحواضر في العدوة المغربية بنفس الخصوصيات مثل سبتة، وطنجة وفاس وأغمات وسجلماسة ومراكش العاصمة بطبيعة الحال، وقد نافست هذه المدن الأندلس في شتى فروع العلم، خصوصًا بعد استقرار عدد كبير من العلماء في المدن المغربية ليكونوا بقرب السلطان.

وإذا كانت مراكش قد أضحت تنافس بغداد، فقد كانت فاس تنافسها، إذ استوطنها عدد كبير من علماء المسلمين واليهود على الخصوص الذين امتهنوا التجارة أو الطب، وبرع فيه البعض واشتهر، وانصرف كثير من مرضى المسلمين إليهم للمعالجة، فأبو الحسن يهودا اشتغل بتأليف كتب اليهودية وفي نفس الوقت اشتغل بالطب، فكان يجلس كل يوم جمعة لمعالجة المرضى الذين كانوا يتزاحمون عليه[3]. وكون الكثير من اليهود ثروات ضخمة، ووجدت طبقة غنية تشبهت بكبار رجال الدولة وذوي السلطان في حماية العلم والعناية بالشعراء، وتشجيع المهتمين بالتأليف في اللغة والأدب، فخلقوا سوقًا نافقة تروج للعلوم اليهودية دينية ولغوية، وأسّسوا مدرسة فاس للدراسات العبرية تضارع مثيلتها في قرطبة، وكان يرأسها يهودا شويح الفاسي الذي ألف قاموسًا عبريًا ومباحث قيّمة عن الإنشاء والترقيم في اللغة العبرية[4]. وكما عرفت غرناطة بأنها غرناطة اليهود[5]، فقد كانت فاس مركزًا رئيسيًا لليهود منذ تأسيسها كما يذكر الحميري[6]،«وكانوا يختلفون منها إلى

---

(1) ابن أبي أصيبعة: م. س. 2 / 128 ـ 131.

(2) ن. م. ص، ص 81، 82 ـ 85. ابن سعيد: المغرب، 2 / 339، 23.
ابن قزمان: الديوان، ص 484 ـ 485.

(3) الاستبصار، ص 202. Goitien, p. 337.

(4) أشباخ: تاريخ الأندلس، 2 / 256، حاييم الزعفراني: ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، ص 12.

(5) الأمير عبد الله بن بلكين: م. س. ص 32.

(6) الحميري: الروض المعطار، ص 23. وكانت اليسانة قرب قرطبة تدعى مدينة اليهود. وانظر الإدريسي: نزهة المشتاق، ص 191، ابن سعيد: المغرب، 1 / 105.

جميع الآفاق، واستمر حالهم كذلك إلى نهاية القرن السادس مع بداية الموحّدين»[1].

ولم تكن فاس وحدها التي سكنها اليهود وامتلكوا فيها الثروات، وأثروا في حياتها الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، فقد كانت مدينة أغمات هيلانة وسجلماسة من المدن التي كون اليهود فيها جاليات لها وزنها وتأثيرها. وكانت العلاقات مع أهل الذمة عادية، ولكن حين ازداد نفوذهم واتسعت ثرواتهم وتأثيرهم على أنماط الحياة وممارساتهم غير المشروعة جعلت بعض الفقهاء ينظرون بانزعاج وعدم ارتياح إلى التغير الذي طال على المجتمع الإسلامي، وأنماط الحياة، فانبرى عدد منهم يحذر من خطورة الأمر خاصة في مدينتي إشبيلية وفاس، فألف ابن عبدون الإشبيلي رسالته في الحسبة التي استنكر فيها الكثير من الممارسات التي قلّد المسلمون فيها غيرهم من أهل الذمة خصوصًا في الأعياد والمناسبات، وحذّر من التعامل معهم وشكك في نصيحة الأطباء منهم لمرضى المسلمين، «فإنهم لا يرون نصيحة المسلم إلاّ أن يطبوا أهل ملتهم»[2]. «كما نصح بعدم شراء الكتب التي يقومون بترجمتها لأنهم ينتحلون كتب المسلمين وينسبونها إلى علمائهم»[3].

واستنكر بعض الفقهاء في فاس ما يحدث من تزاحم مرضى المسلمين على أطباء اليهود، وبروز عدد من أثرياء اليهود وتشبههم بعلية القوم من المسلمين في لباسهم وركوبهم، وكان التحامل شديدًا على الحكيم ابن قَمْنِيل الذي يخدم في بلاط أمير المسلمين علي بن يوسف.

وابن قَمنيل كغيره من الأسماء التي تذكر في المصادر ولا نتوفر على معلومات حولها، فنفتقد الكثير من الحقائق التي قد تكون مفيدة، أو ربما أدّى ذلك إلى إصدار أحكام قد تكون بعيدة عن الصواب فيضل الباحث خصوصًا إذا كانت لهذه الأسماء أدوارًا فاعلة، ومن هذه الأسماء التي ذكرت في عهد المرابطين ابن قمنيل، فقد ورد ذكره في مصدرين: مرة عند ابن قزمان، والأخرى عند الونشريسي دون أية معلومات تدلّ عليه. ذكره ابن قزمان في زجل رقم 119 الذي يقول فيه:

شَـهْر الصِّـيام زَالْ   وجـا شَـوَّال يـالَسْ نَسْـأَل!

---

(1) الحميري: م. س. ص 42، البكري: المغرب، ص 155. الاستبصار، ص 202.

(2) ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص 57.

(3) ن. م. ص 49.

مِـــــنْ دَابَ نَشْـــرَبْ ولَـــسْ نَسَـــــلْ عَـــــنْ الصِّـــيام

إن القـــــوام دون شـــــراب عِنـــــدي لَـــسْ قـــوام

حَـــــرَام هْ! مَــــنْ قَلْهَـــــا؟ لا تَكْـــذب لَـــسْ حـــرام

اليــوم عــاد قــال ابــن قمنيــل إنَّ حــــــــــــلال

ومن المفارقات العجيبة كما يقول الدكتور الأهواني[1] أن يستشهد ابن قزمان بطبيب يهودي في تحليل الخمر، وربما كان قصده السخرية والتعريض بالمرابطين في تمكينهم لابن قمنيل في بلاطهم، إذ أنه أعطى ابن قمنيل حق الفتوى في مسألة شرعية إسلامية.

الموضع الثاني الذي ذكر فيه ابن قمنيل في سؤال ذكره الونشريسي عندما أرسل أحد فقهاء فاس ويدعى القرشي قاسم النظام مع بعض إخوانه إلى الفقيه عباد بن سرحان الشاطبي[2] الذي استوطن طنجة، عن حكم الإسلام في أحد اليهود وهو الحكيم ابن قمنيل الذي يتعمم ويتختم ويركب السروج على فاره الدواب، ويقعد في حانوته من غير غيار ولا زنار، ويمشي في الأسواق بغير غيار يعرف به، با بأفضل زي كبار المسلمين، ويسأل إذا كان عمل به في زمن الصحابة والتابعين؟»[3].

لا تسعفنا المصادر للأسف بمعلومات عن السائل أو أحد أصحابه الذي لم يذكر اسمهم أو عددهم، لكن يبدو من اهتمامه بإرسال هذا السؤال لعباد بن سرحان بالذات كونه أحد أصحاب القاضي أبي بكر بن العربي الإشبيلي الذي عرف بتشدده في الأحكام عند توليه قضاء إشبيلية. وإشبيلية كان بها عدد كبير من اليهود الموسرين والنصارى الذين أثروا في الحياة الاجتماعية فقلّدهم المسلمون، وكما ذكرنا فقد انبرى عدد من الفقهاء والمحتسبين يحذرون من هذه المظاهر، لكننا لا نستطيع أن نقدر مدى تأثير كتاب ابن عبدون وغيره، أو صيحات بعض الفقهاء المحذرة، وإن كنت أعتقد أن تأثيرها كان ضعيفًا ولم يعرها الناس التفاتًا لانغماسهم في حياة الترف واللهو قياسًا على ما نعانيه في وقتنا.

---

(1) الدكتور عبد العزيز الأهواني: مجلة المعهد المصري، عدد 18، ص 77.

(2) هو أبو الحسن عباد بن سرحان بن مسلم بن سيد الناس المعافري، من أهل شاطبة، سكن العدوة، ولد سنة 464 وتوفي سنة 543 بالعدوة. ابن بشكوال: الصلة، رقم 793، ص 428.

(3) الونشريسي: المعيار، 2 / 254 ـ 259.

لقد استشهد عباد بن سرحان الشاطي الطنجي في ردّه بحديثين نسبا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهما: «لا تبدأوهم بالسلام واضطروهم إلى أضيق الطريق». والثاني: «أذلوهم ولا تظلموهم،.وأهينوهم ولا تكرموهم، وسموهم ولا تكنونهم». وابن سرحان في استشهاده بالحديث الأول يقول: «اضطروهم إلى أضيق الطريق» قيل في معناه: أضيق الطريق المرور عليه، وقيل: إلى أضيق الطريق في الحكم عليهم، والتأويل الثاني أصح لأن الواجب المساواة بين المسلم والذمي في الحكم بالحق، وهذا من شرف الإسلام وفضيلته. ثم يأتي بمعلومات تنفي هذا الميز لأهل الذمة إلى نهاية القرن الخامس الهجري، إذ يقول: «وقد كان غيار أهل الذمة بحضرة بغداد قبل ذلك الزنار فقط على ما هو في ديار الشام ومصر، وكانوا يركبون السروج على فاره الدواب، ويلبسون الفاخر من الثياب الرفيعة وعمائم الثوب إلى أن ألف كتاب أحكام الذمة المعروف «بالفصول الجامعة فيما يجب على أهل الذمة من أحكام الملة» قبل سنة ثمانين وأربعمائة، ألفه الشيخ الصالح المشهور بالزهد والورع أبو بكر أحمد بن علي بن بدران الحلواني صاحب من أصحاب الشيخ أبي إسحق الشيرازي ـ رحمهما الله ـ غيرة على الإسلام، ولما رأى من تعظيم أهل الذمة ودخولهم في خدمة السلاطين. فرفع التأليف إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه[1]، فأمر له بجائزة جزيلة فأبى من قبولها وقال: تجعل جائزتي وجائزة المسلمين الحكم في أهل الذمة بمقتضى هذا الكتاب[2].

ومن المعلوم أن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لم تتعرض لنوع اللباس أو ألوانه سواء الخاصة بالمسلمين أو غيرهم، والرسول صلى الله عليه وسلم لبس جميع الألوان وكل الأنواع وإن كان عليه السلام فضل نوعًا معينًا من الثياب البيض المتواضعة البسيطة، وذلك حتى لا يكون هناك حرج على المسلمين، كما أنه لبس الخاتم يومًا واحدًا وتركه كراهة فتخلى الصحابة عما كانوا يتختمون به، كما ركب صلى الله عليه وسلم الناقة والحمار والبغل والخيل، وكل هذا توسعة على المسلمين وتيسيرًا لهم ولمن أراد أن يتمتع بطيبات الحياة، والإسلام قائم على العدل والإحسان وحسن المعاملة ومكارم الأخلاق.

وموضوع الغيار وإلزام أهل الذمة بالزنار لم يعرف في صدر الإسلام، فالمصادر

(1) هو الخليفة المقتدي العباسي 467: 487هـ.

(2) الونشريسي: م. س. والصفحة.

الأولى لكتب السيرة مثل الطبري والبلاذري وغيرهم لم تتعرض لهذا الأمر، بل ذكر فيها حرص الرسول صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين من بعده على التأكيد على حسن معاملة أهل الذمة وعدم ظلمهم، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من ظلم معاهدًا أو كلفه طاقته فأنا حجيجه». وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عند وفاته: «أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلّفوا فوق طاقتهم». ويذكر القاضي أبو يوسف في خطابه للخليفة هارون الرشيد بشأن أهل الذمة: «وقد ينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد صلى الله عليه وسلم والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم، ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلاّ بحق يجب عليهم» وبالنسبة لحقوقهم قال: «ولهم أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاءوا من ليل أو نهار إلاّ في أوقات الصلوات وأن يخرجوا الصلبان في أيام عيدهم»[1]. وفي «سنن الدارقطني»[2] روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا، ودماؤهم كدمائنا». وأضاف السرخسي «ولأنهم قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم وحقوقهم كأموال المسلمين وحقوقهم»[3].

وقد ذكر أبو يوسف أن من بين بنود العهد الذي أخذه خالد بن الوليد على نصارى الحيرة وعدد من مدنها والخاص بلباس سكانها أن لهم كل ما لبسوا من الزي إلا زي الحرب من غير أن يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم، وأيما رجلٍ منهم وجد عليه شيء من زي الحرب سئل عن لبسه ذلك، فإن جاء منه بمخرج وإلاّ عوقب بقدر ما عليه من زي الحرب». «ولم يَرد ذلك الصلح على خالد أبو بكر ولا رَدّه بعده عمر ولا عثمان ولا علي رضي الله عنهم جميعًا»[4].

وقد نسب إلى عمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز[5]، وهو الأرجح أنه

---

(1) أبو يوسف: كتاب الخراج، ص 127 وما بعدها.
(2) سنن الدارقطني، 2 / 350.
(3) السرخسي، شرح السير الكبير، 3 / 250، مطبعة حيدر آباد.
(4) أبو يوسف: م. س. ص 127.
(5) يرجح الدكتور صبحي الصالح الخليفة عمر بن عبد العزيز لأن لفظ الزنار يوناني يعني المنطق والحزام، ولم يكن اللفظ شائع الاستعمال في عصر عمر بن الخطاب، وربما لم يدخل العربية إلا عن طريق الآرامية التي كانت لغة أصل الكتاب وإنما دخلت العربية بعد أن أصبحت علمًا على الحزام

أمر ولاته ألا يترك أحد من أهل الذمة يتشبه بالمسلمين في لباسه ولا في مركبه، ولا في هيئته، وأن يجعلوا في أوساطهم الزنارات مثل الخيط الغليظ يعقده في وسطه كل واحد منهم، وبأن تكون قلانسهم مضربة، وأن يتخذوا على سروجهم في موضع القرابيس مثل الرمانة من خشب، وبأن يجعلوا شراك نعالهم مثنية، ولا يحذو حذو المسلمين وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل. وقال: «حتى يعرف زيهم من زي المسلمين».

لا شك أن هذه الأوامر التي كانت تصدر من حين لآخر بخصوص إلزام أهل الذمة بلباس يعرفوا به، هو في الأساس ليست له مرجعية دينية وإنما هو في الأساس اجتماعيًا وسياسيًا وزمنيًا، من أجل المحافظة على خصوصية كل طائفة في المجتمع، فعقدة النقص عند الشعوب المغلوبة تجعلها تقلّد الحاكم وأهل السيادة في اللباس والزينة وغير ذلك، فإذا ألزم بعض الخلفاء أهل الذمة بارتداء أزيائهم ومنعهم من تقليد المسلمين في الزينة والركوب، فقد أعانهم من حيث يريد أو لا يريد على حفظ كيانهم وصيانة ثقافتهم في البيئة الإسلامية[1]. وإذا كان هناك بعض التجاوزات والشدة التي كانت تصدر من حين لآخر على أهل الذمة فقد كان مرده عدم التزامهم بالعهد وإثراء جماعة منهم بطرق غير مشروعة على حساب المسلمين، أو ازدياد نفوذهم داخل أجهزة الدولة وإدلاء البعض منهم بأخبار المسلمين للأعداء وكشف أماكن الضعف في تحصينات المسلمين.

يلمح ابن سرحان في رسالته إلى ضغط بعض الفقهاء والمتصوفة على ولاة أمر المسلمين لإصدار بعض الأوامر على أهل الذمة، ويبين نجاح ضغطهم على الخليفة المستظهر[2] الذي أصدر أمراً بألا تتجاوز عمائم كبارهم ببغداد ثلاثة دنانير للعمامة ومثل ذلك الثوب الظاهر على ثيابه، وأن لا يعظموا أكوار عمائمهم، وأن لا يرسلوا

وبعد أن أصبح الحزام علامة مميّزة لأهل الذمة عن المسلمين، فكيف يستعمل عمر لفظًا لم يشع في عهده ولم يعرفه الناس؟ وكيف يستعمل اللفظ الأعجمي رغم قيام المنطق أو الحزام مقامه. د. صبحي الصالح، مقدمة تحقيقه لكتاب أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية في 45.

(1) د. محمد حميد الله: مقدمة في علم السير أو حقوق الدول في الإسلام، مقدمة تحقيق كتاب «أحكام أهل الذمة» لابن قيم الجوزية، ص 86.

(2) الخليفة المستظهر العباسي حكم 487 ـ 512هـ.

لها ذوائب بين أكتافهم وأن لا يجعلوا لها أحناطًا وهو العثنون تحت الذقن، فإن ذلك من زي العرب وزي رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضي الله عنهم، وفي ذلك وقار الإسلام فوجب منعهم من ذلك لهذه المعاني، فإن ركوبهم السروج ولباسهم الغالي من الثياب من التباهي في ذلك إلا ما صغر منها ولطف قدرها مما لا تباهي فيه، وهي أيضًا من معتمدات شريعة الإسلام لقوله صلى الله عليه وسلم: «اعتموا تزدادوا حلمًا» «والصلاة بالعمامة أفضل من الصلاة بغير عمامة». ويضيف ابن سرحان بأنه: «يجوز لهم لباس الخاتم ما صغر ورق ولطف قضيبه، ويكون فصه زجاجًا مما لا مباهاة فيه على الإسلام، ولا يمكنون من النقش على خواتمهم بالعربية، ولا يباح لهم لباس الأصفر من الألوان لأنه لباس الصحابة والخلفاء الأشراف، وبلون الأصفر تباهى عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه حين تزوج عند قدومه المدينة، وأردية الأنصار رضي الله عنهم كانت مصبوغة بالأصفر، ولا سبيل لهم إلى ركوب الخيل لأنها من مركوب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ويباح لهم ركوب البغال والحمير على الأكف وأرجلهم من شق واحد»[1].

وتشدّد عباد بن سرحان في آخر رسالته مؤكّدًا على وجوب تمييز أهل الذمة بالأندلس في اللباس وإلزامهم بالغيار فيقول: «فالواجب على حاكم المسلمين أن يلزمهم التميز عن المسلمين في اللباس وأن يمنعهم من فاخر الثياب ومن لون الأصفر[2]، ويلزمهم الغيار ويقلّدهم دنانير النحاس أو الرصاص أو القصدير في رقابهم ويدخلون بها الحمام، وإن لبسوا قلانس فتكون لطامًا مقاربة، ويكون في وسطها أو في أعلاها رقاع من لبود حمر أو خرق حمر تخالف ألوان القلانس ليعرفوا

---

(1) الونشريسي: م. س. 2 / 254 ـ 259.

(2) من الغريب والمستغرب أن اليهود ألزموا بلبس اللون الأصفر في عهد الخليفة الموحّدي الناصر، يقول المراكشي: وفي آخر أيام أبي يوسف أمر أن يميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم وذلك ثياب كحلية وأكمام مفرطة السعة تصل إلى قريب من أقدامهم وبدلاً من العمائم كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ إلى تحت آذانهم فشاع هذا الزي في جميع يهود المغرب ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدرًا من أيام ابنه أبي عبد الله إلى أن غيره أبو عبد الله المذكور بعد أن توسلوا إليه بكل وسيلة واستشفعوا بكل ما يظنون أن شفاعتهم تنفعهم فأمرهم أبو عبد الله بلباس ثياب صفر وعمائم صفر فهم على هذا الزي إلى وقتنا هذا وهو سنة 621هـ. عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 383.

بها، ويشدّدون الزنانير على أوساطهم ويكون أحد خفي نسائهم أسود والآخر أبيض أو أحمر»[1].

لا شك أن تشدّد ابن سرحان في جوابه الذي يتنافى مع روح الإسلام كانت له دلالاته النفسية وينم عن موقف شخصي تحركه الغيرة والحسد تجاه الحظوة التي نالها بعض اليهود عند أمير المسلمين في مجالسه أواستخدامهم في بلاطه، كما يعكس الجو العام الذي يروج في بعض المدن مثل فاس تجاه سيطرة اليهود على الأنشطة الاقتصادية أو غيرها، واستياء بعض الفقهاء من التغيرات التي أصابت المجتمع، ويبدو أن فقيه فاس القرشي كانت له صلة بابن سرحان الذي سكن فاس مدة قبل استقراره في طنجة، ومن الممكن أن ابن سرحان كان ناقمًا على ما وصل إليه اليهود فحدثه عن الكتاب الذي حمله من المشرق فحاول القرشي أن ينشر أو يسرب كتاب الفصول الجامعة أو بعض ما جاء فيه عن طريق فتوى لابن سرحان، إذ كان هو الوحيد الذي حمل هذا الكتاب من المشرق إلى المغرب كما يؤكّد على ذلك في خطابه بقوله: «إنه لم يخرجه أحد إلى الوجود من بغداد، ولا رواه مغربي ولا أندلسي عن مؤلفه غير أربعة في جملة من رواه من بغداديين، ثلاثة منهم من سكان بغداد بأهاليهم وأنا رابعهم، خرجت به من بغداد في ذي القعدة سنة أربع وتسعين وأربعمائة، فمن ادعاه من الخارجين من بغداد من المغاربة قبلي فقد كذب»[2].

ولكن هذا الكتاب لم يكن معروفًا ولا متداولاً، وربما لم يهتم به الأندلسيون أو المغاربة الذين ذهبوا إلى المشرق في هذه الفترة أو التي بعدها، أو ربما أن هذا الكتاب لم يكن ليغير شيئًا من التعايش بين المسلمين وغيرهم، وربما لتركيبة المجتمع في الأندلس على الخصوص كان لها دور في ذلك، بل إن بعض اليهود ألف في الدفاع عن دينهم مثل يهودا اللاوي الذي صنف كتاب «الحجة والدليل في نصرة الدين الذليل».

(1) الونشريسي: م. س، والصفحة.

(2) لا شك أنه يقصد القاضي أبا بكر بن العربي الإشبيلي الذي وصل إلى المشرق نفس السنة التي وصل فيها ابن سرحان وعاد في نفس العام ومن المصادفات الغريبة أنهما ولدا في نفس السنة وتوفيا في نفس العام، لكن شتان بين حظ الاثنين في الإنتاج الفكري والعلمي والشهرة التي حازها ابن العربي.

ولكن من هو ابن قمنيل الذي ثارت حوله النازلة أو السؤال كما أفضل أن أقوله، فأعتقد أنها ليست نازلة ألمت بالمسلمين وتستدعي فتوى وإنما هي حادث عارض، وهذا الحكيم ابن قمنيل كما يذكر في السؤال هو أبو الحسن مَير بن قمنيل[1] من أسرة إشبيلية ميسورة الحال تلقى بها العلم، وارتحل إلى قرطبة فتفقه في الشريعة اليهودية وأخذ الطب عن أطباء بلده من مسلمين ويهود، فبرع فيه واشتهر، فاستدعاه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى مراكش فكسب ثقته وقرّبه إليه، في هذه الفترة جمعت مهنة الطب والاشتغال بعلوم الشريعة اليهودية وعلم المنطق والفلسفة بين مجموعة من العلماء اليهود معظمهم من إشبيلية، وكانوا ينتمون إلى عائلات موسرة، فكان منهم يهودا اللاوي مؤلّف كتاب «الحجة والدليل في نصرة الدين الذليل» أو ما يسمى بـ «الكوزري» Hakuzari، وهذا الكتاب ألفه بالعربية بحروف عبرية، وقد عده اليهود مصدرًا للأخلاق والتشريع واللغة والشعر وعلم الباطن وأسرار التوراة، ووضعه هذا الكتاب في مصاف المفكرين الفلاسفة[2]. وقد توثقت صداقته مع أحد العلماء المشهورين وهو الشاعر ابراهيم بن عزرا الذي انتقل معه إلى عدوة المغرب[3]، كما التحق بهم الطبيب منحم بن الفوال الذي وصفه صاحب «عيون الأنباء» بأنه كان متقدّمًا في صناعة الطب، متصرفًا مع ذلك في علم المنطق وسائر علوم الفلسفة»، وألف كتاب «كنز المقل» على طريقة المسألة والجواب وضمنه قوانين المنطق وأصول الطبيعة. وأما مروان بن جناح فكانت له عناية بصناعة المنطق والتوسع في علم لسان العرب واليهود ومعرفة جيدة بصناعة الطب، وألف كتاب التلخيص الذي ضمنه ترجمة الأدوية المفردة وتحديد المقادير المستعملة في

---

(1) كل ما ذكره ستيرن عن ابن قمنيل أنه كان طبيبًا مشهورًا في بلاط المرابطين اسمه أبو الحسن بن مَيْر بن قمنيل في مقال له بعنوان:

Les vers Finaux en Espagnol dans les Muwassahs Hispano - Hebraiques pp 317, 318 Al Andalus vol. 13.

وقد أمدتني بهذه المقالة الدكتورة Merc'e Comes بجامعة برشلونة فشكرًا لها لأن هذا العدد في حكم المفقود.

(2) د. أحمد شهلان، أبو الوليد بن رشد والفكر اليهودي الوسطوي، رسالة دكتوراة قدمت لكلية الآداب بالرباط سنة 1991، ص 69 ـ 70.

(3) ابن أبي أصيبعة: م. س. ص 3، 81.

صناعة الطب في الأوزان والمكاييل[1]. وكان صديقًا لهؤلاء الجماعة أبو هارون موسى بن عزرا وهو أيضًا ينتمي إلى إحدى العائلات اليهودية الغنية بغرناطة، وقد تلقى تعليمًا متنوعًا، فكان عارفًا بالتوراة والآداب العربية نصًا وتاريخًا، كما كان شديد الاهتمام بالفلسفة اليهودية والعربية مطلعًا على المصادر اليونانية المتداخلة عند الأندلسيين، وصنف كتاب «المحاضرة والمذاكرة» وهو كتاب فريد ألّفه بالعربية وكتبه بأحرف عبرية كعادة علماء اليهود، واهتم بالشعر العبري، إلاّ أنه اتخذ الثقافة العربية أساسًا في تأليفه، إذ تناول الشعر والآداب عامة سواء العربي أو العبري وكان للتاريخ فيه حظ كبير أيضًا. وأهمية هذا الكتاب أنه غني بتراجم أدباء وكتاب لم يترك موضوعًا من موضوعات اللغة والنحو والفلسفة والأخلاق إلا واهتم به[2].

وقد تبادل هؤلاء العلماء القصائد الشعرية الرقيقة والموشحات، فأهدى يهودا اللاوي بعض قصائده إلى ابن قمنيل[3]، ومدح موسى بن عزرا ابن المعلم وأهداه بعض الموشحات، وهو بدوره تبادل الشعر مع يهودا اللاوي. هذه الأسماء من علماء اليهود وغيرهم سكنت مراكش وأغمات وفاس على الخصوص، وبعد وفاة الأمير يوسف بن تاشفين انتقل بعضهم لخدمة ابنه الأمير علي بن يوسف، فكان أبو الحسن مير بن قمنيل ممن حظي عنده وانضم إليه أبو يعقوب سليمان بن المعلم الذي قال عنه ابن سعيد: «أخبرني والدي أنه كان مختصًا بخدمة أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين» وذكر له بعض الأشعار[4]، كما ذكره موسى بن عزرا في كتاب «المحاضرة والمذاكرة» وقال: إنه كان مطلعًا على الفقه اليهودي وكان يتقن السحر والنفاذ إلى المنغلق من الأمور باللغتين العربية والعبرية[5].

عدد هؤلاء العلماء والأطباء والشعراء اليهود الذين خدموا في البلاط المرابطي

---

(1) ابن أبي أصيبعة: ن. م. والصفحة.

(2) انظر رسالة د. أحمد شهلان، ص 93 ـ 98.

(3) انظر S. M Stern في مقاله السابق، ص 317 ـ 318 يهنئه بحظوته وتعيينه طبيبًا في بلاط الأمير علي بن يوسف والأخرى بمناسبة عودته إلى الأندلس.

(4) ابن سعيد: رايات المبرزين، تحقيق د. القاضي، رقم 126، ص 134.

(5) المقامة الثالثة من تكوين:
Stern, S. M. Arabic Poems by Spanish Hebrew Poets, Romanica et Occidental p 248 - 1963.

يميط اللثام عن حقيقة العلاقة بين المرابطين واليهود، وينفي ما اتهم به يوسف بن تاشفين على الخصوص بأنه اضطهد اليهود وقد استمرت حظوة الكثير منهم بعد وفاته عند ابنه الأمير علي بن يوسف، كما يدل على اهتمام هؤلاء الأمراء بأن يجمع بلاطهم هذه النخبة من علماء الإسلام وغيرهم.

لم تقتصر علاقة الأمير علي بن يوسف بهؤلاء العلماء الأطباء الفلاسفة على مهمة التطبيب ووصف العقاقير، بل تعدته إلى المذاكرة والمسامرة في بعض القضايا العلمية والفقهية التي تتعلّق بالدين اليهودي خاصة، والدليل على ذلك تلك الحادثة التي ذكرها الحكيم أبو إبراهيم موريل عن ابن قمنيل إذ قال: «أخبرنا الحكيم أبو الحسن بن قمنيل رحمه الله قال: دخلت على أمير من ملوك المرابطين فوجدت عنده طبيبًا يهوديًا خرج عن بالنا اسمه وهو يفسّر له نشيد الإنشاد على ظاهر لفظه من الغزل فانتهرت ذلك الطبيب وشتمته بحضرة الملك. وقلت للملك: هذا رجل جاهل غبي لا يدري من شريعتنا وعلومها شيئًا، ولم يفهم مقصد سليمان بن داود صلى الله عليهما ومراده بهذا الكتاب، وأن هذا الكتاب عظيم القدر أخرجه بألفاظ ظاهرها غزلية بمبادىء النظر، وإذا تعقبت النظر المستقصى ظهر من تحتها من المعاني الغريبة لا يأبه إليها ولا يتفطن لمكنونها إلاّ الراسخون في العلوم ذوو القرائح الفائقة والحكمة الرائقة، وقررت في نفس الأمير هذا المعنى، وبينت له مقصده وغرضه بهذا الكتاب، وأزلت من نفسه توحشه مما ألقى إليه الطبيب الجاهل الغبي وقلت له: كيف يكون مثل سليمان وداود عليهما السلام ويشغل نفسه بهذا المقصد الدنيء السخيف؟ ونزلت عنده هذا الكتاب في المنزلة العالية التي هو فيها، وعظمت عنده حكمة سليمان عليه السلام»[1].

لا شك أن هذا النص يعدّ من النصوص المهمّة التي تبين العلاقة التي كانت سائدة في بلاط الأمير علي بن يوسف ومدى اهتمامه بمعرفة الكثير عن ديانة اليهود

---

(1) كتاب ظهور الأنوار وانكشاف الأسرار، ص 490، للربي يوسف بن يهودا ابن يعقوب بن عقنين، تحقيق إبراهيم سليمان هلقين ـ القدس.

هذا النص أمدني به الدكتور عبد العزيز شهبر مشكورًا بعد ترجمته، فكان له الفضل في توصلي إلى شخصية ابن قمنيل التي لم نكن نعرف عنها شيئًا.

الذين يعملون في داخل قصره أو في الحاضرة مراكش، ومع أن هذا النص لم يوضح اسم هذا الطبيب الذي وصفه ابن قمنيل بالجاهل بأمور الدين اليهودي، فإننا نلحظ مدى ثقافته العريضة وحسن تصرفه ومدى قربه من أمير المسلمين علي بن يوسف، وثقافة هذا الأمير التي نتعرف عليها من خلال المحيطين به من فلاسفة وفقهاء وأطباء وعلى رأسهم مالك بن وهيب الإشبيلي الفيلسوف الذي قربه إليه وجعله وزيره وجليسه مما أوغر صدر الوزير الطبيب أبي العلاء بن زُهر[1].

لم تقتصر جلسات الأمير علي بن يوسف على المذاكرة في الأديان أو الفلسفة والطب وسماع الموشحات، بل كانت أيضًا للمذاكرة في السحر والتنجيم، وكان أبرز جلسائه في ذلك هو أبو يعقوب بن المعلم فهو علاوة على اطلاعه على الفقه اليهودي كان يتقن السحر والنفاذ إلى المنغلق من الأمور باللغتين العربية والعبرانية، ويبدو أن الأمير علي بن يوسف اهتم بهذا الأمر بعد ظهور المهدي بن تومرت وتأثيره على العامّة من خلال الحيل التي كان يستخدمها في التأثير على أتباعه وادعائه علم الغيب، ولذلك يذكر أنه في آخر أيامه استوزر إسحق بن ينتان بن عمر بن ينتان وكان عمره ثمانية عشر «يتوقد ذكاء وعقلاً وفهمًا»، وقد أعجب به الأمير علي بن يوسف، وأسند إليه النظر في المظالم والشكايا فانتفع به الناس في أمورهم واستطاع أن يحل الكثير من مشاكل المتظلمين، وما جعل الأمير علي يتمسك به أكثر هو ما عرف عنه بالاطلاع على غرائب الأخبار والتكهن بالأحداث يقول ابن عذاري[2]:«وكان في طبعه ومولده مثل كاهن يأتي بغرائب الأخبار»، وقد ذكر له حوادث تدل على ذلك مع علي بن يوسف وابنه تاشفين[3].

ويبدو أنه نتيجة لازدياد عدد اليهود الذين يقومون بالأعمال في مراكش خصوصًا داخل قصر الأمير وامتلاك عدد كبير منهم للثروات خصوصًا في العديد من الحواضر أن ازداد تذمّر الناس واستيائهم بتحريض الفقهاء خصوصًا بعد نجاح دعوة المهدي بن تومرت في زعزعة أمن وسكينة المرابطين وانضمام عدد من القبائل

---

(1) انظر كتابنا أضواء جديدة على المرابطين، موضوع موقف المرابطين من الفلسفة.
(2) ابن عذاري، 4 / 101 ـ 102، الحلل الموشية، ص 84.
(3) ن. م. والصفحات.

إلى دعوته سواء بالدعوة أو القـوة، أن أمـر الأمـير علـي بـن يوسـف اليهـود الـذين يعملون داخل قصوره أو داخل مراكش بعدم سكنى المدينة أو المبيت بها حرصًا على حيـاتهم وأمـوالهم، فسـكن معظمهـم أغمـات هيلانـة أو فـاس. يقـول الإدريسي[1]:«وليس دخولهم في النهار إلاّ لأمور له وخدم تختص به، ومتى عثر على واحد منهم بات فيها استبيح ماله ودمه، فكـانوا ينـافرون المبيـت فيهـا حياطـة علـى أموالهم وأنفسهم». من خلال هذه النصوص القليلة التي تمكنـا مـن الاطـلاع عليهـا يستطيع الباحث أن يكون صورة أقرب إلى الحقيقة في تمتع اليهود بالرعاية والحمايـة من أمراء المرابطين الذين لم يجدوا حرجًا في اسـتخدام النـابهين مـنهم في بلاطهـم أو تكليفهم بالأعمال داخل قصورهم.

ولا شك أن المصادر العربية التي سكتت عن الترجمة لبعض الأسماء اليهودية، مـن الممكـن أن نجـد حولهـا بعـض المعلومـات في المصـادر العبريـة المعاصـرة لهـذه الأحداث، وترجمة هذه المصادر إلى العربية تكون فيه فائدة كبيرة لاستكمال الحقيقة.

* * *

(1) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص 99.

المصادر والمراجع

- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء. بيروت 1956.
- ابن بشكوال: الصلة. الدار المصرية للنشر 1966.
- ابن حزم: طوق الحمامة. ط 3، تحقيق د. الطاهر مكي، القاهرة 1980.
- ابن جلجل: طبقات الأطباء. تحقيق فؤاد السيد، القاهرة 1955.
- ابن الخطيب: الإحاطة. تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة 1973.
- ابن سعيد المغرب. تحقيق د. شوقي ضيف. ط 3، القاهرة 1978.
- ابن سعيد: رايات المبرزين. تحقيق د. القاضي.
- ابن عبدون: رسالة في الحسبة. تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة 1955.
- ابن عبد ربه الحفيد: الاستبصار. تحقيق د. سعيد زغلول، الإسكندرية.
- ابن عذاري: البيان المغرب. جـ 4، الجزء الخاص بالموحدين.
- ابن قزمان: الديوان. تحقيق د. كورينطي.
- ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة. تحقيق د. صبحي الصالح.
- أبو يوسف: كتاب الخراج. نشر قصي محب الدين الخطيب، القاهرة 1396هـ.
- الإدريسي: نزهة المشتاق. بالرم سنة 1972.
- الحميري: الروض المعطار. تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1975.
- الحلل الموشية. د. زكار ومحمد زمامة، الدار البيضاء 1972.
- السرخسي:: شرح السير الكبير. جـ 3 مطبعة حيدر أباد.
- العذري: نصوص عن الأندلس بتحقيق د. عبد العزيز الأهواني مجلة معهد الدرسات العربية بمدريد 1965.
- عبد الله بن بلقين: التبيان. تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة 1955.
- الونشريشي: المعيار. وزارة الأوقاف بالمملكة المغربية.
- حاييم الزعفراني: ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب.
- جارسيا جومي: مع شعراء الأندلس. ترجمة د. الطاهر مكي.
- جوزيف ماكيب: مدنية العرب في الأندلس. ترجمة تقي الدين الهلالي.
- د. عبد العزيز الأهواني: مجلة المعهد المصري عدد 18.
- د. محمد بحر عبد الحميد: اليهود في الأندلس.
- Palancia, Aspects Sociales de l'Espagne Arabe.
- Dozy, Histoire des Musulmans de l'Espagne Tome II.

دور الجبل

في قيام دولة الموحدين

دور الجبل في قيام دولة الموحدين

تختلف الرؤية للجبل تبعاً للرائي[1]، فعالم الجغرافيا يرى فيها تكوينات وطبقات جيولوجية مختلفة الشكل واللون، والمنفعة والزمن المكون لها، وما يحدث من تغير للمناخ والمحاصيل وأنماط ونشاط للسكان من السفح للقمة، بينما يرى فيها عالم الاجتماع والأنثروبولوجي مجالاً لدراسة موروثات وعناصر سكان وعادات وتقاليد ولهجات. والصوفي يرى في الجبل مجالاً للتأمل في عظمة الخالق، ومكاناً للتعبد والبعد عما يفسد عليه نسكه وزهده، وآخرون يرون في الجبل مأوى الجن والعفاريت، وأصحاب المطامع والخارجون على السلطة يكون الجبل بالنسبة لهم الحصن والمأوى لقطع الطريق على السابلة وتدويخ الحكومات ويقال في المثل «حصني ولا من يقيسني. أو رجل في الجبل ولا رجل في الكبل».

وتختلف رؤية الشاعر للجبل من شاعر لآخر، فجبال درن تعكس في نفس المعتمد بن عباد[2] الحزن والمرض وتدفع للكآبة وسوء الحال فيخاطبها:

هـذي جبـال درن مليئـة بالـدرن
يـا ليـتني لم أرهـا وليتهـا لم تـرني

بينما يمثل الجبل لابن خفاجة[3] الطموح والسمو والاعتراض والوقار الصامت وكأنه يروي له ما مر به من مشاهد وأحداث، فهو شخص آخر إزاء الشاعر يحدثه ويحاوره فيقول:

---

(1) ذكر الجبل في القرآن الكريم عدة مرات لبيان ما للجبل من أهمية للبشرية فمنها ما يبين تركيبة الجبل الجيولوجية، وأهمية الجبل في الأمطار والزراعة وعيش الناس، فيقول سبحانه: ﴿ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود﴾ [فاطر: 27] ﴿ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا﴾ [لقمان: 10]، ﴿وينزل من السماء من جبال فيها برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء﴾ [النور: 43]، ﴿تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتاً﴾ [الأعراف: 74]، ﴿والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ [النازعات: 32]، ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين﴾ [الأنبياء: 79]، ﴿وإن مكرهم لتزول منه الجبال﴾ [إبراهيم: 46]، ﴿قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ [هود: 43].

(2) ديوان المعتمد بن عباد. تحقيق د. رضا السويسي ص 287 رقم 150.

(3) ديوان ابن خفاجة ص 216 رقم 164.

أصَخْتُ إليه وهو أخرس صـامِتٌ فحـدثني ليـلُ السُّرى بالعجائِـب
وقال: ألاَ كَمْ كنـتُ مَلْجـأ فاتِـكٍ ومـــوطنَ أوّاهٍ تَبَتُّــلِ تَائــبِ
وكم مَـرَّ بي من مُـدْلَجٍ ومُـؤَوِّبٍ وقـال بِظلّـي مــن مَطـي ورَاكـبِ
فما كان إلا أن طوتْهُم يدُ الـرَّدَى وطارت بهم ريحُ النوى والنوائبِ
فـأسمعني مـن وعظـه كُـلَّ عـبرة يترجمهـا عنـه لسـان التجـاربِ

ولا يختلف المؤرخ في رؤياه للجبل كثيراً عن قصيدة ابن خفاجة التي نظمها في الجبل، فهو يحاول استنطاق تاريخ سكانه وتتبع أحداث مرت عبر مضايق وكهوف وحصون، ويجتهد في ربط العلاقات بين الجبل والسهل، والسلطة من خلال تحركات القبال، وثورات واعتصام من تحصن به.

وعندما أتناول موضع الجبل في قيام دولة الموحدين لا أدعي أنني سآتي بجديد كل الجدة، أو قديم في قراءة جديدة، ولكنه تذكر لأحداث تتكرر في بلد ما، في عصر ما، فالجبل شكل أهمية كبيرة في استغلال الجبال في استراتيجية الموحدين الدعائية والعسكرية، خصوصاً إيجليز وتينمل، فقد شكلا مرحلتين مهمتين في تاريخ الدعوة الموحدية. فدعوة ابن تومرت في جبل إيجليز استمرت ثلاث سنوات، وفي تينمل تسع سنوات، في كل منها كانت دعوة ابن تومرت تتخذ أسلوباً خاصاً في التعامل مع القبائل القاطنة في هذه الجبال، وفي التعامل مع الجيوش المرابطية.

فالحفاوة التي قوبل بها ابن تومرت من الشباب وبعض الفقهاء البسطاء قوت من عزيمته، ولعله أصبح مقتنعاً بأن أناساً كثيرين في انتظار دعوته واتباعه، ويحتمل أن يكون خيل إليه أنه من الأصوب الاعتماد على قبائل مصمودة في جبال الأطلس. إلا أنه كان عليه قبل القيام بأي عمل أن يستكشف مشاعر هذه القبائل، لذلك توجه إلى جبال الأطلس عندما شعر بأنه لم يعد بمأمن في مراكش، لكنه خلاف ما توقع إذ لم ينضم إليه إلا عدد قليل، فأدرك أن الوقت لم يحن بعد، فاستقر في مسقط رأسه في جبال إيجليز وأخذ في إيفاد الرسل إلى قبائل المصامدة لتحريضهم والإعداد لما اختمر في ذهنه وهو إسقاط دولة المرابطين.

فمرحلة إيجليز ممكن أن نطلق عليها جوازاً مرحلة الدعوة واستدراج وجس نبض لقوات المرابطين ومعرفة نقاط ضعفهم. وتبدأ هذه المرحلة من خروجه من

مراكش وأغمات إلى جبال المصامدة حتى نزوله في إيجليز أو إيجلى من بلاد هرغة بلده وموطن قومه وعشيرته. نزل ابن تومرت في مكان منيع لا يصل إليه أحد إلا من طريق لا يسلكها إلا الراكب بعد الراكب، وتدافع عنه أقل عصبة من الناس. وهناك توافد عليه المصامدة من كل قبيلة، فكثر صحبه وأتباعه، فكان يدعوهم إلى التوحيد وإلى قتال المرابطين الذين سماهم بالمجسمين، وعكف على تدريس العلم، واهتم بأن يشرح لأنصاره وتلاميذه ما قيل عن المهدي المنتظر والإمام المعصوم، وما ورد فيها من الأحاديث والأقوال المأثورة، ويبث دعاته خاصة بين القبائل يمهدون لتلك الدعوة، ويبشرون بها، وبقرب ظهور الإمام المعصوم.

عندما شعر ابن تومرت بأن دعوته قد آتت أكلها وأن قبائل الجبل أسلمت له القياد، واستوثق من تأثيره عليهم وتأكد من حماية قبيلته، ومنعة موضعه، وأضحى الميدان ممهداً للعمل، أعلن في خطبة قصيرة أوصاف المهدي والتي تنطبق عليه، وأخبرهم بأن هذا هو ميقاته، وجلس تحت شجرة الخروب التي ارتبط بها في كل مكان يحل به، فهرع إليه أصحابه العشرة الملازمين له، وبالطبع كان أول من بادر إليه صنيعته وتلميذه المخلص عبد المؤمن بن علي، الذي أعلن أن هذه الأوصاف التي أشار إليها ابن تومرت لا تنطبق إلا عليه، وبايعوه على أنه المهدي المنتظر والإمام المعصوم في شهر رمضان سنة 515هـ[1].

وبذلك دخلت الدعوة في طور جديد أكثر تحدياً للمرابطين، باستعمال السلاح العسكري، والسلاح الدعائي للتشويش وإثارة الشائعات والبلبلة ضد المرابطين، وكان هذا السلاح من أقوى أسلحة المهدي وأكثرها فعالية، وأخذ يغذي اتهام المرابطين بالخروج عن الدين واتهامهم بالتجسيم.

انتقل ابن تومرت بعد ثلاث سنوات من إقامته بإيجليز إلى جبل تينمل ليكون في مكان أكثر منعة من الناحية الجغرافية والبشرية خصوصاً بعد أن أرسل أهل تينمل برسلهم إليه يعلمونه بطاعتهم وطاعة هزميرة الجبل وأن مجيئه وسكناه بينهم أصلح له

(1) البيذق. أخبار المهدي ص 63، ابن القطان نظم الجمان ص 76، الحلل الموشية ص 100، ابن أبي زرع: روض القرطاس ص 173، ابن خلكان، وفيات الأعيان 5 / 45، المراكشي: المعجب ص 254.

وأمنع، وأقرب لبث دعوته، وتسامع الناس به، ويصف ابن اليسع[1] تينمل بقوله: «ولا أعلم مدينة أحصن ولا أمنع منها، إذ أنها بين جبلين لا يدخلها الفارس إلا من شرقيها وغربيها، فأما غربيها فطريق أوسع ما به ما يمشي عليه الفارس وحده، وأضيقه ما ينزل عن فرسه خوفاً من سقوطه لأن الطريق مصنوعة من الجبل تحت راكبها حافات، وفيها مواضع مصنوعة بالخشب إذا أزيلت منها خشبة لم يمر عليها أحد أو انقطع الدرب، ومسافاتها على هذه الصفة نحو من مسيرة يوم وكذلك من شرقيها وهو طريق مراكش على صفة الغرب»[2].

كانت بلاغة ابن تومرت وقدرته على الإقناع، فضلاً على أنه خطيب مؤثر استخدم اللغة العربية والبربرية معاً أثارت وأثرت في نفوس مستمعيه من البربر البسطاء، وفعل فيهم فعل السحر، إلا أن هذه القدرة في التأثير والإقناع لم تكن وحدها التي لقيت قبولاً لدى القبائل، إذ أن مناوأته للمرابطين واتهامهم بالتجسيم وتكفيرهم، ودعوته لنكث بيعتهم والخروج عليهم، وإطماع القبائل الجبلية في غنائمهم، لقيت استجابة سريعة بين قبائل الجبل المصامدة، خصوصاً ما عرف عن العداء التقليدي بين مصمودة وصنهاجة بسبب الصراع الدائم على البسائط أو الأراضي السهلية[3].

لم يدع ابن تومرت إلى دعوته فحسب، بل حاول أن ينظم جماعة جديدة في تينمل وما حولها، إذ أن مجتمع البربر في جبال الأطلس الأعلى كان منقسماً إلى قبائل صغيرة تقوم بين الواحدة والأخرى خصومات قديمة مستعصية، فلجأ ابن تومرت إلى دمج القبائل المختلفة والتي كان يصعب اتحادها في تنظيم يجمعها دون أن يحتج أحد لأنه الإمام المعصوم، ولا يعني ذلك أنه قضى على القبلية، بل حاول التقليص من تأثير المجموعات التقليدية (آيت أربعين) بأن أقام فوقها أشكالاً تنظيمية أخرى تنسجم في بعض نواحيها مع الأنماط البربرية حتى تستوعبه داخل هذه المجموعات القبلية،

---

(1) ابن القطان، م. س. ص 95، الحلل الموشية: ص 113، ابن الخطيب: رقم الحلل ص 213.
(2) انظر كتابنا أضواء جديدة على المرابطين ص 26.
(3) انظر وصية الأمير يوسف بن تاشفين لابنه الأمير علي الحلل الموشية ص 60. وانظر كتابنا دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا ص 130، 131.

وقصد ابن تومرت بهذا النظام التخفيف من حدة الخصومات التقليدية، وفرض التعاون بين الأفراد الوافدين من القبائل المختلفة، وهم أفراد ما كانوا ليعملوا معاً حتى ذلك الوقت، فطبقة خمسين تضم خمسين عضواً يمثلون القبائل المؤسسة لحركة الموحدين، أو بعبارة أخرى القبائل التي ساندت ابن تومرت بعد استقراره بتينمل. وبذلك نجح ابن تومرت في أن يقيم في هذا المجتمع الجبلي ما يمكن تسميته بالنظام الجديد، الذي بقى بعد وفاته وإن طاله بعض التغيير في آخر عهد عبد المؤمن.

ومع أن قبائل تينمل أكرموا ابن تومرت وبايعوه وأنزلوه مدينتهم، إلا أنه كان يتوجس منهم ويشك فيهم لكثرتهم ومنعة بلادهم، كما أنه استحسن الإقامة بتينمل لحصانتها ومنعتها. فتحايل على أهلها حتى استطاع أن ينزع سلاحهم ويفتك بهم(1)، ورأى قبل البدء بالإعداد لمعركة حاسمة مع المرابطين أن يستوثق من ولاء أنصاره، فأمر بأن ينادي في الجبل بدعوة الناس كافة وندب البشير لتمييز الناس، فكان يخرج قوماً عن يمينه ويسميهم أهل الجنة، ويخرج آخرين عن يساره ويسميهم أهل النار، وهم الذين يشك في ولائهم، وفي اعتقادهم بأنه هو المهدي، وبلغ من تأثيره وبطشه أن زرع الخوف في نفوس القبائل بالتجسس عليهم. ويذكر ابن القطان «أن البشير كان يطلق أهل اليسار وهم يعلمون أن ليس لهم إلا القتل فلا يفر منهم أحد، وكان إذا اجتمع منهم كثير قتلهم قراباتهم، وقتل الأب ابنه، والابن أباه، والأخ أخاه»(2). ولم يذكر لنا ما هو المقياس للولاء أو المروق في هذا التمييز، ولكنه كما ذكر انتهى بسحق المنافقين والمثبطين من صفوف الموحدين، وأشار البيدق أن عملية القتل الجماعي هذه استمرت أربعين يوماً(3).

لا شك أن ابن تومرت قد اتبع أسلوباً بوليسياً، وإرهاباً فكرياً بنشر جواسيسه بين القبائل ينقلون إليه الأخبار وما يروج من أقوال بينهم، ففي كتاب أخبار القيروان أن ابن تومرت جمع مشايخ القبائل ووعظهم وقال لهم: لا يصلح دينكم إلا بالنهي عن المنكر، فابحثوا عن كل مفسد فانهوه، فإن ينتهي فاكتبوا إلي أسماءهم ففعلوا، ثم

---

(1) الحلل الموشية ص 113.

(2) ابن القطان ص 104، الذهبي سير أعلام النبلاء جـ 1 / 544.

(3) وعن التمييز انظر البيدق: أخبار المهدي، ابن القطان، الحلل الموشية ـ ابن أبي زرع: روض القرطاس.

هدد ثانياً، فأخذ ما تكرر من الأسماء فأفردها، ثم جمع القبائل وحضهم على أن لا يغيب منهم أحد، ودفع تلك الأسماء إلى البشير، فتأملها، ثم عرضهم رجلاً رجلاً، فمن وجد اسمه رده إلى الشمال، ومن لم يجده بعثه إلى اليمين ثم أمر بتكتيف أهل الشمال وقال لقراباتهم: «هؤلاء أشقياء من أهل النار، فلتقتل كل قبيلة أشقياءها، فقتلوهم فكانت واقعة عجيبة، وقال: بهذا الفعل صح دينكم وقوى أمركم»[1].

قرر ابن تومرت مهاجمة مراكش في ربيع عام 525هـ / 1130م وكان قبل ذلك يكتفي بصد هجمات المرابطين التي لم تتخلل مسافة بعيدة داخل جبال الأطلس، ويرجع ذلك لطبيعة تكوين الجيش المرابطي الذي يتكون معظمه من الفرسان، ولما كانت أودية جبال الأطلس في معظمها ضيقة وغير مستوية دائماً، فإنها لم تكن صالحة لمناورات الفرسان، وكان من السهل سد الشعاب في الجبل، وحتى لو بقيت مفتوحة فإن ذلك لم يكن يسمح إلا بالتقدم البطيء مما يعرضهم لمزيد من الخسائر، وقد جرت محاولات لدخول الجبل غير أنها انتهت بالفشل، فتخلوا عنها بعد أن تكبدوا خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد، وحاول المرابطون بعد ذلك بناء الحصون عند مداخل الأودية الرئيسية لجبال الأطلس في الشمال[2] وأشهرها في تسغيموت[3].

كان لا بد لابن تومرت من القيام بعمل لفك هذا الحصار، إذ أن التجارة بين أهل الجبال وبين قبائل السهول كانت تشكل مصدراً رئيسياً وأساسياً للحياة الاقتصادية في الجبل ولا يمكن توقفها لزمن طويل، ومن ناحية أخرى خوفاً من تململ القبائل وزيادة المعارضة ضده التي لم يقض عليها تماماً في عملية التمييز، فكان لا بد من عمل شيء لصرف اهتمام القبائل، وليؤكد لأعدائه المرابطين بأنه بلغ من القوة والجرأة ما يجعله قادراً على تقويض ملكهم، وذلك بالخروج بالمعارك من الجبال إلى مشارف العاصمة. وقد استطاع الموحدون بقيادة البشير إحراز بعض الانتصارات مما شجعهم على التقدم نحو العاصمة في 2 جمادى الآخرة سنة 524هـ مايو 1130م،

---

(1) ابن القطان، م. س. ص 103، الذهبي: سير أعلام النبلاء 19 / 544.

(2) انظر هذه الحصون في البيدق أخبار المهدي.

(3) درس هنري باسيه وهنري تيراس تسغيموت في مقالهما: رباطات ومعاقل الموحدين مجلة هسبريس عدد 7 سنة 1927 وتناوله بالدراسة أيضاً شارل ألين وجاك مونيه في مقال بعنوان: أبحاث أثرية عن تسغيموت. هسبريس عدد 38 سنة 1951.

والتقى الجمعان في مكان يسمى البحيرة[1] خارج أسوار مراكش، وقد انتهت هذه المعركة بانتصار المرابطين وهزيمة ساحقة للموحدين والقضاء على معظم الجيش وسقط معظم القادة ومنهم البشير الذي لم يعثر على جثته، فأشاعوا بين المصامدة بأنه رفع إلى السماء، ولكن الحقيقة أن عبد المؤمن بادر بدفنه في مكان سقوطه، ولكن ابن تومرت تعود استثمار الأحداث لصالحه واستغلال سذاجة وإيمان هذه القبائل بمثل هذه الأمور[2].

بادر ابن تومرت بالتقليل من أهمية الهزيمة، وركز على الثقة في عبد المؤمن، وتقوية الأمل ونفخ الأطماع في نفسه، والتأكيد على قرب النصر، غير أن ابن تومرت ما لبث أن مات بعد هذه الهزيمة بقليل.

لبثت المعارك تضطرم بين المرابطين والموحدين بعد وفاة المهدي أكثر من عشر سنوات منحصرة في جبال الأطلس جنوبي مراكش، وكان النصر حليف الموحدين في معظمها، وكانت خطة عبد المؤمن استمرار استدراج المرابطين لمعارك تكون في ممرات جبلية حتى يسهل عليه استنزاف قوى الجيش المرابطي وإمكاناتهم. يقول ابن عذاري[3]: «كان الموحدون يمشون في الجبال المانعة، حيث الأرزاق الواسعة، وكان تاشفين ينزل البسائط بعساكره. فما يجد من البرابر من يداخله، ولا من يستعين به فيواصله».

وسار عبد المؤمن ببطء ومنهجية في خطته التي يتجنب فيها ملاقاة المرابطين في ساحة القتال، ووطد سلطته في سائر جبال المغرب سلسلة بعد أخرى، مبتدأ بالأطلس الكبير ثم المتوسط ثم جبال الريف، وأخيراً السلسلة الجبلية الواقعة جنوبي تلمسان[4].

وقلما ترك المرابطون السهل، بل قصروا نشاطهم في معظم الوقت على مطاردة الجيش الموحدي مع بقائهم على مقربة منه للنزال منتظرين بصبر أن يدخل

---

(1) البيذق: م. س. ص 70 ـ 80.

(2) الحلل الموشية ص 115، 116.

(3) ابن عذاري م. س. ص 16.

(4) ن. م. ص 18.

عبد المؤمن متهوراً ميداناً مكشوفاً، فيعرض بذلك نفسه للمهاجمة من قبل فرسان المرابطين. ويبدو أن المرابطين لم يدركوا أن الوقت في غير صالحهم في أثناء تحرك عبد المؤمن في الجبال، إذ استطاع كسب الأنصار، وتجنيد المحاربين لخدمة قضيته، واستطاع أن ينجح عملياً في شطر أراضي المرابطين إلى شطرين من ناحية تازا، وأن يقيم حول ناصية مراكش شبه كماشة من سلسلتي جبال الريف والأطلس بعد أن تكاثرت جموعه، وفي المنطقة القريبة من تلمسان قرر عبد المؤمن الشروع في معركة حاسمة في البسائط الواقعة بين تلمسان ووهران بعد حرب نفسية زعزعت ثقة المرابطين وقضت على الروح المعنوية للجيش المرابطي وكانت النتيجة انتصار الموحدين ومقتل الأمير تاشفين بن علي عند محاولة هروبه من الحصن في عام 539هـ / 1145م[1]. ثم اتجه عبد المؤمن بعد ذلك إلى بسائط المغرب الأقصى ليخضع فاس ثم مراكش، وبعد حصار طويل يقرب من العام سقطت العاصمة مراكش واستبيحت المدينة وأعلن عبد المؤمن الخلافة الموحدية في ربيع سنة 541هـ / 1147م[2].

لكن الأمور لم تستقر لعبد المؤمن، إذ انتشرت الثورات في جميع أنحاء المغرب تقريباً، تزعمها ثوار تشبه بعضهم بحركة ابن تومرت بإدعاء المهدوية وثارت قبائل موالية للمرابطين منها قبائل مصمودية وصنهاجية، كانت منها قبائل تادلا وبرغواطة ودكالة وغمارة وغيرها، وقد واجه عبد المؤمن هذه الثورات بالشدة والقسوة حتى نجح في إخمادها، وانتهز فرصة وقوع حادث قتل في مكناسة الفحامين والذي أشار إليه البيدق بغموض، وشرع في حملة تطهير واسعة النطاق بين القبائل التي كانت ثارت لتوها وحتى بين بعض قبائل الموحدين التي شك في إخلاصها، وسمى البيرق حملة التطهير هذه بالاعتراف وأدت إلى مقتل 32780 شخصاً، وبلغت في وحشيتها عملية التمييز التي أجراها ابن تومرت قبل شروعه في مهاجمة مراكش.

ومن الملاحظ أن هذه الثورات لم تشمل قبائل السهول فقط، بل قبائل الجبال، وحتى بعد هذه المجزرة لم تستكن بعض القبائل لعبد المؤمن فاضطر إلى إجلاء هذه القبائل عن مواطنها وإنزال قبائل بني هلال وأثبج وسليم العربية مكانها، كما حدث

(1) البيان المغرب الجزء الخاص بالموحدين ص 21.
(2) ن. م. ص 26: 28، الحلل الموشية ص 137، 118.

في برغواطة في سهول تامسنا (الشاوية فيما بعد) وفي منطقة داي بتادلا. واستمرت مراقبة المناطق من طرف الموحدين بقسوة وشدة، يقول صاحب الاستبصار[1]: «والأمر العزيز أدام الله دوامه ملتفت إليه محتاط عليه».

من خلال هذا البحث أو هذه القراءة هناك أحداث يلفها الغموض تستدعي مزيد البحث: منها حادثة قتل مكناسة للفحامين التابعين للموحدين، وحادثة إجلاء داي بعد ثورة عتاب. الذي نجهل عنه كل شيء، واستخدام الموحدين للروم وإسكانهم في تاكرارت تادلا في آخر عهد عبد المؤمن.

* * *

(1) الاستبصار ص 200.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ديوان المعتمد بن عباد. تحقيق د. رضا السويسي.
- ديوان ابن خفاجة. تحقيق د. مصطفى غازي، الإسكندرية 1960.
- البيدق. أخبار المهدي، الرباط 1971.
- ابن القطان: نظم الجمان. تحقيق د. محمود مكي.
- الحلل الموشية. تحقيق د. زكار ومحمد زمامة.
- ابن أبي زرع: روض القرطاس، الرباط 1973.
- ابن خلكان: وفيات الأعيان. تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1968.
- عبد الواحد المراكشي: المعجب. تحقيق سعيد العريان، القاهرة 1949.
- أضواء جديدة على المرابطين. دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988.
- دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا. دار الغرب، بيروت 1988.
- الذهبي: سير أعلام النبلاء. تحقيق شعيب الأرناؤوط. بيروت.
- مجلة هسبريس، عدد 7 سنة 1927، عدد 38 سنة 1951.
- ابن عذاري: البيان المغرب. الجزء الخاص بالموحدين.
- الاستبصار: تحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية 1958.

❊ ❊ ❊

رباط الفتح وسلا

على عهد الموحدين

رباط الفتح وسلا على عهد الموحدين

بدأت علاقة الموحدين بسلا والرباط عندما نزلها المهدي بن تومرت سنة 510هـ صحبة عبد المؤمن بن علي، وعبد الله الونشريسي المكنى بالبشير، وعبدالواحد الشرقي، وأبو بكر الصنهاجي المعرف بالبيدق. وقد نزلوا في ضيافة الفقيه ابن عشرة أحد وجهاء مدينة سلا، ولا نعرف المدة التي أقامها المهدي بدار بني عشرة فالبيدق يذكر أنه أقام بها أياماً عديدة[1]. وكان يتردد عليه في هذه الفترة بعض أهل سلا للأخذ عنه منهم الشبلير، ومحمد بن الخير الوقاصي، والسلطان بن قيلو والقاضي حسون بن عشرة. ومما لا شك فيه أن ابن تومرت أثناء إقامته بسلا كان يتجول بها للتعرف على جغرافيتها ومداخلها ومخارجها، ولاحظ الرباط المقام في مواجهتها، وقدر بذكائه أهمية موقعها. لذلك يقال إنه هو الذي أوعز إلى الموحدين بناء مدينة تقابل سلا في مكان هذا الرباط. يقول المراكشي إن المهدي قال لهم: «تبنون مدينة عظيمة على ساحل البحر، ثم يضطرب أمركم، وتنتقض عليكم البلاد حتى ما يبقى بأيديكم إلا هذه المدينة، ثم يفتح الله عليكم ويجمع كلمتكم ويعود أمركم كما كان»[2] ويضيف ابن صاحب الصلاة «أن أهل الأثر كانوا يقولون في ذلك التاريخ سيكون في هذا الموضع مدينة عظيمة لخليفة»[3]. ولا شك إنه إذا صحت هذه الأقوال التي روج لها مؤرخو الموحدين عن المهدي بن تومرت فإنها تدل على عقلية هذا الرجل الذي كان يستشرف الأحداث من خلال ملاحظته الذكية وأسلوبه الإيحائي لمعاونيه.

لهذا كانت سلا ورباطها الهدف لعبد المؤمن بعد استيلائه على مدينة فاس سنة 540هـ لأهميتها الاستراتيجية، فهي المجاز إلى الأندلس، ومحطة لمن يذهب إلى سبتة، أو فاس، أو مراكش، فتوجه إليها في أوائل شهر ذي الحجة سنة 540 هـ وحاصرها، فامتنع أهلها وقاوموه وطال أمد الحصار فأرسل في أثناء ذلك أبا حفص عمر إلى برغواطة فاستولى على شالة عاصمتهم، واستولى على غنائم كثيرة ونعمًا عديدة

---

(1) البيذق، أخبار المهدي ص 26.

(2)عبد الواحد المراكشي، المعجب ص 359.

(3) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة ص 446.

وزعت على الموحدين[1].

وعندما طال الحصار تحايل عبد المؤمن للدخول إليها، خصوصًا بعد أن اتصل به رجل من أهلها يسمى يبورك ومعه ولداه محمد وعلي[2] وعرضوا عليه مساعدته في دخول المدينة ليلاً وطمعوه في ذلك، وانتهز عبد المؤمن فرصة انحسار الماء عن الوادي وأمر جنوده بالعبور ووضعوا السلالم وصعدوا بها على السور، وقتلوا الحراس الموجودين عليه، وتسللوا إلى المدينة، فلما أحس أهلها بدخول الموحدين هرب بعضهم إلى حلق الوادي، لكن المد كان قد ارتفع فرجع الماء عليهم وأغرقهم. أمن عبد المؤمن أهل سلا وضم القصبة في الرباط التي بناها الأمير تاشفين بن علي وكان دخوله سلا في السابع من ذي الحجة، وقد نزل بدار بني عشرة ورتب أحوال المدينة وولى عليها عبد الواحد الشرقي أحد أصحاب المهدي وعَيَّد الأضحى بها ثم تركها لمنازلة مراكش فوصل في الحادي عشر من نفس الشهر، أي أنه لم يمكث بسلا سوى أربعة أيام لأنه كان في عجلة من أمره لفتح عاصمة المرابطين.

ولكن الأمور في سلا وقصبة الرباط لم تستمر على طاعة الموحدين إذ قام أحد أبنائها وهو محمد بن عبد الله بن هود الذي كان يعمل قصارًا أو خياطًا على ضفة بحر سلا، وادعى الهداية وتسمى بالهادي في غرة شوال سنة 541هـ أي في نفس الشهر الذي سقطت فيه مراكش في يد الموحدين. فالتف حول الناس وكثر أتباعه، فانتقل إلى رباط ماسة حيث عرف هناك بالماسي، وتشجع أهل سلا فقتلوا عامل الموحدين عبدالواحد الشرقي، وقدموا عليهم والد ابن هود وكان يعمل بالدلالة في سوق سلا، وتزايد أتباع الماسي وكثر مؤيدوه من قبائل فنزارة ولم يبق تحت طاعة الموحدين إلا مراكش وفاس، ولكن الغريب في أمر أهل سلا تقديمهم لعبدالله بن هود الدلال متخطين وجهاء سلا خاصة الفقيه القاضي أبا العباس بن عشرة أو أحد أبنائه، ولكن يبدو أن أسرة بني عشرة تحاشت الخوض في هذه الفتنة، خصوصاً أن المهدي بن تومرت نزل عندهم، وكذلك عبدالمؤمن بن علي بعد فتح المدينة، فربما تفادوا الانجرار إلى هذه الثورة التي لا يتزعمها رجل له عصبية أو حيثية، كما أنهم أدركوا بحنكتهم أن هذا هو زمن الموحدين فاعتزلت ما حدث بسلا، وقد استطاع

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب 3 / 25، 26.

(2) ن. م.

الموحدون القضاء على الماسي وقتله بعد جهد كبير(1).

انشغل عبد المؤمن بتمهيد البلاد وإعادة القبائل والمدن التي خرجت عن طاعة الموحدين، فلم يتحرك إلى سلا إلا في سنة 545هـ(2) وفي هذه الزيارة قرر أن تكون للموحدين مدينة خاصة بهم ذات طابع عسكري لنزولهم ومراقبة سلا وقريباً من أخبار الأندلس(3). دخل سلا ونزل كالعادة بدار حلفائه بني عشرة، جمع المهندسين والفعلة وأمر أن يحفر أساس المدينة الجديدة، التي اختار لها الرباط الذي به قصبة الأمير تاشفين بن علي، وكان يقع على فم البحر الداخل إلى سلا، واختار لها اسم المهدية تيمناً باسم المهدي واقتداء بمهدية بني عبيد بإفريقية التي يحيط بها البحر(4).

كان بقصبة تاشفين برج للسكن ينزل به ويحيط بالقصبة أراض زراعية شاسعة يمتلكها المرابطون وبعض الأسر الأندلسية التي نزلت سلا مثل أسرة بني عشرة وبني وجاد من أهل إشبيلية، فاستولى عليها عبد المؤمن أو اشتراها وأقام بمحلاته المؤدية إلى عين غبولة لمراقبة العمل، وأمر المهندسين والفعلة بإيصال الماء للقصبة من عين غبولة، فأجروا الماء من هذه العين في سرب تحت الأرض إلى القصبة، ودام العمل عدة شهور حتى وصل الماء إليها، وصنعت السقايات لشرب الناس والخيل وسقي الأرض من حواليها، فصارت البحائر والجنات والمغروسات، وأمر الناس بسكناها، فشيدت الدور وأقيمت الأسواق، كما نصب جسراً ما بين سلا والمهدية المدينة الجديدة لعبور الناس(5). وكل هذه الإنجازات الهامة تمت في بضعة شهور قدرها البيدق بخمسة شهور(6)، وهذا يدل على الإدارة الحازمة والإمكانات المتوفرة التي تأسست بها مدينة المهدية (الرباط).

استدعى عبد المؤمن شيوخ الأندلس الذين دخلوا في طاعته، فوصلوا إلى سلا في السابع والعشرين من ذي الحجة من نفس العام سنة 545هـ وهم في نحو خمسمائة

---

(1) عن الماسي انظر الحلل الموشية ص 146، ابن أبي زرع: روض القرطاس ص 190، ابن عذاري: البيان المغرب 3 / 30، 32، البيدق: أخبار المهدي ص 67، 68، 190.

(2) البيذق، م. س. ص 73.

(3) ابن عذاري: م. س. ص 43.

(4) ن م. ص 43، البيدق م. س. ص 73، ابن صاحب الصلاة م. س. ص 446، 447.

(5) ابن صاحب الصلاة، ن. م. ص 449.

(6) البيذق: م. س. ص 78.

فارس من الشيوخ والأجناد والقواد ومن تبعهم من رجالهم[1]، فكان هذا أول وفد رسمي يستقبله عبد المؤمن في سلا والمدينة الجديدة.

توالت زيارات عبد المؤمن للمهدية (رباط الفتح) فكان أكثر الخلفاء الموحدين نزولاً بها إذ بلغت زياراته لها ثمان مرات، ومن الملاحظ أن عبد المؤمن كان يتخذ فيها القرارات الخطيرة، فقد سبق أن استقبل بها عددًا من شيوخ الأندلس المنتزين بها وأوعز لهم بالتخلي عن زملائهم والانضواء تحت طاعة الموحدين، ونزلها سنة 546هـ مظهرًا غزو الأندلس ولكنه كان يضمر الاتجاه إلى بجاية بني حماد.

ونزلها في سنة 548 هـ للاجتماع بشيوخ الموحدين والقبائل لأخذ البيعة لابنه محمد وتوزيع الولايات والمناصب على أولاده السادات وبعض شيوخ الموحّدين الذين آزروه في أخذ البيعة لابنه[2]، وفي زيارته السادسة التي تمت في شوال سنة 553هـ إلى صفر 554هـ خطط لغزو إفريقية[3].

وتميزت زيارة عبد المؤمن سنة 557هـ وهي السابعة بالإعداد للعبور للأندلس فأعطى الأوامر بإنشاء القطائع في سواحل العدوة والأندلس، فصنع منها مائتي قطعة، أعد منها مائة وعشرين قطعة في مرسى المعمورة بالقرب من سلا.

وأمر الرؤساء بعمارتها والقيام بحمايتها، وتجهيز الجيش بما يلزمه من قمح وشعير وعلوفات وغيرها، بنية الاستعداد للجواز إلى الأندلس في العام الذي يليه أي من عام 558هـ. وكان عبد المؤمن يخرج إليها من رباط الفتح لتفقد الاستعدادات، وألزم القبائل والجهات المختلفة بإرسال المؤن من القمح والشعير والعلوفات فتوافرت بكميات هائلة شاهدها ابن صاحب الصلاة[4] فقال: «ما عاينته مكدساً كالجبال بما لم يتقدم لملك قبله، ولا سمعنا به في جيل من الأجيال». (ولكن عبد المؤمن لم يتيسر له أن يستفيد من كل هذه الاستعدادات بسبب وفاته).

أما الزيارة الأخيرة وهي الثامنة سنة 558هـ لعبد المؤمن إلى رباط الفتح. فحدثت بها كثير من الأحداث المهمة، إذ أصيب بمرض اشتد عليه فأمر بإسقاط ابنه محمد ولي عهده من الخطبة، وأوصى ابنه السيد أبا حفص عمر والشيخ أبا حفص

---

(1) ابن عذاري: م. س. ص 44.

(2) ابن عذاري: ن. م. س 49، 61. ابن أبي زرع: م. س. ص 192.

(3) ابن صاحب الصلاة م. س. ص ص 173، 174، ابن عذاري: م. س ص 61.

(4) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 213، ابن عذاري م. س. ص 76.

عمر بن يحيى بتقديم ابنه أبي يعقوب يوسف بدل ابنه محمد ولي العهد السابق[1].

كانت وفاة عبد المؤمن ليلة الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة 558 أخطر حادث يواجه الموحدين بعيدًا عن عاصمة ملكهم، لكن الشيخ أبا حفص والسيد أبا حفص عمر ابن الخليفة كتما أمر الوفاة وحاولا شغل الناس بالصلاة والدعاء، واشتد الشيخ أبو حفص على الموحدين باختلاف طبقاتهم ومراتبهم بلزوم الصلاة، وضرب بالسياط أهل الفسق والجناة وشغلهم بأنفسهم عن الأحاديث بالخزعبلات، وألزم الحفاظ من الموحدين وغيرهم بقراءة الحزب عند المساء وعند الفراغ من صلاة الصبح، «واشتد عليهم في ملازمة ذلك بأعظم الاشتداد واللزب». وصدرت الأوامر بتأخير العرض الذي كان عبد المؤمن يرغب في القيام به والاحتفال للجواز للأندلس إلى وقت يأذن الله به[2].

وبذلك شغل الجميع بالرحيل وغيره حتى يتدبر الشيخ أبو حفص الأمر لأخذ البيعة لأبي يعقوب يوسف حسب وصية الخليفة عبد المؤمن، فلما تمت تسمى السيد أبو يعقوب يوسف بالأمير وأمر بأخذ الترتيبات للرحيل إلى حضرة مراكش مع أخيه السيد أبي حفص وأشياخ الموحدين، وحمل جثمان الخليفة عبد المؤمن إلى تينمل حيث دفن بجوار قبر المهدي[3].

انشغل الخليفة أبو يعقوب يوسف بأمر الخلافة وامتناع بعض إخوته عن بيعته، ثم أصيب بمرض ألزمه الفراش ما يقرب من عامين، هذه المشاكل منعته من التحرك إلى سلا والرباط (المهدية)، ولكن هذا لا يعني أن رباط الفتح المهدية فقدت أهميتها كمقر وسط، إذ كان السيد أبو حفص عمر ابن الخليفة عبد المؤمن وأخ الخليفة أبو يعقوب يوسف يحلان بها للاجتماع بوفود الأندلس، أو إرسال مبعوثيهم إلى الأندلس أو تلمسان لمحاولة تقريب الأخوة المتباعدين أو الممتنعين عن بيعة أخيهم أبي يعقوب يوسف[4].

كانت حركة الخليفة الثاني أبي يعقوب يوسف من مراكش إلى رباط الفتح

---

(1) ن. م. ص 232.

(2) ابن صاحب الصلاة: ص 232.

(3) الحلل الموشية ص 157، ابن خلدون: العبر 6 / 496، ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 222، ابن عذارى م. س. ص 79.

(4) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص ص 250: 252.

المهدية في أول زيارة له بعد توليه الخلافة في رجب سنة 566هـ وقد أراد أن يكون دخوله إليها في أبهى وأعظم ترتيب واحتفال. وقد حظيت رباط الفتح أثناء إقامة الخليفة بالاهتمام والعناية بعد أن عانت من الإهمال منذ وفاة الخليفة عبد المؤمن، فأمر بإصلاح مجرى الماء الذي جلبه أبوه من عين غبولة الذي فسد جريه وأسن ماؤه وتوقف جريانه إلى البطائح والبحائر فأعيد إلى حالته الأولى بعد حفره وتنقيته، وأضاف إليه بناء صهريج كبير يجتمع فيه الماء ويجري منه إلى السقاية حيث مشرب الناس وخيل العساكر ومواشي القبائل. كما أمر بإقامة جسر جديد بجانب الجسر الذي نصبه أبوه بين سلا والمهدية لمرور الناس عليه بسبب تداعي الجسر القديم وتهدم أجزاء منه، كان الجسر الذي أمر ببنائه أبو يعقوب يوسف أعظم من الجسر الذي أنشأه والده من حيث الأساس الذي استخدم فيه الحجر العادي والجيار الثابت لأمواج البحر، وتم في وقت قصير في غاية الإتقان ووصله بالقوارب والخشب. ويصف صاحب الاستبصار[1] القنطرة بأنها «مركبة على ثلاث وعشرين معدية مدت عليها أوصال الخشب، وصلبت عليها الألواح والفرش الوثيق الذي لا يؤثر فيه الحافر تجوز عليه العساكر والمسافرون، وحولها يتصيد أنواع الأسماك والشابل، ويمتد البحر فترتفع القنطرة ويتغطى الجسر فتعوم عليه المراكب وترسو دونه الأجفان الكبار».

أعاد الخليفة أبو يعقوب يوسف تخطيط مدينة الرباط «المهدية» ورسم حدودها، وجعلها متصلة بالقصبة التي أحدثها الخليفة عبد المؤمن وفي هذه القصبة جامع أمامه صهاريج المياه والقصور، وأُنشئت قيسارية عظيمة وحمامات وفنادق ودور كثيرة وسقايات ومنافع أعدت لورود المحلات عليها في الرحلة إلى مراكش أو المجاز للأندلس.

فإذا علمنا أن إقامة الخليفة أبي يعقوب يوسف في رباط الفتح حوالي الشهر لأدركنا سرعة تنفيذ الأوامر والانضباط في العمل ليلاً ونهاراً، والإمكانات الهائلة المتاحة لتسخير هذا الكم الهائل من العمال والفعلة لإقامة مثل هذه الإصلاحات والمشاريع والمنشآت، حتى صارت من المدن العامرة، يقول ابن صاحب الصلاة: «وأمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين هو الذي حضرها ومهدها وابتدأ بناء أسوارها من

(1) صاحب الاستبصار ص 140.

جهة الجوف والغرب»[1].

رحل الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى الأندلس بعد أن اطمأن على هذه الإنجازات برباط الفتح، فأطال إقامته بالأندلس ما يقرب من الخمس سنوات رتب فيها أمور الموحدين وعين الولاة من السادات إخوته أو أبنائهم ومن شيوخ الموحدين، وفي العودة لم ينزل بسلا وإنما نزل بطنجة واتجه مباشرة إلى عاصمة ملكه مراكش في أول ذي القعدة سنة 571هـ وكان وباء الطاعون قد انتشر فلم يتسن له زيارة الرباط وسلا إلا بعد حوالي ثمان سنوات في الثالث عشر من ذي القعدة سنة 579هـ، فدخلها في موكب عظيم واحتفال مشهود وأقام برباط الفتح (المهدية) حوالي الأسبوعين اجتمع بشيوخ الموحدين وشيوخ العرب والقادة واستشارهم في الحركة إلى إفريقية أو الأندلس بنية الغزو. أجمع الشيوخ والقادة على الغزو في الأندلس، فأنعم عليهم بالهدايا والإنعامات الجزيلة، وعين عددًا من السادة إخوته وعددًا من شيوخ الموحّدين على قيادة القبائل والجيوش، وقد عبرت هذه الجيوش القنطرة ببحر سلا في الثامن والعشرين من ذي القعدة إلى الأندلس[2].

رحل الخليفة أبو يعقوب يوسف بعد أن اطمأن على رحيل الجيش إلى الأندلس وتوجه إلى مكناس وفاس لترتيب أمورها واختبار عماله، وقضاء عيد الأضحى، وقد تحرك في الرابع من المحرم سنة 580هـ بنية الجواز إلى الأندلس عبر سبتة[3].

لم يمكث الخليفة أبو يعقوب يوسف طويلاً في غزو الأندلس، إذ أصابه المرض وقيل أصابه سهم في خبائه فمرض ومات في الثامن عشر من ربيع الآخر من نفس العام. وقد كتم خبر وفاته حتى تتم البيعة لابنه أبي يوسف يعقوب، وقد تمت البيعة له من شيوخ الموحدين والأندلس، وجهز الخليفة المتوفى ووضع في تابوت صحب الخليفة الجديد في السابع من جمادى الآخرة إلى مدينة رباط الفتح.

أقيمت مراسم جنازة الخليفة أبي يعقوب يوسف في رباط الفتح ودفن بدار الخليفة، فكان أول خليفة يبايع بها ويدفن فيها[4]، إذ بويع بها في عهد والده الخليفة

---

(1) ابن صاحب الصلاة م. س ص 447.

(2) ابن عذاري: قسم الموحدين ص 157، 158.

(3) ن. م. ص 159.

(4) سبق أن دفن به الشيخ أبو حفص يحيى الهنتاتي سنة 571هـ وكان من المقربين للخليفة عبد المؤمن ولابنه من بعده أبو يعقوب يوسف وكان بيده جميع الأمور.

عبد المؤمن سنة 563هـ. بعد الانتهاء من هذه المراسم جددت البيعة لأبي يوسف يعقوب وتسمى بأمير المؤمنين، وكتب بذلك إلى الأندلس وجهات الدولة، فكان أبو يوسف يعقوب (المنصور) ثاني خليفة يبايع له في رباط الفتح.

كان الخليفة يعقوب المنصور يحب سكنى رباط الفتح والإقامة بها ويفضلها على عاصمة ملكه مراكش، ويجد راحته بها، فقد زارها عدة مرات بلغت خمسًا[1]، حتى أنه فكر في نقل عاصمة ملكه مراكش إليها. يقول ابن عذاري[2]: «فاغتبط بسكناها وعزم على الانتقال الكلي إليه». وشجع استيطان المدينة، بمنح كل ساكن يسكنها تفويضاً يستعين به، علاوة على ما يربحونه من أعمالهم، فأدى هذا إلى جذب عدد كبير من الصناع والعلماء والتجار ومختلف المهن، فازدحمت بالسكان وكثرت مبانيها وحوانيتها[3]، وأمر بتجديد القصبة المسماة بالمهدية، كما استكمل أسوارها وأبوابها، وجعل عليها من أمناء المصامدة من ينظر في نفقاتها ومصالحها، وكان من أجمل ما بنى بها مسجداً عظيماً كبير المساحة، واسع الفضاء وهو ما يعرف بمسجد حسان[4]، يصفه المراكشي[5] بقوله: «لا أعلم في مساجد المغرب أكبر منه، وعمل له مئذنة في نهاية العلو على هيئة منار الاسكندرية يصعد إليها بغير درج، تصعد الدواب بالطين والآجر والجص وجميع ما يحتاج إليه إلى أعلى، ولم يتم هذا المسجد إلى اليوم» أي سنة 614 هـ السنة التي ارتحل فيها المراكشي إلى مصر. ويذكر أن السبب في عدم استكماله يعود إلى موت الخليفة يعقوب المنصور وعدم اهتمام محمد الناصر ولا يوسف المنتصر بأمر المدينة أيام خلافتهم.

كان نزول محمد الناصر في الثلاث مرات[6] التي زار فيها رباط الفتح لمجرد الراحة من عناء الرحلة إلى الأندلس أو إفريقية. أما المنتصر فلم يزرها طول مدة خلافته.

عن وفاة الخليفة، انظر المصدر السابق صفحات من 163: 171.

(1) زارها سنوات 580، 582، 585، 588، 590.

(2) ابن عذاري م. س. ص 214.

(3) الحسن الوزان: وصف إفريقيا ص 201.

(4) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص 269 يحدد ابن أبي زرع ذلك في سنة 593 إذ يقول «وفي سنة 593 بنى رباط الفتح وتم سوره وركبت أبوابه وفيها بني جامع حسان ومناره».

(5) المراكشي: المعجب ص 266، الحسن الوزان: م. س. ص 201.

(6) زار الناصر الرباط سنة 601هـ، 604، 607. ابن عذاري ص 243، 249، 259.

توقفت زيارة الخلفاء الموحدين للرباط بعد الناصر لتوالي الفتن والتنافس على الخلافة، وتنازع القبائل، وعصيان قبائل الخلط العربية، وبداية دخول قبائل بني مرين. ففي عهد الرشيد هاجمها عمر بن وقاريط الهسكوري سنة 634هـ، وكان قد هرب من المغرب ولجأ إلى ابن هود الذي استولى على شرق الأندلس، وقد استطاع أن يحسن لابن هود الاستيلاء على رباط الفتح وأسر واليها بعد أن علم بخلاء المدينتين سلا والرباط من الجند، خصوصًا رباط الفتح حيث القصبة ومقر الوالي، فأمد ابن هود عمر بن وقاريط بجفنين ليدخل وادي سلا، وكاد ابن وقاريط أن يستولي على الرباط لولا شدة مقاومة البلدين سلا والرباط، فاضطر للهرب من حلق الوادي. يصف ابن عذاري[1] ذلك «وحصل في الوادي وكاد أن يملك رباط الفتح، ولو ملكه لحصل على معقل الدنيا ارتفاعًا ووثاقة ومنعة».

شجع الخليفة الرشيد سكنى الرباط وسلا وأذن للاجئين من أهل بلنسية وشاطبة وجزيرة شقر، ومن أهل شرق الأندلس عامة بالانتقال إلى رباط الفتح «بقضيضهم وقضهم وأن يتخذوا مساكنه وأرضه بدل مساكنهم وأرضهم ويعمروها». لذلك أصدر ظهيراً يعطيهم هذا الحق ويتعهد بحمايتهم والدفاع عنهم، ويأمر الولاة والعمال «بأن يحفظوهم من كل أذى ويكرموا علماءهم ونبهاءهم»[2].

توالت الاضطرابات في المغرب والأندلس وتقطعت سيطرة خلفاء الموحدين، فقد تغلب على كثير من أطرافها عدد من الزعماء وإن كانوا يخضعون اسمياً للموحدين، فاستقل بنو حفص بإفريقية، وبنو هود بالأندلس، وأبو القاسم العزفي بسبتة، وصارت معظم بلاد المغرب في يد بني مرين، يقول ابن عذاري[3]: «كان بنو مرين يجولون في تلك البلاد ولا مدافع لهم بقتال ولا جلاد».

وعندما تولى أبو حفص عمر المرتضى الخلافة سنة 646هـ، وكان والياً على رباط الفتح وسلا قبل خلافته، أمر واليها الجديد أبا عبد الله محمد بن أبي يعلى الكومي بالتيقظ ومراقبة أهلها خوفًا من الاتصال بأبي يوسف يعقوب المريني، أو ينتهز ملك قشتالة الاضطرابات ويهاجمها من البحر، فأمر أبو يعلى الكومي باستنفار السمار على الأسوار، وأكثر من المراقبين لأهل البلد، وعمل المعارض على الأبواب

---

(1) ابن عذاري. م. س ص ص 344، 345.

(2) د. محمد بنشريفة. ابن عميرة المخزومي ص 122.

(3) ابن عذاري: م. س. ص 356.

في المدينتين، وجعل الرماة والرجال يحرسونها، ولا يفارقونها ساعة من الليل أو النهار، ويعلق أحد المؤرخين المعاصرين لهم[1] «فما أفادهم حفزهم في نهارهم ولا حرزهم بسمارهم». إذ استطاع يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق المريني الاستيلاء على مدينتي سلا ورباط الفتح، وعندما علم عاملها الموحدي أبو يعلى بسقوط المدينتين سنة 657هـ فر بجفن صغير إلى أزمور تاركًا المدينة لمصيرها.

أعلن يعقوب بن عبد الله المريني استقلاله بحكم المدينتين مضاهيًا عمه أبا يوسف المريني طامعًا أن يصير الملك إليه، وتحايل في تجريد شيوخ سلا وأهلها من السلاح بدعوى أنهم خاطبوا عمه، كما خاطب ملك قشتالة يطلب إمداده بمئتين من الروم لحراسته والاستعانة بهم. «وكان تدبيرًا خاليًا من السداد والصلاح». إذ أن ملك قشتالة عندما وصلته رسالته وجدها فرصة ذهبية للاستيلاء على هذا الجزء المهم من المغرب فلم يتوانى في الإسراع بإعداد السفن وتعميرها في وادي إشبيلية في سرية تامة، ولم يعلم أحد بوجهتها، وشدد في المراقبة حتى يأخذ المدينة على حين غفلة.

عندما علم الفقيه أبو القاسم العزفي صاحب سبتة بهذه الاستعدادات المريبة، كتب إلى كل المراسي الإسلامية يعلمهم ويحذرهم من غدر ملك قشتالة، وفي آخر شهر رمضان سنة 658هـ بدأت طلائع هذا الأسطول تظهر في سلا واحدة وراء الأخرى، فظن أهل سلا أنهم تجار إلى أن اجتمعت وبلغ عددها سبعة وثلاثين مملوءة بالجند النصارى، ووقفت في البحر دون أن تتقدم إلى أن كان يوم الجمعة ثاني أيام عيد الفطر والناس منشغلون بالاحتفال بالعيد، فدخلت السفن إلى الوادي حيث لا يوجد سور للمدينة. وتعليق ابن عذاري المعاصر بالغ الأهمية في وصف حال الناس ما بين ذهول الناس وعدم مبالاتهم، فالمسلمون في كل المدن الإسلامية لم يعودوا قادرين على استيعاب ما يحدث لهم من كثرة الفتن والتصارع على الملك، وتنازل الحكام المسلمين عن المعاقل والقلاع للنصارى في سبيل الحفاظ على السلطة، أو الاستعانة بهم على إخوانهم. يقول ابن عذاري: «فبقي الناس في أمرهم حيارى فهبط الكفرة من أجفانهم والمسلمون يعاينونهم بأعينهم وأجفانهم، حتى صففوا صفوفهم، وجمعوا جموعهم، وكلهم مدرعون بدروعهم، والمسلمون مجتمعون غير

---

(1) ن. م. ص 417.

مسلحين ولا مدرعين، مستسلمين للقضاء، صفوفًا صفوفًا، والنصارى يزحفون لهم وجموعهم مرتبة وصفوفهم، وقدموا أمامهم رماتهم وطغاتهم مستعدين للقتال، وليس عند المسلمين شيء من السلاح ولا من النبال»، طبيعي أن يستشهد العدد الكبير من أهل المدينة، ويتزاحم البعض للخروج من بابها، فيموت في الزحام الخلق الكثير.

هذه المجزرة والخراب الذي حل بسلا وأهلها كان يشاهده وينظره يعقوب بن عبد الله المريني من قصبة الرباط، ولا يستطيع أن يجوز إليهم، أو يفعل شيئاً لمن بقي من أهلها الذين سيقوا إلى الجامع الكبير نساءًا وأطفالاً وشيوخًا ورجالاً يعبث بهم رجال ملك قشتالة وينتهكون حرماتهم، ثم استداروا فخربوا المساجد والدور وتحصنوا على أسوارها بالقسي والسلاح.

ويضيف ابن عذاري[1] «وكان موقفًا جسيمًا وأمرًا كبيرًا، ويعقوب بن عبد الله يعض يديه على قبيح ما جرى، ويشاهد ما تسبب فيه فعله ويرى»[2].

عندما علم أبو يعقوب يوسف المريني بما حل بسلا وأهلها، توجه بمجموع بني مرين ومن انضم إليه من المسلمين، واستطاع استنقاذ المدينة بعد ثلاثة عشر يومًا من سقوطها في يد القشتاليين الذين انسحبوا إلى سفنهم حاملين معهم أكثر من ثلاثة آلاف أسير من أهل سلا من جملتهم قاضيها أبو الحسن بن عشرة، وقبل رحيلهم أشعلوا النار في دور المدينة وأسواقها في الرابع عشر من شوال سنة 658هـ[3].

ملك أبو يعقوب يوسف المريني مدينتي رباط الفتح وسلا، وعاين ما حل بسلا من خراب ودمار، فأمر ببناء سورها وتجديد مساجدها ودورها، وشجع أبو يعقوب يوسف المريني الناس لبناء سور المدينة، فكان يشارك في رفع الحجر بيده «يبتغي الأجر والثواب» فاقتدى به وجوه بني مرين والناس وبذلك تم بناء السور في أيام، ثم أرسل ابن أبي يعلى الوالي الموحدي السابق للرباط وسلا لافتكاك الأسرى في أواسط شهر ذي القعدة من نفس العام سنة 658هـ[4]، واهتم بترتيب أحوال الناس، وقدم على مدينة سلا أبا عبد الله بن أحمد الفزاري، وأمره بإصلاح وتجديد المدينة، وبدخول أبي يعقوب يوسف المريني رباط الفتح انتهت سلطة الموحدين على المدينتين

---

(1) ابن عذاري: م. س. ص 418.

(2) ن. م. ص 419.

(3) ن. م. ص: ص 418، 420.

(4) ن. م. ص 423.

وتسمى بأمير المسلمين[1].

أقام أبو يعقوب يوسف المريني برباط الفتح وعزل والي سلا سنة 559هـ ابن أحمد الفزاري. وولاها لأبي فارس عبد العزيز بن يبورك شيخ بني تامردا الصنهاجي الذي استقر في سلا بأولاده وعياله[2]، ويبدو أن رباط الفتح لم تعد مقر الوالي منذ استولى عليها بنو مرين، ففقدت أبهتها ورونقها خصوصاً بعد سقوط دولة الموحدين، واتخاذ بني مرين فاس عاصمة لهم.

ولاة الرباط وسلا:

اهتم خلفاء الموحدين بتعيين ولاة رباط الفتح وسلا فاختاروهم من شيوخ الموحدين المعروفين بإخلاصهم وكفاءتهم، أو من ذوي قرابتهم أو أبنائهم، وذلك لأهميتها الاستراتيجية، يقول ابن صاحب الصلاة[3]: «ولم يزل الخلفاء يخصونها بالاهتمام، وإذا خرجوا في الغزوات يلمون بها غاية الإلمام، ويجعلون لها حظاً وافراً من التشريف لها، بالاختصاص فيها، والمقام، حتى غدت عراقاً، وتلاحق الناس بها لحاقاً».

كان أول ولاتها عبد الواحد الشرقي أحد أصحاب المهدي، فبعد أن استولى عليها عبد المؤمن في 7 ذي الحجة سنة 540هـ عينه والياً على سلا واستمر في ولايته إلى أن قتله أهل سلا عندما ثار الماسي على الموحدين في شوال سنة 541هـ[4]. وبعد إعادة فتحها على يد القائد يصلاسن بن المعز والقضاء على أتباع الماسي بسلا سنة 542هـ ترك فيها موسى بن زيرى الهنتاتي لتدبير شئونها[5] وفي سنة 544هـ عين الخليفة عبد المؤمن لها عبد الحق بن إبراهيم بن جامع، واستمرت ولايته في عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف، ويبدو أن الخليفة أبا يعقوب قد أقره على ولاية سلا حتى بعد نكبة أسرة آل جامع سنة 577هـ ونفيهم إلى ماردة[6]، كما استثنى أبا محمد

---

(1) ن. م. ص 424.

(2) ن. م. ص 424.

(3) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 448.

(4) ابن عذاري: م. س. ص 25.

(5) البيذق: أخبار المهدي ص 68.

(6) عبد الواحد المراكشي: م. س. ص 244، ابن عذاري: م. س ذكر أنها في سنة 573هـ وانظر عن هذه الأسرة المعجب ص 510.

ابن إسحاق بن جامع والي إفريقية[1].

وفي عهد الخليفة يعقوب المنصور كان والي رباط الفتح وسلا عثمان بن عبد العزيز الكومي، وهذا الوالي هو الذي عهد إليه الخليفة بالتخلص من بعض أقاربه، فقام بقتل أخيه الرشيد والي مرسية وعمه السيد أبي الربيع والي تادلا، ودفنهما بقصبة رباط الفتح[2].

ولا تسعفنا المصادر بأسماء الولاة في عهد الناصر والمنتصر والمأمون، وفي عهد الخليفة الرشيد كان والي رباط الفتح وسلا الفقيه المكرم أبو العلاء إدريس بن حسان صهره إذ كان متزوجًا من أخت الرشيد بنت الخليفة المأمون، وكان محل ثقة الرشيد إذ تركه واليًا على مراكش سنة 631هـ عند حركته إلى بلاد هسكورة وتادلا لحرب يحيى بن محمد الناصر الذي خرج عليه ونازعه الخلافة، فأظهر أبو العلاء كفاءة في ضبط المدينة وتصريف شئونها في غيبته[3]، لذلك اعتمد عليه في ولاية رباط الفتح وسلا وبقي بها إلى أن هاجمها واستولى عليها عمر بن وقاريط سنة 634هـ[4].

عين الخليفة السعيد السيد أبا حفص عمر بن السعيد أبي إبراهيم ابن أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف على رباط الفتح وسلا وهذا الوالي بويع خليفة فيما بعد باسم المرتضى سنة 646هـ[5]. ثم وليها أبو عبد الله محمد بن أبي يعلى الكومي إلى سنة 658هـ وهو الذي حدثت في آخر ولايته كائنة سلا عندما دخلها النصارى الذين استدعاهم يعقوب بن عبدالله المريني سنة 658هـ.

وعندما تم إنقاذ مدينة سلا على يد أبي يوسف يعقوب المريني ودخل رباط الفتح في 14 شوال سنة 658هـ خرجت رباط الفتح وسلا من حكم الموحدين، وإن كانت تتبعهم اسميًا، ولكن الذي يتولى تعيين ولاتها منذ ذلك الوقت هو أبو يوسف المريني الذي تسمى بأمير المسلمين فعين لها أبا عبد الله بن أحمد الفزاري في 14 شوال

---

(1) ابن عذاري: م. س. ص 157.

(2) أرسل الوالي عثمان بن عبد العزيز الكومي للخليفة يعقوب المنصور يعلمه بمقتل أخيه وعمه فيقول له: بنيت قبريهما بالكدان والرخام ويذكر محاسنها فكتب إليه الخليفة معنفًا: «ما لنا ولدفن الجبابرة إنما هما رجلان من المسلمين، فادفنهما كيف يدفن عامة المسلمين». المراكشي ص 278.

(3) ابن عذاري: م. س. ص 305.

(4)ن. م. ص 344.

(5) ابن عذاري: ن. م. ص 399.

سنة 658هـ ثم أبا فارس عبد العزيز بن يبورك في العام الذي تلاه[1].

القضاة:

يبدو أن القضاة كانوا يقيمون بسلا، وربما كان يعين قاضيًا لكل من رباط الفتح وسلا، إذ لا يبدو من العبارات التي وردت في المصادر أنه كان يفرق بين المدينتين من الناحية الإدارية على اعتبار أنها ولاية واحدة، وكان من قضاتها أبو العباس بن محمد البكري الشريشي[2] (ت 611هـ)، وأبو محمد بن حوط الله المالقي[3] (ت 612)، وأبو جعفر أحمد بن فرقد الإشبيلي[4] (ت 624هـ)، وأبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي[5]، وأبو الحسن علي بن حسن الصديني[6]، وأبو عبد الله محمد بن حماد الصنهاجي القلعي[7]، وأبو علي بن عشرة[8] الذي أسر في كائنة سلا سنة 658هـ. ومن الملاحظ أن جل هؤلاء القضاة من أصول أندلسية أو من الذين هاجروا من الأندلس واستقروا بمدينة سلا، وكان لهؤلاء القضاة دور فعال في الحياة الاجتماعية والسياسية للمدينتين.

موكب الخليفة لدخول رباط الفتح (المهدية):

كان دخول الخلفاء إلى الرباط وسلا يتم في موكب حافل، وكان الخليفة عبد المؤمن بن علي أول من دخلها في موكب له طقوسه، فيتقدم لواء المهدي بن تومرت وهو أبيض كبير كتب عليه في جانب «الواحد الله محمد رسول الله المهدي خليفة الله»، والجانب الآخر «وما من إله إلا الله، وما توفيقي إلا بالله، وأفوض أمري إلى الله»[9] مع عدد من الرجالة ثم يتبعهم حوالي مائة فارس بمصحف عثمان الذي صنع له صندوق عجيب غلف بصفائح الذهب، ورصع بالأحجار الكريمة الثمينة التي

---

(1) ابن عذاري: ن. م. ص 399.
(2) ابن الأبار: التكملة ج 1 رقم 270 ص 105.
(3) ابن الأبار: التكملة ج 1 رقم 2099 ص 885
(4) ن. م. ج 1 رقم 288 ص 114.
(5) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة قسم 1 ص 156، د. بنشريفة: أبو المطرف أحمد بن عميرة.
(6) د. بنشريفة: أسرة بني عشرة ص 29.
(7) ن. م.
(8) ابن عذاري: م. س. ص 423.
(9) ابن القطان: نظم الجمان ص 127، الحلل الموشية ص 152.

تحصلوا عليها من ذخائر المرابطين، وبني هود، وبني عباد، وبني حماد، وهذا الصندوق موضوع في هودج له أربع علامات حمر، ومحمول على نجيب عليه من الحلي النفيسة، وثياب الديباج الفاخرة ما يعدل أموالاً طائلة، وقد جعلوا تحته بردعة من الديباج الأخضر، وخلفه بغل محلى أيضاً عليه مصحف آخر يقال إنه بخط المهدي محلى بفضة مموهة بالذهب، ثم الخليفة على صهوة جواده، ويتميز لباس الخليفة بالغفارة الزبيبية والبرنس المسكي وهذه الألوان اختص بها الخلفاء الموحدون، ولا يسمح لأحد بلبسها[1]، ويتبع الخليفة عبد المؤمن ابنه السيد أبو حفص وراءه لا يوازيه أحد، ثم أبناؤه الآخرون لا يوازونه إلا الأقرب من أبي حفص السيد أبو عبد الله محمد ولي العهد، ثم تتبعه البنود والطبول ومن ورائها الأمراء المدبرون لأمر دولته، ويتتابع الناس لا تزاحم بينهم، وأمر بنزول القبائل والأجناد في فحص غبولة، كل قبيلة في المكان الذي حدد لها، وعلى ترتيبها، لا يتعدى أحد طوره، لهم رتب معلومة قيدها الحد، وحماها الخوف، وفي المحلة نزل جميع الصناع وكل ما يحتاج إليه المسافر معهم كأنه مقيم بداره[2].

وقد نزل الخليفة عبد المؤمن بدار بني عشرة بسلا لأن قصر الخليفة وقصبة المهدية رباط الفتح لم يكن بدىء في بنائه.

وقد غير الخليفة أبو يعقوب يوسف هذه المراسم عند دخوله الرباط سنة 566هـ بعد غياب طويل[3] إذ لم يكن قد زارها منذ وفاة والده سنة 558هـ، فأراد أن يكون دخوله رباط الفتح أكثر أبهة، فأمر بإحضار أربع رايات صغار في أربعة رماح صغيرة وفي أعلى كل رمح تفاحة من ذهب تتلألأ ضياء وشعاعاً، وأربع رايات ملونات بالخلدي الأحمر والأصفر والأبيض وجعل تلك الرايات في أركان صندوق مصحف عثمان، ثم استوى على صهوة جواده ومشى على الهيئة المتقدمة في عهد

(1) أثناء إحدى هذه المواكب التفت المنصور إلى ساقته، فرأى أكثر قرابته من الإخوة والعمومة قد اصطفوا واختصوا بلباس الغفائر الزبيبية والبرانس المسكية فأنكر عليهم ملازمة ذلك الزي لكونه من زي الخليفة في حالتي ركوبه وجلوسه في كل موطن. فجمعهم السيد أبو زيد وذكرهم بعوائد الأمر والمحافظة على آدابه، وأن يتجنبوا أفعال الخليفة الخاصة به. ابن عذاري: م. س. ص 187.

(2) ابن القطان: م. س. ص 127، الحلل الموشية ص 152، المراكشي: م. س. ص 152، 253، ابن عذاري: م. س. ص 118، ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 439.

(3) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 446.

أبيه، لابساً الغفارة الزبيبية والبرنس المسكي، وعلى عاتقه رمح طويل قد غشي سنانه، والعساكر وراءه من الموحدين والعرب قد ملأوا بسيط الأرض، واتسعوا فيها بالطول والعرض، وعندما قرب من رباط الفتح أمر بتقديم الطبول والرايات الكبار أمامه مع المصحفيين مع الساقة على خلاف العادة في المشي، إذ العادة كانت الطبول خلفه، وراية المهدي هي المتقدمة تنويهًا وتعظيمًا للتبريز والترتيب، ثم تبعهم الأشياخ من الموحدين والوزير أبو العلى إدريس بن جامع والكتاب والطلبة وراءه حتى وصل باب المهدية (رباط الفتح) فرد وجهه للناس واستقبلهم وهو راكب على فرسه ودعا لهم، وأمرهم بالنزول في تلك الأراضي العريضة، وكان هذا التبريز كما وصفه ابن صاحب الصلاة[1] الذي شاهده بأنه «من إحدى العجائب، وأفخم الظهور والوفور للعساكر والكتائب».

بعد دخول الخليفة قصبة الرباط يأمر بتتميم الصلاة إشعاراً بأن الإقامة ستطول أيامًا، ثم يدخل إلى قصره بالقصبة، وفي اليوم التالي لوصوله يأمر بتمييز العساكر مرة ثانية، إذ أن التمييز الأول جرى بحضرة مراكش، ويحضر على تمييز الموحدين وقبائل العرب أحد السادة وأحد الوزراء ممن له سياسة ومعرفة بشيوخهم وأنسابهم[2]، بعد ذلك يأمر بإعطاء الكسوات للموحدين والأشياخ من كل قبيلة ولطلبة الحضر والعرب، فيعطى لكل واحد ستة أثواب عمامة وغفارة وقبطية مبطنة ومقطعين مهدويين وكساء، كما خص كثيراً منهم بأخبية وخيل عتاق إحسانًا وإنعامًا وامتنانًا، وكانت هذه المنح والإنعامات تختلف من خليفة إلى آخر، ثم يأمر بقضاء حوائج الناس، ويتصدق على الضعفاء[3].

وفي العادة أثناء إقامة العساكر في فحص غبولة وفحص الرباط كانت تقام المباريات بين الفرسان، فكان الفرسان يتبارون على خيولهم بالجري واللعب، والدفاع بالحملات بالكرات، والطبول تضرب من ضحوة النهار إلى أذان الظهر، والسادات يجلسون في القباب التي أقيمت لهم في رباط الفتح والتي تطل على هذه المشاهد، والناس يتجمعون من أهل الرباط وسلا لمشاهدة هذه الاحتفالات والتي كانت تعتبر

(1) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 446.

(2) في عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف قام بهذه المهمة أبو زكريا والوزير أبو محمد عبد الله المالقي. ابن صاحب الصلاة: ص 449.

(3) ابن صاحب الصلاة: ن. م. ص 450.

رواجًا اقتصاديًا لأهل هذه النواحي، وربما حضر هذه الحفلات الخليفة[1].

يتوزع نشاط الخليفة أثناء إقامته بين استقبالات الوفود، أو معاينة الإنشاءات الجديدة، أو الأمر بإقامة إصلاحات أو تعديلات. فقد استقبل الخليفة عبد المؤمن وفود الأندلس بدار بني عشرة قبل استكمال قصره بالمهدية «رباط الفتح»، ويبدو أن دار بني عشرة قد صودرت ضمن أملاك هذه الأسرة التي كانت موالية للمرابطين، والتي كانت تتمتع بعلاقات متينة مع أمرائهم، ولا شك أن هذا القصر الذي نزله عبد المؤمن مع المهدي بن تومرت قد أعجبه دون قصور سلا، أو ربما لتأكيد نبوءة المهدي بامتلاك المدينة وقصبة تاشفين، وكان أول جلوس عبد المؤمن فيه أول المحرم سنة 546هـ، إذ استقبل فيه وفد الأندلس الذ ي استدعاه في 27 ذي الحجة سنة 545هـ. يقول ابن صاحب الصلاة[2] بأن عددهم كان نحو خمسمائة فارس من شيوخ وأجناد وقواد ومن تبعهم من رجالهم، فأمر الخليفة عبد المؤمن بأن يخرج الوزير أبو إبراهيم والوزير أبو حفص والوزير الكاتب أحمد بن عطية، وأشياخ الموحدين لاستقبالهم على بعد ميلين من سلا، فلما وصلوا رحبوا بهم، فدعوا للخليفة وللسادة أبنائه، بعدها صحبوهم وأنزلوهم في ديار أعدت لهم، ودارت عليهم الضيافات.

وضع الخليفة عبد المؤمن مراسم خاصة للموحدين في الاحتفالات واستقبال الوفود، فقد استقبل وفد الأندلس بعد ثلاثة أيام من وصوله بقصر بني عشرة، وعندما دخلوا للسلام عليه كان يجلس في رحبة القصر على حصير وعليه الغفارة الزبيبية، وعلى رأسه عمامة صوف فقدم الوزير ابن عطية الوفد، يسمي كل منهم وينسبه، فلما انتهى من تقديم الرؤساء أذن لهم الخليفة بالكلام، فتكلم واحد بعد واحد، ثم انفصل المجلس على أن يعودوا في اليوم التالي للمبايعة. وفي اليوم الثاني حضر جميع الوفد ودخل الرؤساء، وبايع الجميع، وانخلعوا عن بلادهم ودخلوا في طاعة الموحدين، ثم دخل سائر الناس من الوافدين واحداً بعد واحد حتى أتموا، وكان أهل إشبيلية أول من دخل، وتكلم بالمجلس كل من أراد أن يتكلم من الأشياخ والأجناد وغيرهم، وأنشد الشعراء، واستمرت ضيافة الوفد خمسة عشر يوماً انصرفوا بعدها[3].

---

(1) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 290.

(2) ابن عذاري: م. س. ص 44.

(3) ن. م. والصفحة.

ويخرج الخليفة في يوم الجمعة عند زوال الشمس من خوخة في قبلة المسجد، ومعه خواص حشمه، ويركع ركعتين ثم يجلس، فيقرأ قارىء حسن القراءة والصوت قدر عشر آيات من القرآن الكريم، ثم يقوم رئيس المؤذنين ومعه العصا التي يتوكأ عليها الخطيب فيقول: قد فاء الفيء يا سيدنا أمير المؤمنين والحمد لله رب العالمين، يريد بهذا القول استئذانه في صعود الخطيب إلى المنبر، فيصعد الخطيب المنبر ثم يناوله رئيس المؤذنين العصا، فإذا جلس الخطيب فوق المنبر أذن ثلاثة من المؤذنين مفترقين، أصواتهم في غاية الحسن ، قد انتخبوا لذلك من البلاد، بعدها يبدأ الخطيب الخطبة الأولى ثم يتعوذ ويقرأ سورة قاف كلها ثم يجلس، فإذا قام للخطبة الثانية أنهاها بالدعاء، وينزل فيصلي، فإذا انتهى دعا الخليفة بنفسه وأمن الوزير على الدعاء[1].

وإذا حدد يوم الرحيل يكون الخروج في الغالب بعد صلاة الصبح، فيضرب طبل كبير ثلاث ضربات إيذانًا بالرحيل، ويتم بالترتيب المعتاد، فإذا كان الرحيل عن طريق البر يقسم العساكر، لكل عسكر يوم يختص به وماء ينزل عليه على مسيره، في كل يوم مرحلة إلى وقت الغداء، وترتاح الجيوش وتستأنف المسير في اليوم التالي[2].

أما إذا كان الجواز من رباط الفتح عن طريق البحر، فيأمر بالحركة والاستعداد لعبور الجسر إلى سلا، ويعين أحد أشياخ الموحدين للعبور بالموحدين، وأحد أشياخ العرب للعبور بالعرب، وبعد استكمال العبور الذي يتم في عدة أيام يتحرك الخليفة ومعه الوزراء وبني الجماعة والحفاظ والطلبة من أهل الحضر والعبيد بالترتيب الذي عمل به في الدخول[3].

فكانت رباط الفتح وسلا تعيشان طول إقامة الخليفة في احتفالات متصلة، وأفراح عامة، وزينات في كل مكان، وصفها صاحب الاستبصار بقوله: «وما هي وقت مرور المحلات عليها إلا من عجائب متنزهات الدنيا لا سيما في الأعوام الخصبة والفصول المعتدلة، وناهيك من ساحل طوله نحو الميلين وعرضه نحو الميل مملوء بالبشر والزوارق في الوادي بركابها والمنارة المطلة، وغلات الثمار وعقد الزيتون وجدر الكرمات وقبب الجلوس للسادات ـ أيدهم الله ـ ظاهرة، وقبلة الجامع وأكثر منازه هذا الحصن المشرف ظاهرة من المدينة، وما هي في أوقاتها إلا أملح من ديار

(1) المراكشي: م. س. ص 343.
(2) الحلل الموشية ص 152
(3) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 451.

مصر وما يحكى عن دجلة والفرات».

هذه هي رباط الفتح أو مهدية الموحدين وسلا المدينتان اللتان مصّرهما خلفاء الموحدين الأول وجعلوا من رباط تاشفين مدينة عامرة مزدهرة، وشجعوا الإقامة بها، خصوصًا للأسر التي هاجرت من الأندلس[1].

* * *

(1) الاستبصار ص 141.

المصادر والمراجع

- ابن الأبار: التكملة. القاهرة 1955.
- ابن أبي زرع: روض القرطاس. الرباط 1973.
- ابن خلدون: العبر. جـ 6.
- ابن سماك العاملي: الحلل الموشية. تحقيق د. زكار ومحمد زمامة.
- ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة. تحقيق د. عبد الهادي التازي، بيروت 1964.
- ابن عبد ربه الحفيد: الاستبصار. تحقيق د. سعد زغلول، جامعة الإسكندرية.
- ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة. قسم 1 تحقيق د. محمد بنشريفة.
- ابن عذاري: البيان المغرب. الجزء الخاص بالموحدين، تحقيق مجموعة من الأساتذة.
- ابن القطان: نظم الجمان. تحقيق د. محمود مكي.
- البيدق: أخبار المهدي. الرباط 1971.
- الحسن الوزان: وصف أفريقيا. ترجمة محمد حجي.
- عبد الواحد المراكشي: المعجب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة 1949.
- د. محمد بنشريفة: ابن عميرة المخزومي.
- د. محمد بنشريفة: أسرة بني عشرة.

* * *

من مظاهر الحياة الاجتماعية

الأعياد والاحتفال بها

من مظاهر الحياة الاجتماعية الأعياد والاحتفال بها

الأعياد من المظاهر الاجتماعية السعيدة التي يحتفل بها الناس، فهي تعيد إليهم ذكريات مرتبطة بمناسبات خاصة يسترجعون فيها أحداثًا معينة، ينسون فيها مشاق الحياة، ويستعيدون فيها نشاطهم وأفراحهم. وهذه الأعياد إما مرتبطة بأحداث دينية أو بمواسم زراعية في الغالب، أو ببعض المناسبات الوطنية. ومن الملاحظ أن المجتمع الإسلامي جمع بين الأعياد الإسلامية وغيرها من أعياد الشعوب التي خضعت للحكم الإسلامي، فقد انصهرت هذه الأجناس المختلفة بمكوناتها البشرية وعاداتها وتقاليدها، واحتفل الناس بأعياد أخرى غير عيدي الفطر والأضحى وعاشوراء، خصوصًا ما يرتبط منها بالمواسم الفلاحية، والمجتمع في الغرب الإسلامي كان يحتفل كغيره من الشعوب الإسلامية بمثل هذه الأعياد.

ولا شك أن هذه الاحتفالات في بداية الفتح كانت تتسم بالبساطة وكانت تقتصر على الاحتفال بالأعياد الثلاثة الفطر والأضحى وعاشوراء، ولكن بمرور الزمن ووجود العنصر المسيحي الذي كان يحتفل بعدة أعياد حاول من خلالها إبراز أبهة الاحتفالات من أجل إثبات الذات، بل لقد أكثر المسيحيون من اختراع أعياد خاصة ببعض القديسين والقديسات. وكرد فعل أصبح للمسلمين أعيادًا كثيرة ظهرت بوضوح في آخر عصر الإمارة، فكان يوم الجمعة بمثابة عيد أسبوعي يحتفل به، وكلما بالغ النصارى في الاحتفاء بيوم الأحد في كنائسهم، كلما زاد تمسك المسلمين بإظهار الاحتفال بيوم الجمعة، وإفراده بأكلات خاصة ولباس خاص. مع أن طبقة الوزراء ورجال البلاط اتخذوا من يوم الأحد عطلة للاستراحة من عناء العمل خلال الأسبوع للنظر في مصالحهم، وكان ذلك منذ عهد الأمير محمد (238 ـ 273هـ) يقول ابن حيان: «كان أول من سن لكتاب السلطان وأهل الذمة تعطيل الخدمة يوم الأحد من الأسبوع والتخلف عن حضور قصره قومس بن أنتيان كاتب الرسائل للأمير محمد، وكان نصرانيًا دعا إلى ذلك لنسكه فيه، فتبعه جميع الكتاب طلب الاستراحة من تعبهم والنظر في أمورهم، فانتحوا ذلك ومضى إلى اليوم عليه»[1]. ويبدو أن الاستراحة شملت السبت أيضًا في مملكة غرناطة فكانت العطلة السبت والأحد

---

(1) ابن حيان: المقتبس، تحقيق د. محمود مكي، ص 138.

ويظهر ذلك من شعر ابن الخطيب الذي اعتذر فيه لأبي بكر بن عبد الملك حين دعاه يوم الاثنين لحضور حفل ختان ابنه فأرسل له ابن الخطيب بعض الأبيات يعتذر لانصرافه لخدمة السلطان في ذلك اليوم:

دعوت في يوم الاثنين الصحاب ضحى وفيه ما ليس في سبت ولا أحد

يوم السلام على المولى وخدمته فاصفح وإن عثرت رجلي فخذ بيدي[1]

وجرت العادة في عهد الإمارة أن يخرج الأمير لصلاة الجمعة في المسجد الجامع بقرطبة، ولكنه في عهد الخلافة صار يخرج إلى جامع الزهراء، فكانت صلاة الجمعة تقام في مسجد قرطبة ومسجد الزهراء بعد صدور الفتوى بجواز إقامتها في مسجدين في مدينة واحدة، فكان السلطان يخرج في موكب يحف به الأمراء ورجال الدولة، وعندما يجلس بالمسجد تبدأ شعائر الجمعة بقراءة آيات من الذكر الحكيم، وأذان المؤذنين، وكان يشترط في المؤذن العفة والأمانة وحسن الخلق وغض البصر «حوطة على حرم المسلمين والاطلاع على عوراتهم، وخوف فتنة تحدث بسبب من لا يؤمن في ذلك»[2]. وكان بعض المحتسبة من المتشددين يأمر المؤذنين بعمل عصائب على أعينهم حين الأذان بالنهار[3].

ولم يكن يتولى خطبة الجمعة إلا كبار العلماء، أو من عرف عنه فصاحة اللسان وحسن البيان، وكان بعض الخطباء يخطب في كل جمعة خطبة لا تشبه الأخرى[4].

وكان الموحدون في عدوة المغرب لا يقدمون للخطبة والإمامة إلا من حفظ التوحيد واللسان البربري، وكانت خطب بعض الخطباء تشتمل في كثير من الأحيان على الوعظ والتذكير، وربما لمح الخطيب إلى انحراف الخليفة، أو فساد بعض الأمور[5]، وربما اعترض أحد المصلين على الخطيب الذي يحاول مداهنة أولي

---

(1) المقري 8 / 219.

(2) الجزناني: زهرة الآس، ص 53.

(3) ن. م. ص 56.

(4) ن. م.

(5) قال الحجاري: إن الخليفة عبد الرحمن الناصر حضر الجمعة في جامع الزهراء، فلما خطب منذر بن سعيد قال في خطبته: ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون﴾ [الشعراء: 128] فتحرك الناس لذلك، وعلم الناصر أنه عرض به، فلما فرغ قال لابنه المستنصر فيما جرى منه، ثم قال: لكن علي يمين ألا أصلي خلفه ما عشت. فلما جاء الجمعة الثانية قال لابنه: كيف نصنع في اليمين؟ قال: يؤمر بالتأخر،

الأمر[1]، خصوصًا إذا عرف عنهم عدم أحقيتهم في ولاية أمر المسلمين وربما يحدث الهرج والهلع في المسجد لارتكاب جريمة أو اغتيال[2] أثناء سجود المصلين، وانتهاز الفرصة للقيام بهذا العمل والهرب، فتقطع الصلاة وتسد الأبواب ويشهر الحراس أسلحتهم ويحيطون بالأمير ويمنعون الناس من الحركة حتى يتم إخراج الأمير من أحد الأبواب سالمًا[3].

بعد الفراغ من صلاة الجمعة يعود الخليفة أو الأمير في موكبه راجعًا إلى قصره، ويحتشد الناس على جانبي الطريق لمشاهدة الموكب، وربما تجاسر البعض برفع ظلامات للخليفة أو الأمير. وفي غالب الأحيان يوزع الصدقات أو يعتق عددًا من عبيده شكرًا لله خصوصًا بعد إبلاله من مرضه، أو ورود بشارة بالنصر في هذا اليوم، وكثيرًا ما كان يستبشر حكام المسلمين بالخروج للغزو في يوم الجمعة[4].

وقد ابتنى الأمير عبد الله بن محمد (275 ـ 300 هـ) الساباط بين القصر وجامع قرطبة رغبة في شهود الجمعة ومحافظة على الصلوات وحبًا في الصالحات، فكان يقعد في الساباط قبل صلاة الجمعة وبعدها فيرى الناس ويتعرف على أخبارهم وحركاتهم ويسر بجماعاتهم ويسمع ظلامة المظلومين[5].

وحرص أمراء الطوائف على حضور صلاة الجمعة في المسجد الجامع ومحاولة

ويستخلف غيره فاغتاظ الناصر، وقال: أبمثل هذا الرأي القائل تشير علي؟ والله لقد ندمت على ما فرط مني في اليمين، وإني لأستحيي أن أجعل بيني وبين الله غير منذر، ثم رأى أن يصلي في جامع قرطبة، فواصل ذلك بقية مدته.

ابن سعيد: المغرب، ج 1 ، رقم 118، ص 183.

(1) مثل ما حدث في المسجد الجامع بقرطبة في أول جمعة من جمادى الأولى الذي خرج فيها عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر المشهور بشنجول إلى غزاته، ففي أثناء إنصات الناس للخطبة قام فتى يصلي قبالة الخطيب واعترضه عندما بلغ موضع الدعاء لعبد الرحمن بولاية العهد فصاح بأعلى صوته: آش هذا الدلس يا شيخ السوء، بأنكر صوت. فقبض عليه وحمل إلى السجن وهو يزيد في صياحه مدعيًا الجنون، فأمر صاحب المدينة بصلبه.

ابن عذارى: البيان المغرب، 3 / 54.

(2) اغتيل قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن الحاج أثناء سجوده، وكان لهذا الحادث أثر كبير على كل مدن الأندلس «والتطخت قرطبة بما لم يشتمل عليه ديوانه، ولا بدر في زمان من اغتيال قاضٍ عدل فقيه خيّر جامع لأعمال البر، قتل مظلوماً ساجداً يوم الجمعة». ابن عذاري: م. س. 4 / 93.

(3) ابن عذارى: ن. م.

(4) ابن سعيد: المغرب، ج1، رقم 1، ص 41. ابن عذارى: م. س. 2 / 74، 338، 340.

(5) ابن عذارى: م. س. 2 / 247.

التواجد بين الناس، لاكتساب مزيد من الشرعية، وكانت المواكب تختلف من إمارة لأخرى.

بينما غلبت البساطة على مواكب المرابطين لحضور صلاة الجمعة، حتى لقد تجرأ ابن تومرت واحتل مكان أمير المسلمين علي بن يوسف في الصف الأول بمقربة من المنبر. ورفض ترك المكان عندما أعلمه سدنة المسجد بأن ينتقل إلى مكان آخر. ولما وصل الأمير علي بن يوسف قام له الحضور ولم يتحرك ابن تومرت من مكانه[1].

وكان للموحدين طقوس خاصة بصلاة الجمعة، وإن كانت تختلف في الأندلس عنها في المغرب، فإذا تصادف وجود الخليفة بالأندلس فإنه يخرج إلى المسجد الجامع للصلاة في احتفال كبير يحيط به السادة الولاة وشيوخ الموحدين، ورجالات الدولة والطلبة، وتقام الصلاة كعادة أهل الأندلس إلا أن الخطبة كانت تشتمل على كثير الدعاء للإمام المعصوم والمهدي المعلوم والخليفة القائم.

أما في عدوة المغرب في حاضرة الخلافة مراكش فقد كان المسجد الجامع متصلاً بقصر الحجر الذي يقيم فيه الخليفة عن طريق نفقين، يدخل من القصر إليهما ومنهما إلى الجامع لا يطلع عليه أحد. وكان المهندس الحاج يعيش المالقي قد أشرف على بناء هذا المسجد، فوضع فيه مقصورة من الخشب لها ستة أضلاع تسع أكثر من ألف رجل، وضعت على حركات هندسية ترفع بها لخروج الخليفة وتخفض لدخوله، وكان على يمين المحراب باب داخل المنبر، وهذا المنبر صنع في الأندلس في غاية الإتقان، قطعاته من عود وصندل أحمر وأصفر، وصفائحه من الذهب والفضة، وعن يسار المحراب باب داخله دار فيها حركات المقصورة والمنبر، وكان دخول الخليفة عبد المؤمن وخروجه منها، فإذا قرب وقت الذهاب إلى الجامع يوم الجمعة دارت له الحركات بعد رفع البسط عن موضع المقصورة، فتطلع الأضلاع به في وقت واحد، لا يفوت بعضها بعضًا بدقيقة، وكان باب المنبر مسدودًا، فيدخل الخليفة ومعه خواص حشمه لصلاة الجمعة عند زوال الشمس ويركع ركعتين ثم يجلس، فيقرأ قارىء حسن الصوت قدر عشر آيات من القرآن، ثم يقوم رئيس المؤذنين ومعه العصا التي يتوكأ عليها الخطيب فيقول: قد فاء الفيء يا سيدنا أمير المؤمنين والحمد لله رب العالمين، يريد بهذا القول استئذانه في صعود الخطيب المنبر، فإذا قام الخطيب

---

(1) الحلل الموشية ص 100.

ليطلع عليه انفتح الباب وخرج المنبر دفعة واحدة بحركة واحدة، ولا يسمع له حس، ولا يرى تدبيره، ثم يناول رئيس المؤذنين العصا للخطيب، فإذا جلس فوق المنبر أذن ثلاثة من المؤذنين مفترقين، أصواتهم غاية في الحسن، قد اختاروهم لذلك من أنحاء الدولة، ثم يقوم الخطيب فيحمد الله ويستعينه ويتعوذ ويقرأ سورة ق من أولها إلى آخرها ثم يجلس، فإذا قام للخطبة الثانية حمد الله ودعا وختمها بالصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وعلى الإمام المعصوم المهدي المعلوم ودعا للخليفة القائم ولولي عهده، وينزل ويصلي، فإذا فرغ دعا الخليفة بنفسه وأمن الوزير على دعائه[1]، وبعد الانتهاء من هذه الطقوس تنخفض المقصورة ويخرج الخليفة والحاشية دون أن يراه أحد[2].

ويبدو أن هذه الطقوس الموحدية المغرقة في الغرابة قد انتهت بسقوط دولتهم. وعادت صلاة الجمعة إلى ما كانت عليه، خصوصًا بعد هجر العاصمة مراكش واتخاذ فاس عاصمة دولة بني مرين.

أما الصوفية فكان لهم احتفالهم الخاص بيوم الجمعة، فبعد الصلاة يجتمعون على شيخ يختارونه هو أقواهم على أذكار الذاكرين، وأكثرهم استنباطًا وفهمًا لآداب المريدين، فيجلس الشيخ على يمين الداخل لمجلسهم، ثم يجلسون على حسب تواردهم بعد مصافحة الشيخ، يتساوى في ذلك أكبرهم وأصغرهم، ويخرج خديم الشيخ بعد ذلك سبحة منظومة في خيط بها عدد معلوم، قصد به الإحصاء للتسبيحات والتهليلات والضبط، ليكون انتهاؤهم في ذلك إلى عدد معلوم، بعد ذلك ينتقلون إلى الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يختمون ذلك بالسلام على سائر المرسلين والحمد لله رب العالمين، بعدها يقرأ منشدهم شيئًا من القرآن الكريم ويختمه بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيصلون أيضًا في مرة، ويتبعه قارئ آخر، ثم يقرأ الشيخ وطائفة منهم بضعة آيات من القرآن تتضمن طلبهم من الله عز وجل العفو والمغفرة مثل: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾[3]، ﴿رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾[4]

---

(1) عبد الواحد المراكشي: المعجب ص 343، 344، الحلل الموشية ص 144.

(2) نفس المصادر السابقة.

(3) الأعراف: 22.

(4) المؤمنون: 119.

ويذكرون بعد ذلك أنواعًا من الأذكار فالدعاء، فالاستغفار.

وعلى إثر ذلك ينشد منشدهم قصيدة إما في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وإما في الحض على فعل الخيرات، أو ما يحذر من الوقوع في الزلات، فيوجب سماع ذلك عند بعضهم بكاء وخضوعًا، ويظهر على ظواهرهم سكونًا وخشوعًا، ويقرأ قارىء آخر من كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» فيسمعون ما يجب له من تعزيز وإعظام، ويقرأ آخر مثله بعض مجالس الواعظين، يذكرون فيها بأخلاق الصالحين وأعمال المجتهدين، ثم يقوم مذكر آخر بإملاء الشيخ بأنواع التذكيرات، وأصناف من حسن المقالات، فيصافحونه في تلك الأقوال، ويبنون بصالح الأعمال.

بعد الانتهاء من الأذكار يحضر خديم الشيخ بأمر منه ما حضر من الطعام، فيأكل منه الحاضرون إلا الصوام، ثم يحمل الخديم بقيته لنفسه، ويشاركه فيه من هو مثله من أبناء جنسه، وذلك من مال الشيخ وخالص كسبه، ويرتجي بذلك غفران ذنبه، لا يوظف على أحد منهم في ذلك قليلاً ولا كثيرًا، بل يحسن إلى الغني منهم، ويقضي مطالبه، ويجزل العطاء إلى من كان فقيرًا منهم، فإذا فرغوا من الأكل حمدوا الله عز وجل وشكروه وعظموه على إسداء نعمته، ثم يجيء الخديم بإناء فيه من الطيب ما تيسر، فيتطيب الشيخ منه، ثم الذي عن يمينه، ثم جميع من حضروهم، وفي هذه الأثناء يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ويختمون بقراءة سور من قصار المفصل إلى إكمال الفاتحة، ثم يقرأون ما ألف في توحيد الله تعالى، ثم يدعو الشيخ وعلى دعائه يؤمنون رافعين أكفهم راغبين، ويمسحون بها وجوههم ويصافحون شيخهم وينصرفون[1].

وقد ابتدع المسلمون الاحتفال بأول جمعة من رجب والسابع والعشرين منه ليلة المعراج، فيجتمع الرجال والنساء في المساجد ويتكلفون النفقات بشراء الحلوى والمأكولات وزادوا فيه بمهاداة الأقارب والأصهار خصوصًا إذا كانت المصاهرة جديدة أو لم يدخل بالزوجة[2].

وقد حظيت ليلة النصف من شعبان باحتفال المسلمين واعتبروها من الليالي المباركة، ويصفها ابن عبدون[3] بأنها من الأيام العظام، وسموا هذا اليوم بالشعبانة أو

(1) الونشريسي: المعيار، 7 / 48، 50، انظر كتابنا: الأندلس في نهاية المرابطين: ص 289.
(2) ابن الحاج: المدخل، 1 / 290.
(3) ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص 180.

الشعبانية، فكان يحتفل بها بالموائد العامرة بأصناف الحلوى والفواكه، ويشتري الصبيان الأبواق واللعب، ويتزاور الأهل والأصحاب في هذا اليوم ويتحلقون حول الموائد العامرة مستعيدين الذكريات بقرب شهر رمضان، وعلى المستوى الرسمي يوزع الخليفة الصلات والهدايا لرجالات الدولة بحسب مقاديرهم من فاخر الكسوة والسيوف المحلاة[1]، وكان الرجال يخرجون في جماعات إلى المتنزهات أو الضيعات يسمرون ويحتفلون بهذا اليوم، وذكر ابن الأبار أنه حضر يومًا في جماعة من أصحابه وفيهم أبو عبد الله بن زرقون في عقب شعبان في مكان فلما تملأوا من الطعام قال أبو الطاهر لابن زرقون، أجز يا أبا عبد الله قال:

حمدت لشعبان المبارك شبعة   تسهل عندي الجوع في رمضان[2]

واحتل شهر رمضان مكانة خاصة على المستوى الرسمي والشعبي في المغرب والأندلس، ففي نهاية شهر شعبان يحتفل بالخروج لمراقبة شهر رمضان، فيتقدم القضاة والعدول الموكب ويتجمع الناس لرؤية الهلال وسماع الإعلان ببدء الصيام، فإذا ثبتت الرؤيا تنار صوامع المساجد، ويدور البريح في الأزقة معلنًا بدء الصيام، وتوقد النار في القرى لإعلام القرى المجاورة ببدء شهر الصوم[3].

ويكثر الناس من إخراج الصدقات والتوسعة على بيوتهم في النفقة في شهر رمضان، ويوزع السلطان الصدقات سرًا وعلانية، «فتتحسن بمعروفه أمة من ذوي الحاجات». واشتهر عن الحكم المستنصر التزامه بهذه العادة طوال فترة حكمه، فكان يعين أمناء لتوزيع الصدقات في أرباض قرطبة والزهراء وما جاورها، ويأمرهم بتحري أهل الستر وذوي الحاجة وأبناء السبيل، وكانت الصلات والكساوي توزع في هذا الشهر على زعماء البربر ومشايخ القبائل القادمين من العدوة للسلام عليه[4].

وتظل المساجد مفتوحة طوال هذا الشهر إلى صلاة الفجر، حيث تمتلئ بالمصلين الذين يقضون الوقت في تلاوة القرآن وإنشاء الأذكار، وتزاد الحصص المخصصة للمساجد من الزيت والشمع لإشعال القناديل، وقد ذكر ابن حيان أنه صرف لجامع قرطبة في شهر رمضان ثلاثة قناطير من الشمع وثلاثة أرباع القنطار من

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 2 / 247.

(2) المقري: نفح الطيب، 4 / 323.

(3) الونشريسي: م. س. 10 / 149، وانظر كتابنا الأندلس في نهاية المرابطين، ص 308، 324.

(4) ابن حيان: المقتبس، تحقيق د. الحجي، ص 76.

الكتان المقصر لإقامة الشمع، وكانت الشمعة الكبيرة التي توقد بجانب الإمام وزنها من خمسين إلى ستين رطلاً يحترق بعضها بطول الشهر ويعم الحرق لجميعها ليلة الختمة، ويوقد من البخور يوم الختمة أربع أواق من العنبر الأشهب، وثمان أواق من العود الرطب، مع العلم بأن هذه الكمية تمثل ضعف الكمية المخصصة للمسجد طوال العام(1).

ولم يقتصر الذهاب للمساجد على الرجال بل كانت بعض النساء يذهبن للعبادة والمناجاة خصوصًا في ليلة السابع والعشرين من الشهر، وقد لا تسلم المرأة من معاكسة أو ملاحقة المجان من المترددين على المساجد وانتهاز فرصة للعبث(2).

وتظل الحوانيت والقيساريات مفتوحة لوقت متأخر من الليل. ويزداد نشاط الباعة الجائلون وصانعي الحلوى والمشروبات في أيام وليالي رمضان لزيادة الإقبال من الناس على شراء مختلف الأطعمة والأشربة(3).

وفي ليلة السابع والعشرين يختم القرآن في المساجد وتستمر صلوات التراويح إلى مطلع الفجر، ويحتفل الناس بهذه الليلة في المنازل والشوارع وتقدم الأطعمة الخاصة بهذه الليلة ويكثر من دعوة الناس للطعام وتوزيع الصدقات(4). وقد انتقد الطرطوشي هذه الاحتفالات واعتبرها بدعة يقول: «ومن البدع اجتماع الناس بأرض الأندلس على ابتياع الحلوى ليلة سبع وعشرين من رمضان»(5).

وإذا كان شهر رمضان يمثل لبعض الناس فرصة للتوبة والمغفرة بالإكثار من الصدقات وختم القرآن الكريم وقيام الليل كقول أبي بكر بن عطية(6):

لا تجعلن رمضان شهر فكاهة ... تلهيك فيه عن القبيح فنونه

واعلم بأنك لا تنال قبوله ... حتى تكون تصومه وتصونه

فإنه كان وما يزال لمن اتصف بالخلاعة والمجون شهر القيود الذي يمنعهم من ممارسة لذاتهم من عبث وشرب للخمر فيضيقون بمقدمه ويحسبون أيامه التي تمر

---

(1) ابن عذاري: م. س. 2 / 287.
(2) المقري: م. س. 2 / 151.
(3) Provencal, L. Hist. Espano. Mus. Vol. III. P 436.
(4) التادلي الزيات: التشوف، ص 282.
(5) الطرطوشي: الحوادث والبدع، ص 141.
(6) المقري: م. س. 2 / 525، التادلي: م. س. ص 96، 344.

عليهم وكأنها دهر، وقد صور لنا ابن قزمان[1] ما كان يختلج في نفسه تجاه هذا الشهر قائلاً:

شهر الصيام زال وجا شوال يا لس نسال!
من ذاب نشرب ولس نسل عن الصيام
إن القوام دون شراب عندي لس قوام

وهناك أشعار كثيرة لبعض الشعراء تبين ضيقهم بهذا الشهر وضجرهم من نصيحة البعض لهم بتجنب الحرمات فيه، فيتهمهم هؤلاء الشعراء بالفضول والتدخل فيما لا يعنيهم، ويبالغ البعض بوصف الصوم في هذا الشهر بأنه دين الرعاع، من قصيدة للوزير الكاتب أبي جعفر أحمد بن طلحة[2]:

يقول أخو الفضول وقد رآنا ... على الإيمان يغلبنا المجون
أتنهكون شهر الصوم هلا ... حماه منكم عقل ودين
فقلت اصحب سوانا، نحن قوم ... زنادقة مذاهبنا فنون
ندين بكل دين غير دين الر ... عاع فما به أبدًا ندين
بحي على الصبوح الدهر ندعو ... وإبليس يقول لنا آمين
فيا شهر الصيام إليك عنا ... إليك ففيك أكفر ما نكون

ويقول أبو الصلت أمية[3]:

أشهر الصوم ما مثلـ ... ـك عند الله من شهر
على أنك قد حرمـ ... ـت فينا لذة الخمر
وقرع الكأس بالكأس ... ورشف الثغر بالثغر

وفي ليلة التاسع والعشرين من رمضان يخرج قاضي الجماعة وقضاة الكور في الأندلس والعدوة وكذلك يخرج معهم أهل الشورى الذين عليهم التحقق من رؤية

(1) ابن قزمان: زجل رقم 119.
(2) المقري: م. س. 3 / 309.
(3) ابن سعيد: المغرب، ج1، رقم 186، ص 262.

هلال شوال، فإذا ثبتت رؤيته يعلنون بدء عيد الفطر، وأحيانًا كان عيد الفطر يتفاوت من جهة لأخرى حسب ثبوت رؤية هلال شوال، فقد ذكر ابن حيان في أحداث سنة 360هـ / 970م أن الناس أفطروا في أكثر كور الأندلس والعدوة يوم الخميس، بينما أفطر أهل قرطبة وما جاورها يوم الجمعة الموافق الثامن عشر من شهر يولية[1]. وبرؤية الهلال يتم إعلان نهاية شهر الصيام. فيتبادل الناس التهاني راجين من الله قبول صومهم، وتبدأ الاستعدادات لاستقبال عيد الفطر والتحضير للخروج في الصباح إلى المصلى لأداء صلاة العيد.

وعادة الناس أن يستعدوا قبل الأعياد بأيام وتزدحم القيساريات خصوصًا قيسارية الثوب لشراء مستلزمات الأعياد من ملابس جديدة وعطور وزيوت وصابون وتوابل وبخور، ويتجول بائعو الدوامات والصور والأبواق بين هذه القيساريات والشوارع لبيعها للصبيان والإلحاح على الآباء لشرائها لأولادهم.

وعيد الأضحى يعد من أبرز الأعياد الإسلامية التي يحتفل بها، وتمثل الأضحية أهمية كبيرة عند مختلف الأسر، «فبدون الأضحية لا يكون عيد» وتظهر هذه الأهمية على الخصوص عند الأسر المتوسطة والدنيا التي تنوء بأعباء الحياة ومتطلبات هذا العيد، مما يضطرهم إلى الاستدانة في كثير من الأحيان، وربما وصلت الخلافات في الأسرة إلى حد الفراق أو الطلاق.

وقبل عيد الأضحى ببضعة أيام تساق الخراف من البوادي إلى الحواضر والمدن وتقام لها الرحبات تسور بالأخشاب، ويتردد على هذه الأسواق الناس من جميع الطبقات، ويشتد الزحام خصوصًا يوم الوقفة (يوم عرفات) وتظل هذه الأسواق عامرة لا ينقطع عنها الناس طوال الأيام السابقة للعيد، ويكثر بها باعة الأطعمة والخبز والمشروبات كما يباع بها الأواني الخاصة بهذا العيد، وآنية الفخار المتعددة الأشكال والأحجام. ولا تخلو هذه الأسواق من المحتالين والسماسرة، وربما انتهز البعض فرصة انشغال الناس بالبيع والشراء وسرقوا أموالهم، أو سُرق كبش[2].

وإذا ما تم شراء الأضحية حمله حمال على عنقه إلى بيت المشتري الذي يوصيه طوال الطريق بالعناية به بصوت عال حتى يسمعه الناس، ويعرف الجيران بوصوله، وأثناء الطريق يسأله البعض بكم اشتراه؟ ويقارنون بين أسعار العام وأسعار العام

---

(1) ابن حيان: المقتبس، تحقيق د. الحجي، ص 28.

(2) التادلي: التشوف، رقم 88، ص 234.

الذي مضى[1].

أما أصحاب البيوتات فتصلهم الكباش من ضيعاتهم في البادية ومعها مستلزمات العيد من الدجاج والبيض والسمن والزبد والعسل وغيره، وكانت بعض الأسر الكبيرة لها عادة توزيع الكباش على بعض الشعراء وبعض الفقراء «عادة اتبعوها»[2].

ويبدو أن الإحساس بضرورة الحصول على خروف العيد كان شائعًا عند الناس حتى ولو أدى ذلك إلى الاستجداء ويظهر هذا في شعر أبي الحسن بن خروف (603 هـ / 1206م):

يا من حوى كل مجد   بجوده وبجده

أتاك نجل خروف   فجد عليه بجده[3]

ونظرًا لما كان يحدث بسبب أضحية العيد من مشاكل واستدانة، فقد اجتهد الفقهاء لإقناع الناس بأن الأضحية ليست واجبة، ولا داعي لتكليف الناس أكثر من طاقتهم.

ولم تخلو المدن الأندلسية من طرائف كثيرة كانت تقع قبل العيد عند شراء الأضحية من تصرفات بعض الشبان وتعرضهم للناس، فقد حكي عن الزهري خطيب إشبيلية وكان أعرج قد خرج مع ولده إلى وادي إشبيلية فصادف جماعة في مركب وكان ذلك قبيل عيد الأضحى، فقال بعضهم له: بكم هذا الخروف؟ وأشار إلى ولده، فقال له الزهري: ما هو للبيع؟ فقال: بكم هذا التيس؟ وأشار إلى الشيخ الزهري، فرفع رجله العرجاء وقال: هو معيب لا يجزىء في الضحية، فضحك كل من حضر[4].

وقد احتل كبش العيد مكانًا كبيرًا في أشعارهم وأزجالهم، وأمثلة عامتهم حتى أنه شغل في ديوان ابن قزمان سبعة من أزجاله[5]، فاحتل مكانًا لم تحتله زوجته أو أولاده، وجل ما كتب عن المشاكل التي تحدث في عيد الأضحى والاستعداد له لا

---

(1) ابن قزمان: زجل رقم 82.

(2) ابن قزمان: زجل رقم 8، ابن صفوان: زاد المسافر، ص 62، 63.

(3) أبو بحر إدريس بن صفوان: زاد المسافر، ص 62، 63، ابن قزمان: زجل رقم 8.

(4) المقري: م. س. 3 / 95.

(5) أزجال رقم 8، 48، 82، 85، 89، 91، 118.

تختلف عما يحدث في كل البلاد الإسلامية في عصر من العصور، فهي صور تتكرر، تصف إلحاح الزوجة والأولاد لشراء الأضحية تقليدًا للجيران وإدخال السرور على الأسرة.

وقد صور لنا شاكر الإيادي ما حدث له من محنة بسبب أضحية العيد، إذ سبقه الجيران إلى شراء كبش العيد، فما إن دخل داره حتى قابلته الزوجة بالتعيير والسباب لعجزه عن شراء الأضحية، وامتنعت عن تقديم الغداء له، وهددته بترك المنزل، وانضم إليها الأبناء مستعملين أسلحة البكاء والعويل حتى اضطر في الأخير للإذعان والخروج لشراء الأضحية، فارتاد عدة أسواق وزرائب يبحث عن كبش سمين ورخيص، ويسأل الأقارب والأصدقاء دون جدوى حتى مضى ثلثا النهار ولم يوفق في الشراء لارتفاع الأسعار، وتردد في العودة إلى المنزل خوفًا من شجار زوجته «فأنا أجد من خوفها ما يجد صغار الغنم من الذئاب». وفي أثناء هذه الحيرة مر بقصاب في مجزرة وبين يديه عنز كبير «دون البغل وفوق الحمار». وقد ارتفع صياح القصاب يعدد مزاياه وأنه «أضحية حفيلة ومنحة جليلة»، وتجمع الناس حوله يتزاحمون لرؤيته وتقليبه، وتقدم الإيادي الذي لا خبرة له، واتفق مع القصاب على أن يشتريه ولكن بالأجل، فوافق القصاب وطلب منه توثيق البيع، فلما عاد من عند الموثق لم يجد التيس الذي فر ودخل أحد الدهاليز التي يصنع فيها الفخار والطواجين الخاصة بالعيد وكانت طرية فأتى عليها التيس تكسيرًا ودعسًا وصاحب الفخار يصيح ويسب ويتوعد صاحبه، واقتيد الإيادي إلى المحتسب لتعويض صاحب الفخار، ولم يكن قد تبقى معه ما يدفعه قيمة الفخار فهدده المحتسب بالدفع أو الحبس، فضمنه أحد الأصدقاء الذي تصادف وجوده، ولما أراد الإيادي الانصراف بالتيس طالبه الشرطي بإتاوة حراسته، فلما لم يجد معه شيئًا نزع منه مئزره رهنًا، وما إن تخلص من هذه المشاكل وحمل التيس على كاهل الحمال وهو «يرغو كالبعير ويزأر كالأسد إذا فصلت العير»، حتى كانت أخبار ما حدث قد وصلت إلى داره وخرج الجيران ليعاينوا التيس، الذي ما إن طرحه الحمال في وسط الدار حتى انطلق يقفز الحيطان وعلا فوق الجدار، والأطفال تصيح من الخوف، ولم تبق عجوز في الزقاق «إلا وصلت لتراه وتسأل عما اعتراه وبكم اشتراه»، وربة البيت تسب وتلعن «لا خل ولا زيت، ولا حي ولا ميت، ولا موسم ولا عيد، ولا قريب ولا بعيد، سقت العفريت إلى المنزل ورجعت بمعز، ومن قال لك اشتره ما لم تره؟ ومن قال لك سقه حتى توثقه؟ ومتى تفرح زوجتك والعنز أضحيتك؟».

واستمرت الزوجة في تأنيب زوجها، وندب حظها العاثر الذي أوقعها في مثل هذا الزوج الذي لا يقوم بواجباته، ولا يتأسى بزوج الجيران الذي يعرف حق زوجته، ويشتري لها الغالي والثمين، ولا ينسى موسمًا ولا عيدًا، إلا وأحضر الهدايا لزوجته وأولاده[1].

واحتفالات العيد تبدأ بالصلاة، والسنة في صلاة العيدين تكون في المصلى خارج المدن ويؤم المصلين قاضي الجماعة أو صاحب الصلاة، وفي بعض الأعياد كانوا يضطرون للصلاة في المسجد إذا تصادف العيد سقوط الأمطار أو اشتعال فتنة أو حرب[2]، ومن السنة خروج النساء لحضور صلاة العيد، ولكن بعض الفقهاء كان لا يحبذ خروج النساء إلى المصلى درءاً للفتنة، بسبب اختلاط الرجال بالنساء، ولمبالغة النساء في زينتهن يوم العيد[3].

وكان الناس يحرصون على ارتداء الثياب الجديدة وأفضلها يوم العيد، ويتعطرون بالعطور الغالية أو الطيب، وتكتحل النساء وتتخضب بالحناء، وتتحلى بالذهب والحلي وقد وصفهم ابن قزمان صبيحة العيد فقال: «وقد زينت العيون بالتكحيل، والشعور بالترجيل، وكرر السواك على موضع التقبيل، وطوقت الأعناق بالعقود، وضرب العكر في صفحات الخدود، ومد بالغالية على مواضع السجود، وأقبلت صنعًا بأوشيتها، وعنت بأرديتها، ودخلت العروس في حليتها، ورقمت الكفوف بالحناء، وغص الذراع بالسوار، وتختم في اليمين واليسار»[4].

ومن العادات المتبعة في الأندلس في عهد الدولة الأموية جلوس الخليفة بعد صلاة العيد لاستقبال المهنئين، وقد أسهب ابن حيان في وصف مراسم هذه الاحتفالات بقصر الزهراء، فالخليفة كان يجلس على السرير في صدر المجلس الشرقي المطل على الرياض، وأحيانًا في المجلس الغربي من دار الروضة، ويكون أول الداخلين للسلام إخوة الخليفة، فيسلمون عليه، ويجلسون عن يمينه وشماله، ثم يدخل الوزراء والحجاب وكبار رجال الدولة وقضاة الكور والفقهاء وأهل الشورى ووجهاء قرطبة، فيسلم كل منهم ويجلس كل في مكانه[5]، كما كانت تخصص لبعض

---

(1) ابن الخطيب: الإحاطة، 3 / 425، 427.

(2) ابن حيان: م. س. تحقيق د. الحجي، ص 93، ابن عذارى: م. س. 3 / 107.

(3) ابن الحاج: المدخل، 4 / 291.

(4) ابن الخطيب: الإحاطة، 2 / 502.

(5) ابن حيان: م. س. ص 28، 59، 81، 93، 119.

رجالات الدولة أو ذوي الحظوة منح تصرف لهم سنويًا بمناسبة الأعياد خلاف رواتبهم، فقد كتب الأمير عبد الرحمن الأوسط لزرياب المغني لكل عيد ألف دينار ولكل مهرجان ونوروز خمسمائة دينار[1]. ويعم الجميع السرور وتتبادل التهاني.

وكانت قاعات القصر الموصلة إلى مجلس الخليفة تغص بالمدعوين الذين حضروا في أتم هيئة وأفخم لباس، ونظرًا لهذا العدد الغفير ربما يحدث تزاحم فلا ينتبه البعض ويسقط في البركة، وربما زاد الأمر حرجًا إذا كان لا يستطيع السباحة، فتكون نادرة يتحدث عنها الحاضرون ويتذكرونها من حين لآخر، كما حدث لصاعد اللغوي الذي دخل على المنصور يوم عيد وعليه ثياب جدد وخف جديد، فمشى على حافة البركة لازدحام الحاضرين في الصحن فزلق وسقط في الماء، فضحك المنصور وأمر بإخراجه وكاد البرد أن يأتي عليه، فخلع عليه وأدنى مجلسه[2].

ومما يذكر عن المنصور بن أبي عامر أنه ربما خرج للمصلى يوم العيد، فحدثت له نية الغزو فلا يرجع إلى قصره بل يخرج بعد انصرافه من المصلى كما هو من فوره إلى الجهاد فيتبعه عساكره وتلحق به أولاً فأول فلا يصل إلى أوائل بلاد الروم إلا وقد لحقه كل من أراده من العسكر[3].

وفي عهد أمراء الطوائف والمرابطين كان ولي الأمر يجلس لتقبل التهاني بالعيد في قصره، ولكن مجالسهم لم تكن بالفخامة التي كانت عليه في عهد بني أمية.

أما في عهد الموحدين فكان الخليفة يخرج للصلاة وبعد سماع الخطبة والدعاء يذبح كبش بين يديه ثم يعود إلى القصر وينصرف العساكر والناس إلى منازلهم لترتيب عيدهم على مجرى السنة بانصرافه، وفي اليوم الثاني للعيد يجلس الخليفة في قصره للسلام عليه والتهنئة بالعيد، ويدخل الوزير عليه من تقدمت عادته بالإدخال من أشياخ الموحدين الكبراء وأبناء الجماعة ومن يليهم على عادتهم بحسب منازلهم، وطلبة الحضر والقضاة والفقهاء والكتاب والأولياء، وأهل الوفود ووجوه أهل قرطبة من ذوي الطلبة والتعيين من أرباضهم، ويسلم جميعهم واحدًا بعد واحد يعرف باسمه وإن كان ممن يتميز يعرف الوزير باسمه وبلده ويبايع ويقبل اليد المباركة

المقري: م. س. 3 / 296.

(1) ن. م. ص 125.

(2) المقري: م. س. 3 / 95.

(3) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 38.

للبيعة، ويخرج ثم يدخل الشعراء والأدباء بما صاغوه من أشعارهم في المديح والتهنئة[1].

أما إذا صادف العيد أثناء الغزو فيأمر الخليفة الموحدي بالصلاة في الموضع ويجتمع الناس للصلاة ويخطب الخطيب الخطبة المعلومة ويدعو بالدعاء الخاص بالموحدين، ولما عرف عن الموحدين من قسوة ورهبة، فقد يقع الخطيب في الاضطراب أثناء ارتجاله الخطبة أمام الخليفة وشيوخ الموحدين والناس ينظرون إليه، فيسهو عن التكبيرة أو ينسى فاتحة الكتاب، ويبدأ بالسورة، أو يسهو عن ركعة أو تختلط عليه الخطبة، وربما نسي اسم الخليفة، أو دعا لخليفة ميت ونسي الحي[2]. وبعد الانتهاء من الصلاة يسلم على الخليفة إخوته وأشياخ الموحدين ووجوه دولته فيأمر بتوزيع الكباش عليهم[3].

بعد صلاة العيد يتوجه الناس إلى منازلهم لترتيب عيدهم على مجرى السنة بذبح الأضحية بعد أن ذبح الإمام ولكن بعض الناس كان يذبح قبل الصلاة مما جعل الفقهاء يلحون على وجوب الالتزام بالسنة ونبهوا على أن يخرج الإمام أضحيته إلى المصلى ليذبحها أمام الناس ويشاهدوه قبل انصرافهم[4]. وتبدو شوارع المدينة شبه خاوية في الصباح بعد صلاة العيد لانشغال الناس في ديورهم بتجهيز الأضحية، فيقوم رب الأسرة بذبح الأضحية أو يستأجر جزارًا لهذا العمل، والأبناء وأفراد الأسرة محلقين به «فالمقصود فرح الأولاد» وبعد سلخ الأضحية تعلق وترسل الأسرة برأس الكبش إلى الحارة حيث تشوط في حفر يجهزها الأبناء أو تجهز في الدار، وتنشغل العائلة كلها في طهي السقط ويعرف بالقلايا أو التقلاية، وربما قام الرجل والأولاد بشي القضبان، وقد صور ابن قزمان هذه المراحل من بدايتها من وقت ذهابه إلى السوق وشراء الأضحية، وما عاناه ساعة الذبح وهو «عريان في السراول» والأسرة منشغلة عنه والقطيطس يعوي، ثم جلس يصفف اللحم والدخان يؤلم عينيه:

وترى كبش معلق ... والقطيطس تحت يعوى

---

(1) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 366، ابن عذاري: م. س. قسم الموحدين، ص 118.

(2) ابن عذاري: م. س. قسم الموحدين، ص 454.

(3) ابن صاحب الصلاة: م. س. ص 421.

(4) الونشريسي: م. س. 2 / 32، 33.

وأنـــــا عريـــــان فالســـــراول أو في منـــديل خبـــز حلـــوى[1]

وتختلف الاحتفالات بالأعياد بين فئات الشعب، فاحتفـالات الخاصـة يغلـب عليها الوقار والمبالغة في البذخ وتنوع أصنـاف الحلـوى والمـأكولات بجانـب أضـحية العيد، ولبس الجديد الفاخر من الثياب والحلى، بينما تتجلى مظاهر العيد في الأحياء الشعبية بالمبالغة في الزينة وإظهار السرور وإثارة الضجيج في الشوارع والساحات التي تكتظ بالرجال والنساء والأطفال.

وكان من المعتاد في الأندلس الخروج ليلة العيـد رجـالاً ونسـاء لزيـارة المقـابر والترحم على موتاهم بلباس العيد وزينته، مما جعـل كـثيراً مـن الفقهـاء والمحتسبين يستنكر خروج النساء على الخصوص لما يتسبب عنه من فساد، وسخر ابن قزمـان في أزجاله من هذه العادة التي لا تفرق بين الحزن والفرح بخروج النساء متبرجات:

كـــل وجـــه مـــزين ليلـــة العيـــد هُ بـــرا

والبكـــا بالمقـــابر علـــى الأحبـــاب ذِ مَـــرا

احتفـــال الفجـــايع فاحتفـــال المســـر

ودمـــوع الترحـــم في ثيـــاب الشـــطار

وتقوم الأسر عادة بالتنزه على ضفاف النهر، كما تخرج الخادمـات والجـواري أمام الحرائر، وتمسك المربيات (الدايات) بالأطفال الصغار للتنزه ومشـاهدة مظـاهر العيد وشراء الحلوى واللعب، ويلمح الونشريسي إلى أنه من البدع المستحسنة في بلاد الأندلس والمغرب قـول الرجـل للآخـر في العيـد «تقبـل الله منـا ومنـك وغفـر لـي ولك»[2]. ويجد بعض الشباب الماجن الفرصة لمعاكسة النساء واعتراضـهن مما جعـل بعض المحتسبين يطالب «بأن لا يمشي الرجال مع النسـاء في أيـام العيـد علـى طريـق واحد عند جواز النهر»[3].

وقد طالت هذه العادات بلاد المغرب فكان الناس يخرجون لزيارة المقـابر بعـد صلاة العيد، ويحدثنا ابن الصيرفي عن تعاطف النـاس بعـد مـوت المعتمـد بـن عبـاد

(1) ابن قزمان، زجل رقم 89، وانظر كتابنا: الأندلس في نهاية المرابطين، ص 325، 326.

(2) الونشريسي: م. س. 2 / 461.

(3) ابن عبدون: م. س. ص 47.

والتفافهم حول قبره بعد صلاة العيد يتوجعون له ويترحمون عليه، ووقف على قبره شاعره ابن عبد الصمد الذي اتفق وجوده بينهم فأنشد قصيدة طويلة منها:

ملك الملوك أسامع فأنادي أم قد عدتك عن السماع عواد

لما خلت منك القصور فلم تكن فيها كما كنت في الأعياد

أقبلت في هذا الثرى لك خاضعًا واتخذت قبرك موضع الإنشاد[1]

وعندما أكمل القصيدة خر بعدها باكيًا يعفر وجهه في تراب قبر المعتمد، وعلا نشيج الناس وعويلهم، واخضلت لحاهم بالدموع، وقد ترددت أصداء ذلك حتى عمت البلد فتحول العيد إلى مأتم[2].

ويختلف الإحساس ببهجة العيد من شخص إلى آخر فقد يمر كغيره من الأيام العادية أو أسوأ منها، فيزداد كربه ويضيق صدره، وربما أدركه العيد خارج وطنه، فيشعر بالأسى لفراق الأحباب والأوطان ويزداد حنينه في هذه الأيام التي يجتمع فيها مع الأهل والأحباب، قال ابن جبير عندما أدركه العيد في إحدى قرى مصر:

شهدنا صلاة العيد في أرض غربة بأحواز مصر والأحبة قد بانوا

فقلت لخلي في النوى جد بمدمـ ـع فليس لنا إلا المدامع قربانُ[3]

بينما لا يحس بهذا الشعور المسافر من أجل الحج فهو من ناحيته مشغول الفكر بهذه المناسبة، ويعني العيد قرب العودة للأهل والأحباب.

ويشتد الإحساس بهذه الغربة إذا أدرك العيد المرء وقد فرغ ماله ولم يكن يعرف أحدًا ببلاد الغربة فيزداد ألمه وتحسره على فراق الأوطان في أيام العيد وقد ذكر عبد الرحمن بن مروان الأنصاري القنازعي أحد علماء قرطبة ما حدث له عندما أدركه العيد في مصر وقد نفذت نقوده فيقول: «كنت بمصر وشهدت العيد مع الناس فانصرفوا إلى ما أعدوه وانصرفت إلى النيل وليس معي ما أفطر عليه إلا شيء من بقية ترمس بقي عندي في خرقة، فنزلت على الشط وجعلت آكله وأرمي بقشره إلى مكان منخفض تحتي وأقول في نفسي: ترى إن كان اليوم في مصر في هذا العيد أسوأ

---

(1) ابن الخطيب: أعمال الأعلام تحقيق بروفنسال، ص 165.

(2) عبد الواحد المراكشي: م. س. ص 162.

(3) المقري: م. س. 2 / 492.

حالاً مني؟ فلم يكن إلا ما رفعت رأسي وأبصرت أمامي، فإذا برجل يلقط قشر الترمس الذي أطرحه ويأكله فعلمت أنه تنبيه من الله عز وجل وشكرته»[1].

وقد يثير العيد في النفس الشجن والحزن على ما آل إليه حال البعض من تحول الزمان وغروب العز، وزوال السلطان، فأول عيد مر على المعتمد بن عباد في أغمات ذكره بما كان عليه، وما صار إليه، فلما دخل عليه أولاده يهنئون بالعيد قال:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورًا فساءك العيد في أغمات مأسورًا

أفطرت في العيد لا عادت مساءته فكان فطرك للأكباد تفطيرًا[2]

وقد ينكب البعض من رجالات الدولة في يوم العيد، إذ يأمر السلطان بثقافه أو قتله، فيتحول احتفال أهله إلى مأتم، فقد قبض على يوسف الفهري والصميل بن حاتم يوم الأضحى سنة ثمان وثلاثين ومائة[3]. وقام الخليفة عبد الرحمن الناصر بذبح ابنه عبد الله صبيحة الأضحى بيده عندما وشوا به إليه وأمر بقتل أصحابه. وأمر الخليفة عبد المؤمن باعتقال والي إشبيلية أبا زكريا يحيى بن يومور، فاعتقل بمصلى العيد يوم الفطر من عام تسعة وأربعين فوضع في الحديد وأرسل إلى المغرب[4].وقديتوفى رب البيت أو أحد أفراد الأسرة أو أحد الأصدقاء المقربين، فينقلب الفرح ترحًا وألمًا[5].

وربما انتهزت فرصة الاحتفالات بعيد الأضحى فيبايع لولي عهد السلطان[6].

وقد تنقلب احتفالات الناس في الشوارع إلى مأساة أو ثورة خصوصًا إذا رافقت هذه الاحتفالات مناسبة تدشين أعمال أو تهيئة جيش للغزو كما حدث في قرطبة سنة 514هـ / 1120م، فقد أمر الأمير علي بن يوسف بإحياء المنجنيق والآلات الحربية وتجهيزها، فلما كمل تجهيزها وجاء عيد الأضحى انتهز عامل المدينة الفرصة لمشاهدة التجربة وحضر الناس من جميع أنحاء قرطبة وأرباضها للمشاهدة

---

(1) ابن سعيد: المغرب، ج1 ، رقم 114، ص 166.

(2) المقري: م. س. 4 / 273.

(3) ابن عذاري: م. س. 2 / 47، المقري: م. س. 3 / 53.

(4) ابن عذاري: قسم الموحدين، ص 53.

(5) عبد الواحد المراكشي: م. س. ص 49.

(6) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 308، أخذ السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني البيعة لولده عبد الواحد سنة 669هـ في عيد الأضحى / 21 يونيه سنة 1271م.

«وأقبل السواد الأعظم الذي لا يطاق حضور العيد، وحضور كل ذاعر وناعق من كل حدب شاهق». وكثر تدافع الناس وتزاحمهم، وفي هذه الأحوال ينتهز البعض من ضعاف النفوس والذعار فرصة التزاحم واختلاط الرجال والنساء فتمتد الأيدي بالسرقة أو التطاول على النساء، وحدث أن امتدت يد عبد من عبيد المرابطين إلى امرأة وأمسكها فاستغاثت، وأغاثها الناس وهجموا على عبيد المرابطين، وهاجموا قصر الوالي وانتهبوا ما فيه وأحرقوا دور المرابطين، وفر الوالي بصعوبة، واشتعلت الفتنة مما استدعى حضور أمير المسلمين على رأس جيش كبير من المغرب حاصر به قرطبة، وبعد تدخل أولي الأمر من الفقهاء رضي علي بن يوسف بأن يعوض أهل قرطبة المرابطين الذين تضرروا[1].

وحدثت مثل هذه الأحداث المؤسفة في احتفالات عاشوراء إذ تصادف الاحتفال خروج حملة للغزو أمر بها الخليفة الناصر صاحب الشرطة أحمد بن يعلى لغزو الفاطميين في الأسطول والخروج إلى إفريقية، فبرز ابن يعلى إلى محلة الربض لغزاته في الثامن من المحرم، وكان بروزًا فخمًا خرج إليه من النظار من أهل قرطبة، «خلق لا يحصيهم إلا خالقهم» من الرجال والنساء والأطفال، وانتشروا بأنحاء الربض على عادتهم، فأخذ السفلة منهم والغوغاء يتقاذفون بالحجارة حاكين لصفي القتال، ودخل في عرضهم قوم من جند السلطان الطنجيين شجعوا الضراب بينهم حتى حمي وطيسه، وتكثف صفيهم من النظارة خلق عظيم من الرجال والنساء، ولم يمض وقت انتصر فيه أحد صفيهم، فمالوا على مغلوبهم وانبسطوا عليهم، فانتهز الطنجيون الفرصة، وهجموا على المغلوبين وامتدت أيديهم إلى نهبهم وتخطوهم إلى من حولهم من النظارة، وسلبوا النساء ثيابهن «وفضحوا كثيرًا منهن، فجعل المجردات من النساء يتوارين في الزرع المكتل حياء من الناس وترقبًا لوقت تفرقهم»[2].

وعيد عاشوراء من الأعياد التي احتفل بها المسلمون في المغرب والأندلس وكانوا يحتفلون به لعدة أيام تبدأ من فاتح شهر المحرم وتنتهي في العاشر منه وهو عيد الفاكهة والحلوى، فالتوسعة فيه على الأهل والأقارب واليتامى والمساكين وزيادة

---

(1) ابن عذاري: م. س. قسم الموحدين ص 6، الحلل الموشية: ص 86، ابن الأثير: الكامل، 10 / 197. وانظر كتابنا: الأندلس في نهاية المرابطين، ص 76.

(2) ابن عذاري: م. س. 2 / 333.

النفقة مندوب إليه[1]. وإذا كانت احتفالات عاشوراء عند الشيعة تكتسي بمظاهر الحزن والحداد بسبب استشهاد الحسين رضي الله عنه، فالعكس عند أهل السنة، ويبدو أن الأمويين في الأندلس هم أول من شجع على الاحتفال بعاشوراء وإظهار مظاهر الفرح والسرور في هذه المناسبة نكاية بالفاطميين.

فكان الناس يشترون فواكه الموسم المتعددة والجافة وأنواع الياميش والحلوى، ويختصوه بطهي الدجاج واستعمال البخور والحناء، ويذكر الونشريسي أنهم «يعدون طعامًا معلومًا لا بد من فعله»[2]. وما زالت هذه العادات ممارسة ببلاد المغرب.

وكان بعض الأدباء والفقهاء يحصلون على عطايا من الأمراء والحكام في هذا العيد، فقد كتب عبد الملك بن حبيب إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط في ليلة عاشوراء يذكره بما تعود عليه من عطاء يرسله له في هذا العيد:

لا تنسى لا ينسيك الرحمن عاشوراء	واذكره لا زلت في الأحياء مذكورا
من بات في ليل عاشوراء ذا سعة	يكن بعيشه في الحول محبورا
فارغب فديتك فيما فيه رغبتنا	خير الورى كلهم حيًا ومقبورا[3]

واحتفل المسلمون في المغرب والأندلس بالمولد النبوي، وكانت بداية الاحتفال بهذا العيد في سبتة سنة 648هـ / 1250م ثم انتشر منها إلى كل بلاد المغرب والأندلس، وهو من مآثر أبي القاسم العزفي، فكان يطعم فيه أهل بلده ألوان الطعام ويوزع على أولادهم ليلة يوم المولد قطع الصرف الجديد، وتعطل المحاضر والصنائع والحوانيت في هذا اليوم، ويمشون في الأزقة يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم، وطوال اليوم يسمع المسمعون لجميع أهل البلد مدح النبي عليه السلام[4].

وتفنن المسلمون بعد هذا في الاحتفال بالمولد النبوي وصار من أعياد المسلمين التي يحرص على الاحتفال بها، فيتزينون بأحسن الثياب ويركبون فاره الدواب

(1) كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحث المسلمين على صوم عاشوراء والتوسعة فيه على أهل البيت، روي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من أوسع على عياله وأهله يوم عاشوراء أوسع الله عليه سائر سنته». المنذري: الترغيب والترهيب، 2 / 29، 30.

(2) الونشريسي: م. س. 7 / 99.

(3) ابن الخطيب: م. س. 3 / 552، ابن حيان: المقتبس، تحقيق د. محمود مكي، ص 47، 48.

(4) ابن عذاري: م. س. ص 398.

ويكثرون في تلك الليلة من إيقاد الشموع إظهارًا للفرح بمولد الرسول عليه السلام. ويذكر الونشريسي أن هذا الاحتفال لم يسلم من البدع، واختلاط الرجال والنساء واستعمال أدوات اللهو عند الاجتماع في هذه الليلة، ويكثر التصدق في هذا اليوم على الفقراء والتوسعة على الأسرة في الطعام وإيثار هذا اليوم بأطعمة خاصة، بل لقد فضل بعض الفقهاء ليلة المولد النبوي عن ليلة القدر[1]، وأوصى بعض الناس بجزء من أملاكهم لإقامة ليلة المولد ببلدهم والاحتفال بها[2].

وكان أول من احتفل بالمولد النبوي من بني مرين يعقوب بن عبد الحق، فاحتفل بهذه الليلة في فاس، واستمع إلى قصائد الشعر في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وكلمات الخطباء، ومن بعده أمر ابنه يوسف بتعميم الاحتفال بالمولد النبوي في جميع جهات المغرب المريني. ثم بعد ذلك أضيفت إلى ليلة المولد الاحتفال بسابعه في عهد السلطان أبي سعيد الأول وكان يعهد إلى ابنه وولي عهده أبي الحسن بالإشراف على هذه الاحتفالات[3]، وكانت الدولة تتكفل بنفقات الاحتفالات بليلة المولد في كل جهات المغرب، وقد وصف محمد بن مرزوق في كتابه المسند الصحيح الحسن احتفال السلطان أبي الحسن المريني بهذه الليلة، ويذكر أن السلطان دأب على أن يقيم ليلة المولد حضرًا وسفرًا، ويستعد لها بألوان الأطعمة والحلويات، وأنواع الطيب والبخور، مع إظهار الزينة والاحتفال في ترتيب المجالس وإعدادها، فإذا حلت ليلة الاحتفال، وأدى السلطان صلاة المغرب ونافلتها، توجه إلى مجلسه في مكان الاحتفال، ثم يجلس الناس حسب مراتبهم، ويأخذون المجالس على طبقاتهم، فينتظمون في أحسن زي، وأجمل شارة، ثم يقدم الطعام على ترتيب مخصوص، يتلوه من الفواكه الطرية ما يوجد في إبانه، وبعدها يؤتى بالفواكه اليابسة، ثم الكعك والحلويات، وأخيرًا ألطاف السكر، وجميع ذلك على أعجب ما يتحدث به، كثرة وحسنًا، وربما اختلفت العادة في التوالي مرة، وفي الفترة أخرى، وقد يقع الطعام بعد العشاء الآخرة[4].

فإذا استوت المجالس وساد الصمت، قام قارىء العشر فرتل حصة من القرآن

---

(1) الونشريسي: م. س. 11 / 278، 279، 280 ـ 288.

(2) ن. م. 7 / 99 ـ 100، 102 ـ 103

(3) المنوني: ورقات عن الحضارة المغربية، ص 268، ط 1979.

(4) ابن مرزوق: المسند الصحيح، تحقيق د. ماريا خيسوس بيجيرا، ص 152، 153.

الكريم، ويتلوه عميد المنشدين فيؤدي نوبته، ثم يأتي دور قصائد المديح والتهاني بليلة المولد الكريم، من نظم شعراء المملكة والزائرين، فتلقى على نظام محفوظ، وترتيب محكم، على قدر المنازل والرتب والمناصب، بعد هذا تسرد المعجزات النبوية، وتكثر الصلاة على الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهي من أعاجيب ما يرى في بلاد المغرب، فإذا قضيت صلاة الصبح تقدم ألوان الطعام المخصصة بهذا الوقت، وجميع ما يفضل من بخور وشموع يقتسمه الفقراء المسافرون على قدر استحقاقهم، فيجتمع لهم من ذلك العدد الكثير[1].

وفي صباح يوم سابع المولد يجلس الكتاب لتوزيع العطاء على الأشراف وأعيان الفقهاء والأئمة والخطباء والقضاة الواردين، فيعطى كل على قدره كسوة تخصه، وإحسانًا للبعض. وكان يفرق في ليلة المولد النبوي مائة ألف دينار عليهم وعلى كل من له وظيف يقوم به ليلة المولد من المائة إلى العشرة، وهذا دأبه كل عام. وكان السلطان أبو عنان يسك بهذه المناسبة دينارًا ذهبيًا كبيراً من زنة مائة دينار، ليقدمه إلى إحدى الشخصيات الزائرة ضمن صلة عيد المولد النبوي[2].

وقد ابتكرت تحسينات على قاعة الاحتفال منها الساعة الميكانيكية التي جمل بها السلطان أبو عنان هذه الليلة المباركة لمعرفة الأوقات الليلية، بها اثنا عشر طاقًا يعلوها شكل هلال يدور عليها، وفي داخل كل طاق صورة جارية، فإذا حلت الساعة المعنية أعلن عنها الطائر الجاثم أعلى الساعة بواسطة صنجة يلقيها إلى طست، فتبرز جارية في يمينها رقعة بالساعة المعنية، لتضعها بين يدي أبي عنان، بينما تجعل يسراها على فيها كالمبايعة[3].

وأصبح الاحتفال بالمولد النبوي في الثاني عشر من ربيع الأول عيدًا عامًا يحتفل به المغرب والأندلس، ويحتفل به على مختلف المستويات، فتقام الأفراح وتتضاعف الأضواء ويتجمل بأحسن الثياب، واعتبر هذا اليوم موعد دخول الصبيان للكتاتيب القرآنية بفاس، وكان البعض يأتي بهم في موكب صاخب بالبوق والطبل وأنواع الطرب، ومناسبة للزواج وختان الأطفال[4].

---

(1) ن. م.

(2) ن. م.

(3) ن. م.

(4) المنوني: ورقات عن الحضارة المغربية، ص 270.

وكانت تزين الكتاتيب القرآنية وتضاء الشموع لهذه المناسبة، ويجتمع الأطفال لترديد الصلوات النبوية، ويتقدم أحدهم من أصحاب الصوت الحسن لترتيل عشر من القرآن الكريم، ثم ينشد قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ويأتي المعلم بمنشدين يترنمون بالأمداح النبوية طوال الليل، ويعطي كل أب لولده شمعة كبيرة تساوي ثلاثين إبرة، ومنها ما يساوي أكثر أو أقل على حسب ثروة الأب، وعلى الشمعة نقوش وزخرفة بالألوان والخطوط الهندسية، وصور أزهار بارزة من الشمع، وتوقد هذه الشموع من أول الليل إلى الشروق، وما بقي من الشمع يأخذه المعلم ويبيعه، وربما اجتمع لديه من ذلك كمية كبيرة على حسب كثرة تلاميذه[1].

وكان شعراء الملحون يجتمعون ليلة المولد النبوي بقاعة سيدي فرج بالعطارين في مدينة فاس، فينشدون أشعارهم التي نظموها لهذه المناسبة، ويستمر الاحتفال طوال الليل إلى صلاة الفجر.

واحتفل المتصوفة أيضًا بهذه المناسبة المباركة، فيجتمع المريدون بمنزل شيخهم يستمعون للوعظ والتذكير، وربما أنشد منشد أشعارًا في المديح النبوي الشريف، ويحتفل في هذه الليلة بإطعامهم، وينار المكان بقناديل الزجاج والشموع.

وقد انتشر تقليد الاحتفال بالمولد النبوي في دول المغرب، في المغرب الأوسط والأدنى، ففي تونس في دولة السلطان أبي يحيى بن أبي بكر الحفصي أراد إقامة رسم المولد النبوي على العادة المغربية من الاحتفال في الأطعمة، وتزيين المحل بحضور الأشراف، وتخير القوالين للأشعار الموزونة بالأصوات المطربة[2].

واحتفل بنو زيان بتلمسان في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني، فقد ذكر المقري أن السلطان كان يحتفل لليلة المولد النبوي غاية الاحتفال فكان يدعو إليه الأشراف والعامة وتغطى أرض المشور الذي يقام فيه الاحتفال بالزرابي والبسط الموشاة والوسائد المذهبة وتوقد «شموع كالاسطوانات وأعيان الحضرة على مراتبهم تطوف عليهم ولدان قد لبسوا أقبية الخز الملون وبأيديهم مباخر ومرشات ينال كل منها بحظه «وموائد كالهالات» وقد اشتملت من أنواع الأطعمة التي تشتهيها الأنفس وتستحسنها الأعين»، وتلذ بسماع أسمائها الآذان، ويشره مبصرها للقرب منها والتناول وإن كان ليس بغرثان. وقد رتب الناس حول الموائد حسب مراتبهم، «وقد

---

(1) المنوني: م. س. ص 270.

(2) النبهاهي: المرقبة العليا، ص 162.

علت الجميع أبهة الوقار والإجلال»، ويعقب ذلك إنشاد أمداح المصطفى عليه السلام أو مكفرات[1] ترغب في الإقلاع عن الآثام، يخرجون فيها من فن إلى فن ومن أسلوب إلى أسلوب. ويستمر هذا الحفل إلى صلاة الفجر والسلطان لا يفارق مجلسه الذي جلس فيه[2]. وكان بعض الملوك ينظم قصيدًا في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، يبتدئ المسمع بإنشاده في ذلك الحفل الكبير، ثم يتلوه إنشاد من رفع إليه نظمًا في تلك الليلة المباركة[3]. وبالقرب من السلطان كانت توجد الساعة (المنجانة) قد زخرفت كأنها حلة يمانية، لها أبواب موجفة على عدد ساعات الليل الزمانية، فمهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها، وفتح عند ذلك باب من أبوابها، وبرزت منه جارية صورت في أحسن صورة، في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطورة، فتضعها بين يدي السلطان بلطافة، ويسراها على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة[4].

وكانت هناك أعياد موسمية للمسيحيين شاركهم فيها المسلمون، فاحتفلوا بعيد ينير، ويقع في بداية السنة الميلادية في أول يناير من كل عام، ويعرف أيضًا بعيد النيروز، وكان يقام له احتفال كبير في المنازل والشوارع حيث تقام الموائد الكبيرة في الحارات وتسمى النصبات ويضع عليها الباعة أصناف الحلوى والفواكه، وروي أن النصبة في بعض بلاد الأندلس يبلغ ثمنها سبعين دينارًا أو يزيد، لما فيها من قناطير السكر وأرباع الفانيد وأنواع الفواكه وغرائر التمر وأعدال الزبيب والتين على اختلاف أنواعها وأصنافها وألوانها، وضروب ذات القشور من الجوز واللوز والقسطل والصنوبر والبلوط إلى قصب السكر، ورائع الأترج والنارنج والليمون وفي بعض المدن يضاف طاجن السمك المملح، وينفقون فيه ثلاثين درهمًا أو نحوها[5].

وتصنع لهذا العيد حلوى خاصة تسمى المدائن لأنها تشكل على هيئة مدن صغيرة ذات أسوار، وكان أهل المغرب والأندلس يصنعون منها أشكالاً من أصناف

---

(1) المكفرات: أشعار تقال في التزهيد فتكفر ما كان من عبث، وهي تشبه المحصات. المقري: م. س. 6 / 513 هامش 1.

(2) المقري: ن. م، ص 513، 514، 515.

(3) ن. م. ص 515.

(4) ن. م. ويوجد وصف أكثر تفصيلاً في نفس ص 514.

(5) الزجالي: أمثال العوام، تحقيق د. محمد بنشريفة، 1 / 239.

الفواكه التي يحتفل في اختيارها، ويتباهى في الإنفاق فيها على قدر وسعة المحتفل، ثم يدفع ذلك كله إلى الصغار لإدخال السرور عليهم وتوسيعًا في الترفيه لأحوالهم وتبشيرًا بخصب عامهم وتفاؤلاً ببسط الرزق، ويتفاخرون بينهم وتبقى لديهم أيامًا بحسب كثرتها وقلتها، ويأتون عليها أكلاً وتفكهًا بما يصحبها من أصناف الطرف والفواكه[1].

وقد وصف ابن عبد الملك المراكشي المدائن التي كان يصنعها أهل الأندلس والمغرب بأنها تنقش وتصنع في أشكال من العجين، مركبة على البيض المصبوغ بالحمرة أو الخضرة، أو بغير هذه الألوان بحسب المتخير لها، ثم يفرم الجميع بالزعفران ويطبخ في الفرن، ويجمع إليه أصناف الفواكه التي يتفنن في اختيارها على حسب ذوق صاحبها ومقدرته[2].

ونظم الشعراء والزجالون في حلوى ينير القصائد فقال ابن قزمان:

الحلون يعجن والغزلان تباع
يفرح لليِنير من ماعُ قطاع
لقد ذا النصيات أشكالاً ملاح[3]

وأعجب الشاعر أبو عمران موسى الطرياني ت 604هـ بواحدة منها فوصفها قائلاً:

مدينة مسورة تحار فيها السحرة
لم تبنها إلا يد عذراء أو مخدرة
بدت عروسًا تجتلي من درمك مزعفرة
وما لها من مفاتح إلا البنان العشرة[4]

وكان هذا العيد يشكل عبئًا على رب الأسرة خصوصًا إذا ابتلي بزوج تطالبه بشراء مستلزمات هذا العيد من الطرف والغذاء والفواكه واللحوم وأدوات الزينة من

---

(1) ن. م. وانظر كتابنا: الأندلس في نهاية المرابطين، ص 326، 327.

(2) الزجالي: م. س.

(3) ابن قزمان، زجل رقم 72.

(4) المقري: م. س.

حناء وعطور، وقد نظم الشاعر الساخر أبو عبد الله محمد بن مسعود حوارًا دار بينه وبين زوجه ورفعه إلى ممدوحه يطلب منه العون على شراء مطالب الأسرة في هذا العيد فيقول:

أبا القاسم اسمع من عبيدك طرفة ... أبثكها فأذن لها تلج الأذنا
دنت ليلة النيروز منا ولم تكن ... لترضى لنا فيها من العيش بالأدنى
وقالت خُجولي سر إلى السوق واحتفل ... ولا تبق فيها من جراديقها منا
وقف بابن نصر واحشون ثم قُفّة ... من أطرف ما يحويه كي تذهب الشجنا
وجز بالفتى الجزار واختره هابلاً ... بقد ابن فتوي أبي بكر المضنى
ولا بد من أترجة صعترية ... وإياك أن تنسى التوابل والحنا
فقلت وأين النقد يا ابنة عزة ... لقد جئتها بلقاء منتنة نتنا
فقالت: أديب شاعر متفنن ... حوى من حظوظ الظرف في زعمه الأسنى
بلا قطعة. هذي لعمرك هجنة ... فسر راشدًا عنا فما لك من معنى
لئن لم تجيء بالتين ألبست شيرة ... وبالزيت أضحى سجنك البيت والدنا
فلا ينكسر بالله جاهي عندها ... وخذ في الذي أحتاج شعري ذا رهنا[1]

وكان الناس يتبادلون الهدايا في هذا العيد[2]، ويتقدم الشعراء بالتهاني لكبار رجال الدولة وأعيان البلاد[3]، وكان من الأيام المناسبة لعقد الزيجات وإقامة الأفراح[4]. وكان هذا العيد فرصة لتنشيط قريحة الشعراء في وصف الطبيعة في هذا العيد[5].

---

(1) ابن بسام: الذخيرة، قسم واحد، 2 / 78 ـ 79.
(2) الفتح بن خاقان: القلائد، ص 84، 85، 98، 271.
(3) ن. م. والصفحات.
(4) تزوج المنصور بن أبي عامر من أسماء بنت غالب صاحب طليطلة في ليلة النيروز.
ابن عذاري: البيان المغرب، 2 / 269.
(5) قصيدة ابن شهيد التي يصف فيها مظاهر الربيع في عيد النيروز. ديوان ابن شهيد، ص 125.

وعيد العنصرة أو المهرجان كان يحتفل به في شهر يونية وقد نقل ابن خلكان عن بعض الأندلسيين: «أن يوم العنصرة يوم مشهور ببلاد الأندلس، وهو موسم للنصارى كالميلاد ونحوه، وهو اليوم الرابع والعشرون من حزيران، فيه ولد يحيى بن زكريا عليه السلام»[1].

وكان المسلمون يشاركون المسيحيين باحتفالاتهم بهذا العيد بمختلف طبقاتهم الاجتماعية ويتهادون فيه، وتميز عيد العنصرة أو المهرجان بشعلة النار التي يسمونها العنصرة التي يقيمونها في الحارات ويقفزون فوقها، وكان لهذا العيد صدى في أمثالهم العامية فيقولون: «الكبش المصوف ما يكفز العنصرة»[2]، «كفزها بحل عنصر»[3]، ويقولون: «خروجك من ينير أخير من خروجك من العنصر»[4]. لأن بعد العنصر الخريف والشتاء.

ويحتفل الأولاد في هذا العيد برش الناس بالماء في الأسواق والشوارع، ويلعبون بالمقارع والعصي مما جعل بعض المحتسبين يطالبون بمنع ما يفعله السفلة والصبيان من الرش بالماء في الأسواق والشوارع وتزليق الطرق يوم المهرجان، والنهي عن اللعب بالمقارع والعصي في الطرقات حتى لا يتأذى المارة[5].

ويذكر العزفي في «الدر المنظوم» أن النساء كن يرششن بيوتهن بالماء يوم عيد العنصرة ويلقين في ثيابهن ورق الأكرنب، ويغتسلن في هذا اليوم[6]، وتعد في ذلك اليوم أطعمة خاصة ويحرص الناس على شراء المجبنات والإسفنج تشبهًا بالنصارى[7].

وقد صور الوزير الشاعر حسان بن مالك بن أبي عبدة (ت 414هـ / 1023م) هذا العيد وازدهار الطبيعة والعادات في هذه الأبيات:

أرى المهرجان قد استبشرا ... غداة بكى المزن واستعبرا

وسربلت الأرض أمواهها ... وجللت السندس الأخضرا

---

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 7 / 227.

(2) الزجالي: م. س. رقم 373.

(3) ن. م. رقم 1148.

(4) ن. م. رقم 914.

(5) الجرسيفي: رسالة في الحسبة، ص 124.

(6) العزفي: الدر المنظوم في مولد النبي العظيم، نشر لاجرانخا، مجلة الأندلس، سنة 1969، ص 30.

(7) الطرطوشي: الحوادث والبدع، ص 141.

وهـــز الريـــــاح صـــــنابيرها		فضـــــوعت المســـــك والعنـــــبرا
تهـــادى بـــه النـــاس ألطافـــه		وســـام المقـــل بـــه المكثـــرا[1]

وشارك المسلمون المسيحيين في الاحتفال بخميس أبريل أو خميس العهد ويأتي قبل عيد الفصح بثلاثة أيام، فكان الاحتفال يتتابع هذه الأيام، وكان المسلمون يقلدون النصارى في شراء الأطعمة الخاصة بهذه الأيام والفاكهة ويتبادلون الهدايا، وعيد خميس أبريل والفصح كان يصادف شهور الربيع واعتدال الجو وتنوع الأزهار والفواكه، وكانت الكنائس تحتشد في هذه الأعياد بالمسيحيين حيث تجري المراسم الدينية والصلوات الخاصة بهذه الأعياد، ويبدو أن بعض المسلمين كان يصحب المسيحيين إلى كنائسهم لمشاهدة الاحتفالات، ويظهر ذلك من شعر ابن الحداد الذي أحب فتاة مسيحية تبعها حتى دخلت الكنيسة يوم عيد الفصح فيقول في قصيدة طويلة يصف هذا الاحتفال:

أفصـــح وجـــدي يـــوم فصـــح لهـــم		بـــين الأريطـــي[2] والـــدوحات
وقـــد أتـــوا منـــه إلى موعـــد		واجتمعـــوا فيـــه لميقـــات
بموقـــف بـــين يـــدي أســـقف		ممســـك مصـــباح وميســـاة
وقـــد تلـــوا صـــحف أناجيلـــهم		بحســـن ألحـــان وأصـــوات[3]

وكانت مشاركة المسلمات صديقاتهن المسيحيات وذهابهن معهن إلى الكنائس مما أزعج بعض المحتسبين فطالب ابن عبدون بأن «تمنع النساء المسلمات من دخول الكنائس المشنوعة، فإن القسيسين فسقة زناة لوطة»[4].

---

(1) المقري: م. س. 2 / 314، ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص 27.
وذكرت الأبيات مضافة إليها أبيات أخرى ونسبت إلى الشاعر عبد الرحمن بن عثمان الأصم في الحميدي: جذوة المقتبس، ص 276، الضبي: بغية الملتمس، رقم 1032، ص 355.
(2) الأريطي تصغير الأرطي وهو نبات ذو ثمر مر تأكله الإبل.
(3) ابن بسام: م. س. قسم 1، 2 / 705.
(4) ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص 48.

وعيد العصير كان من الأعياد الموسمية التي يحتفل بها الجميع، والاحتفال بعيد العصير كان يستغرق عدة أيام، وكان وقت عيد العصير في الخريف عند جني العنب، فيخرج الناس مع أولادهم وعائلاتهم إلى الحقول والبساتين القريبة، وقد ارتدوا أحسن وأجمل ما عندهم من الملابس والحلي، ويصحبون معهم أصناف المأكولات والمشروبات، وآلات الموسيقى والطرب فيرقصون ويعبثون، وينزلون في الأودية والأنهار ويسبحون ويستحمون، ويبقون على هذا الحال عدة أيام. مطمأنين إلى أسلحتهم التي يحملونها، ومعتمدين على أن هذه الجنان والبساتين قريبة من المدن والقرى التي يسكنونها، ولأن الدولة تزيد من إجراءات الحراسة[1].

وقد اعتبر أبو بكر الطرطوشي هذه الأعياد من البدع التي يقلد فيها المسلمون المسيحيين في الاحتفال بها فيقول: «ومن البدع اجتماع الناس بأرض الأندلس على ابتياع الحلوى ليلة سبع وعشرون رمضان، وكذلك على إقامة ينير بابتياع الفواكه كالعجم، وإقامة العنصرة، وخميس أبريل، بشراء المجبنات والإسفنج وهي من الأطعمة المبتدعة».

كما انتقدها بشدة الأمير أبو القاسم العزفي وعلل انتشارها بين المسلمين بمجاورة النصارى ومخالطتهم، وفي المغرب بالاتباع والقدوة، وذكر أنه «ما عبر من ذاك البر (الأندلس) إلى هذا البر (المغرب) بدعة لا أشنع منها ولا أضر»[2]، ويعلل العزفي أن من أسباب تلك البدع وانتشارها بين المسلمين «مطاوعة الرجال للنساء على الاستعداد لها والتفخيم لشأنها وانقيادهم لهن في ذلك عامًا بعد عام، حتى رسخت في صدورهم»[3]. وأضاف العزفي تأثر المسلمين بجوار النصارى «ومخالطتهم لتجارهم ومكاشفتهم عند الكينونة في إسارهم»[4].

لا شك أن كل البلاد الإسلامية تنوعت احتفالاتها بالأعياد والمواسم وشارك

(1) ابن الخطيب: الإحاطة، 1 / 138، ابن قزمان: زجل رقم 50، ابن عبدون: م. س. ص 54.
(2) مجهول: بلغة الأمنية، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، ص 22.
(3) العزفي: م. س. ص 28.
(4) ن. م. ص 21.

المسلمون غيرهم في احتفالاتهم، كما شارك غير المسلمين في الاحتفالات بالأعياد، وكانت الاحتفالات بالأعياد صورة واضحة عن تعايش الناس ومشاركتهم داخل البلاد الإسلامية وامتزاج العادات والتقاليد بين جميع أفراد المجتمع.

* * *

المصادر والمراجع

- ابن أبي زرع: روض القرطاس. الرباط، 1973.
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ. ط بولاق 1303هـ.
- ابن بسام: الذخيرة. تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1977.
- ابن الحاج: المدخل. ط2، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ابن حيان: المقتبس. تحقيق د. محمود مكي.
- ابن حيان: المقتبس. تحقيق د. الحجي.
- ابن الخطيب: الإحاطة. تحقيق محمد عبد الله عنان.
- ابن الخطيب: أعمال الأعلام. تحقيق د. أحمد العبادي، الدار البيضاء 1964.
- ابن خلكان: وفيات الأعيان. تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1968.
- ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب. تحقيق د. شوقي ضيف، ط 3 القاهرة 1978.
- ابن شهيد: الديوان. تحقيق د. محمود مكي.
- ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة. تحقيق د. عبد الهادي التازي، بيروت 1964.
- ابن صفوان (أبو بحر): زاد المسافر.
- ابن عبدون: رسالة في الحسبة. نشر ليفي بروفنسال 1455.
- ابن عذاري: البيان المغرب. تحقيق إحسان عباس، بيروت 1967.
- ابن قُزمان: الديوان. تحقيق د. كورينتي.
- ابن مرزوق: المسند الصحيح. تحقيق د. ماريا خيسوس.
- التادلي: التشوف. تحقيق د. أحمد التوفيق، كلية الآداب، جامعة محمد الخامس.
- الحميدي: جذوة المقتبس. نشر محمد بن ثاويت الطنجي، القاهرة 1952.
- الجرسيفي: رسالة في الحسبة.
- الجزنائي: زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تلمسان 1922.
- الزجالي: أمثال العوام. تحقيق د. محمد بنشريفة.
- الضبي لتحية الملتمس. مجريط 1884.
- الطرطوشي: الحوادث والبدع.

- عبد الواحد المراكشي: المعجب. تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة 1949.
- العزفي: الدر المنظوم في مولد النبي العظيم. نشر لاجراتحا، مجلة الأندلس 1969.
- الفتح بن خاقان: قلائد العقيان. ط بولاق 1283هـ.
- المقري: نفح الطيب. تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1968.
- المنذري: الترغيب والترهيب.
- النبهاهي: المرتبة العليا. نشر ليفي بروفنسال 1948.
- مجهول: بلغة الأمنية. تحقيق عبد الوهاب بنمنصور.
- الونشريشي: المعيار. نشر وزارة الأوقاف بالمملكة المغربية.
- د. عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين. دار الغرب، بيروت.

***

من مظاهر الحياة الاجتماعية بالأندلس

(طقوس الجنائز)

من مظاهر الحياة الاجتماعية بالأندلس
(طقوس الجنائز)

محطّاتٌ ثلاثٌ تعدُّ أهم الأحداث في حياة الإنسان، الميلاد، والزواج، والموت. ومع أن الميلاد والموت لا دخل للإنسان فيهما، مع ذلك تكثر الكتابات حول هذه الأحداث، ولكنها تختلف وتتفاوت من حدث لآخر. فالميلاد بداية الحياة، والزواج مرحلة النضج والسعادة وإنجاب الذرية، بينما الموت نهاية المطاف الذي لا بدّ منه.

وترتبط بكلٍ من هذه المناسبات مظاهرُ اجتماعيّة واحتفالاتٌ بالمناسبات السعيدة أو الحزينة. ولا شك في أن هذه الاحتفالات تصحبها كثير من العادات والتقاليد والبدع التي قد تختلف ـ في كثير أو قليل ـ من بلد إلى آخر. والمجتمع الأندلسي امتاز ببعض السمات والخصوصيات التي لازمته في معظم فتراته، نظرًا لتعدد أجناسه وتداخلها نتيجة التزواج وانصهار هذه الأجناس وذوبانها في المجتمع الإسلامي مع احتفاظها بكثير من عاداتها وتقاليدها قبل الإسلام. كما كان لوجود عدد من النصارى واليهود داخل هذا المجتمع أن جعله مجتمعًا تتميَّع فيه التقاليد الإسلامية وتختلط بين ما هو إسلامي وما هو غير إسلامي.

فإذا أخذنا طقوس الجنائز في الأندلس، فهذا لا يعني أنه يختلف في كثير من العادات والتقاليد عنه في أنحاء شتى من العالم الإسلامي، ولكنه مع ذلك له بعض الخصوصيات.

ومن الملاحظ في الفتح الإسلامي تخصيص مكان يكون مقبرة للمسلمين. وبعد فتح الأندلس، أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز والي الأندلس السمحَ بن مالك الخولاني بتحبيس قطع من أراضي الخمس لتكون مقابر للمسلمين، كما كان بعض المسلمين يحبِّس قطعة أرض أو فدانًا أو أكثر لمقبرة، ويمنع استغلال هذه الأحباس في غير ما حُبست له. وكانت لهذه الأحباس احترامُها وعدم المساس بها، حتى ولو هجرت المقبرة ولم يعد يدفن فيها. ومع ذلك، فهناك بعض التجاوزات وعدم احترام ذلك باغتصاب بعض القبور، ولكنها حالات فردية ونادرة الحدوث. فقد ذكر ابن حيان ما فعلته صنهاجة بجثة أحدهم الذي قتله باديس بن حبوس، إذ خرجوا بالجثة على نعش للمقبرة فوجدوا قبرًا قد احتفر لميت من أهل البلد فصبوا صاحبهم الصنهاجي فيه وواروه من غير غسل ولا كفن ولا صلاة؛ فعجب الناس من

سجيتهم في الاغتصاب حتى الموتى في قبورهم[1].

والمقابر عادة ما تقام خارج المدينة أو خارج أسوارها بجوار أحد أبوابها، ومن خلال المصادر، تعرفنا على عدد كبير من المقابر المشهورة بالأندلس. في قرطبة مقبرة أم سلمة وابن عباس وقريش والربض العتيقة والجديدة وروضة الصلحاء ومقبرة متعة ومؤصرة وحلال وابن عباس الوزير وغيرها.

وفي إشبيلية مقبرة مُشْكَة والنخيل والفخارين وروضة سوق البقر خارج باب قرمونة أحد أبواب إشبيلية، ومقبرة الصلحاء خارج باب مقرانة، وكدية الخيل خارج إشبيلية.

ومن غرناطة مقبرة باب فنتالة، وجبانة باب الفخارين من أسفل السفح تجاه القصور الحكمية، ومقبرة الصلحاء.

وفي ألمرية مقبرة الأخرس بالربض ومقبرة باب بجانة ومقبرة الحوض.

وفي بلنسية مقبرة باب الحنش وباب بيطالة وباب الخير والمصلى.

وفي مرسية مقبرة ابن فريح بربض سرحان ومقبرة باب أحمد.

ولكن كثيرًا ما تتسع المدينة وتمتد خارج أسوارها. وبذلك تصبح بعض من هذه المقابر داخل المدينة فيجتازها الناس والعجلات والحيوانات اختصارًا للطريق كما حدث في مقبرة متعة. بل كانت جنائز النصارى تمرُّ منها، مما استدعى تدخل قاضي المدينة ومحتسبها لمنع هذه الأمور التي تخل بحرمة الموتى[2]؛ بل من الممكن أن تتقارب مقبرة للمسلمين مع أخرى لأهل الذمة، إذ كانت مقبرة حلال لا يفصلها عن مقبرة اليهود إلا الطريق السالك بجوفي قرطبة[3].

وأحيانًا تصب بعض القنوات في المقابر، ممّا يتسبب في إتلافها كما حدث لقنوات عامر التي رفعت بشأنها شكاية للأمير، فأمر القاضي والفقهاء بالانتقال والمعاينة وإعلامه بصحة الشكوى ومدى التلف الذي لحق بالمقبرة، فكان الرأي وجوب ردم هذه القنوات لكف أذاها عن إتلاف المقابر وصيانة حرمة الأموات مهما طال عهدها، إذ لا تقادم ولا تهاون في تلك الحرمة[4].

---

(1) ابن الخطيب: الإحاطة، 1 / 466.

(2) خلاف: القضاء، ص 412.

(3) ابن بشكوال: الصلة، ج1، رقم 675، ص 295.

(4) خلاف: م. س. ص 405.

ولم يأنف البعض أن تكون سكناه بجوار المقبرة، تطل عليها. فقد كان لنصر الخصي قصر بمنيته إلى جانب مقابر الربض، ويطل أيضًا على الوادي الكبير[1]، وكان يطيب للفقيه أبو وهب عبد الأعلى الإقامة بجنته بقرب مقبرة قريش، وكان يعتمرها بيده ويقابل بها طلبة العلم[2].

والقبور في بداية الفتح كانت بسيطة البنيان ترتفع قليلاً عن الأرض، وكان القضاة والمحتسبون يأمرون حفاري القبور بتعميقها قدرًا معقولاً بحيث لا تظهر روائحها ولا يتمكن السباع والكلاب من نبشها، وأن يستر ما خرج من عظام الموتى في التراب ولا يتركه ظاهرًا[3]. وتظهر المشكلة عندما يكون الدفن في وقت الشتاء وتكون الأمطار غزيرة فتدخل المياه للقبر الذي حُفِر، مما يستدعي نزح المياه وفرش القبر بالرمال[4].

وبمرور الزمن واتساع العمران والرخاء بالأندلس، شمل التغيير كل مناحي الحياة، حتى الموت ومراسيم الجنازة والقبور، ولم يستثن منها طبقة الخاصة أو العامة، فتبدّع الأندلسيون في بناء القبور والقباب والسقائف والروضات عليها، وتفننوا في زخرفتها ونقشها، وبلغت أوجها في دولة غرناطة النصرية. ولكن هذا لم يمنع بعض أولي الأمر من العلماء في كل عصور الأندلس - من الإمارة إلى السقوط - من أن يأمروا بهدمها وتغييرها وحط سقفها وما علا من حيطانها، ولا يترك منها إلا ما أباحه أهل العلم من الجدران اليسير ليتميز به قبور الأهلين والعشائر. وقد حفلت كتب النوازل وكتب الحسبة بمثل هذه الأوامر. كما كان يلاحظ في المباني المطلّة على المقبرة ألا تكون لها نوافذ أو أبواب تفتح أو تطل عليها، ويؤمر أصحابها بإزالة المخالفات أو سد الكوى والنوافذ المطلة على القبور، حتى لا تكشف النساء. ويمنع بناء الأخبية على القبور أو السكنى بها، أو تجول الباعة في طرقها، وشدد أولو الأمر على المحتسب بأن يمر في اليوم مرتين لمراقبة الشباب العابث الذي يعترض النساء داخل أفنية المقابر خصوصًا أيام الصيف عند خلاء الطرق في القيالات[5].

---

(1) ابن حيان: المقتبس، تحقيق مكي، ص 12.

(2) ابن الأبّار، التكملة، ج2، رقم 1863، ص 751.

(3) عياض: نوازل الأحكام، تحقيق د. بنشريفة، ص 301. وابن رشد: الفتاوى، رقم 1242، وابن عبدون: رسالة في القضاء والحسبة، ص 27.

(4) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، سفر 6، رقم 440، ص 166.

(5) المصادر السابقة.

واتخذ أهل الأندلس شواهد للقبور من الرخام الفاخر المصقول الذي كانت تشتهر به ألمرية وغيرها من مدن الأندلس، ونقشوا عليه اسم المتوفى وتاريخ وفاته، وتبارى البعض في كتابة المراثي وذكر فضائل الميت والمبالغة في ذكر خصاله وأفعاله، وكانت تتسم بالطول أو القصر على حسب مكانة صاحب القبر. وهناك أمثلة كثيرة لذلك، منها على سبيل المثال ما كتب على قبر ملك غرناطة النصري إسماعيل بن فرج: فقد كتب على لوح من الرخام بإزاء رأسه: «هذا قبر السلطان الشهيد فتّاح الأمصار، وناصر ملة المصطفى المختار، ومحيي سبيل آبائه الأنصار، الإمام العادل الهمام الباسل، صاحب الحرب والمحراب، الطاهر الأنساب والأثواب، أسعد الملوك دولةً، وأمضاهم في ذات الله صولةً، سيف الجهاد ونور البلاد.

وفي الجهة الأخرى من اللوح قصيدة طويلة من نظم ابن الجياب[1].

ومثل الأشعار التي كتبت على قبر المنصور بن أبي عامر:

آثاره تنبيك عن أوصافه — حتى كأنك بالعيان تراه

تالله لا يأتي الزمان بمثله — أبدًا ولا يحمي الثغور سواه[2]

ومن الناس من كان ينظم لنفسه بعض الأبيات ويوصي بأن تكتب على قبره بعد وفاته. وهناك نماذج كثيرة: فقد نظم ابن زهر الحفيد أبياتًا أوصى أن تكتب على قبره، وفيها إشارة إلى طبه ومعالجته للناس:

تأمَّل بفضلك يا واقفًا — ولاحظ مكانًا دفعنا إليه

تراب الضريح على صفحتي — كأني لم أمش يومًا عليه

أداوي الأنامَ حذار المنون — فها أنا قد صرت رهنًا لديه[3]

وأمر الوزير الكاتب أبو بكر بن مغاور بكَتْبِ هذه الأبيات على قبره، وهي له:

أيها الواقف اعتبارًا بقبري — استمع فيه قول عظمي الرميم

---

(1) ابن الخطيب: الإحاطة، 1 / 401، 402.

(2) المقري: م. س. 3 / 189.

(3) المقري: نفح الطيب، 3 / 434.

أَوْدَعوني بطنَ الضريح وخافوا		من ذنوب كلومها بأديمي
قلت لا تجزعوا عليَّ فإني		حسن الظن بالرؤوف الرحيم
ودعوني بما اكتسبت رهينًا		غلق الرهن عند مولى كريم(1)

ونظم ابن الزقاق هذه الأبيات، ويقال إنها مكتوبة على قبره:

إخواننا والموت قد حال دوننا		وللموت حكم نافذ في الخلائق
سبقتكم للموت والعمر طيه		وأعلم أن الكل - لا بد - لاحقي
بعيشكم أو باضطجاعي في الثرى		ألم تك في صفو من العيش رائق
فمن مر بي فليمض لي مترحمًا		ولا يكُ منسيًّا وفاء الأصادق(2)

وأوصى أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بكتابة هذه الأبيات على قبره:

سكنتُكِ يا دَارَ الفناء مصدّقًا		بأني إلى دار البقاء أصير
وأعظم ما في الأمر أني صائر		إلى عادل في الحكم ليس يجور
فيا ليت شعري كيف ألقاه عندها		وزادي قليل والذنوب كثير
فإن أكُ مجزيًّا بذنبي فإنني		بشر عقاب المذنبين جدير
وإن يكُ عفو من غني ومفضل		فثمّ نعيم دائم وسرور(3)

ولبس أهل الأندلس البياض في المناسبات الحزينة بعكس أهل المشرق الذين يلبسون السواد. وقد قال بعضهم في هذا المعنى:

ألا يا أهل أندلس فَطِنْتُمُ		بلطفِكُمُ إلى أمرٍ عجيبِ
لبستم في مآتمكم بياضًا		فجئتم منه في زَيٍّ غريب
صدقتم فالبياض لباس حزن		ولا حزن أشد من المشيب(4)

---

(1) ن. م. 3 / 331، 4 / 342.
(2) ن. م. 4 / 340، الديوان، ص 205.
(3) المقري، م. س. 3 / 297.
(4) المقري: م. س. 3 / 440، الشريشي: المقامات، 1 / 49.

وتختلف المراسيم المتبعة في الوفاة من حالة إلى أخرى، خصوصًا إذا كان الميت مغضوبًا عليه من السلطان أو بالأحرى قتل بأمره أو بيده. وكثيرًا ما نجد إشارات كثيرة في المصادر إلى قيام بعض أولي الأمر بقتل منافسيهم أو الخارجين عليهم، أو حتى أبنائهم بأيديهم. وتكون سمة الوحشية ظاهرة في الانتقام: فقد أمر المستنصر الموحدي بضرب ابن غالب الداني ألف سوط وصَلْبه، فضُرِب بإشبيلية خمسمائة وفاضت روحه؛ إلا أنهم استمروا في ضربه بقية الألف حتى تناثر لحمه ثم صُلِب، فرثاه ابنه بقصيدة منها:

جهلاً لمثلك أن تَبْكِي لما قُدِرا ... وأن يقول أسى يا ليته قُبِرا

فاضت دموعك أن قاموا بأعظمه ... وقد تطاير عنه اللحم وانتثرا

ضاقت به الأرض مما كان حملها ... من الأيادي فمجت شِلْوَهُ ضَجَرا

وعز جسمك أن يحظى به كَفَنٌ ... فما تسربل إلا الشمس والقمرا[1]

وقام علي بن حمود بقتل الخليفة المستعين بالله سليمان بن الحكم صَبْرًا بيده في قرطبة بدعوى أخذه بدم هشام المؤيد، وقال عندما همَّ بقتله: «لا يقتل الزلطان إلا الزلطان»، يعني: السلطان، ثم أمر بقتل أخيه وأبيه، وقطعت رؤوس الثلاثة في طست، وأخرجت من القصر إلى المحلة ينادي عليها هذا جزاء من قتل هشامًا، ثم ردت الرؤوس الثلاثة وغسلت وطيبت وأمر بدفنها مع أجسادها[2].

وأمر المعتضد خادمين من فتيانه بقتل الفقيه أبي حفص عمر الهوزني، ولكنهما أشفقا من سوء فعله، وفرّا لا يباليان بغضب المعتضد أو سروره، فقام إليه بنفسه وباشر قتله بيده ثم أمر بدفنه بثيابه دون غسل أو جنازة.

وإذا كانت المثلة بجثث الموتى أو بنبش قبور المسلمين من قبل النصارى قد أصبحت عادة متبعة من قبلهم، فإنه كان من غير المقبول من قبل المسلمين في أي عصر من العصور مهما كان الدافع. فالإسلام نهى عن المثلة وأمر باحترام الميت، ومع ذلك كان يحدث في بعض الأحيان المثلة بجثث الخصوم أو نبش قبورهم تَشَفِّيًا وحقدًا. فعندما أوقع ابن حفصون بسوار بن حمدون سنة 277 هـ ـ وكان علمًا من

(1) ن. م. ص 310.

(2) ابن الخطيب، م. س. 4 / 274.

أعلام العرب وصاحب لواء قيس بالأندلس - جيء بجثة سوار إلى ألبيرة لعرضها، فذكر أن الثكالى من نسائها قطعن لحمه مزقًا، وأكلنه حنقًا لما نالهن من الثكل إغراقًا في شهوة التشفي[1].

وكان المعتضد يتلذذ برؤية رؤوس ضحاياه التي احتفظ بها بطريقة تمنعها من التحلل، ووضع في أذن كل رأس اسم صاحبها، فلما فتح المرابطون إشبيلية، دفعوا بهذه الرؤوس إلى أهلها لدفنها[2].

واعتاد أهل الأندلس في حالة الوفاة الطبيعية أن ينعوا الميت بأن يصعد أحد الناس إلى صومعة المسجد الجامع أو الأعظم في ربع النهار ويقرأ شيئًا من القرآن، ويذكر مثل ما يفعل المؤذن بالليل، ثم يدور في الصومعة ويقول: فلان مات وجنازته في كذا، فاشهدوا جنازته. كما يسير شخص في أسواق وطرق المدينة يعلن عن الوفاة ومكان الجنازة[3].

ويُجَهَّز الميت للدفن. وكان الذي يقوم بهذا العمل مستأجرًا أو متطوّعًا، فكان يستأجر من يقوم بالغسل والتكفين لقاء أجر معين يُتَّفَقُ عليه، ويشترط فيه أن يكون على معرفة بخطوات الغسل. فكثيرًا ما يكون الغاسل جاهلاً بما هو متبع، أو يهمل أو يسهو عن بعضها، فكان يستحب أن يقف معه أحد قرابة الميت أو أحد أصدقائه من العلماء[4].

وفي حالة وفاة أحد العلماء كثيرًا ما يقوم بعض من رفاقه بهذا العمل متطوّعًا أو يكون المتوفّى قد أوصى بأن يقوم بهذه المهمة أحدٌ بعينه. فعندما توفي أبو عبد الله محمد بن نوح وكان من كبار المقرئين، تولّى غسله المؤذن أبو عبد الله بن الرقام، وتولى صب الماء عليه أبو الحسن بن خيرة الخطيب وابنُ واجب وأبو الربيع بن سالم[5].

واستعمل في تكفين الميت أثواب القطن أو الكتان أو الحرير تباهيًا وفخرًا.

---

(1) ن. م. 3 / 331.

(2) ابن الأبار: الحلة السيراء، 2 / 50.

(3) ابن الحاج: المدخل، 2 / 226، ابن رشد: البيان والتحصيل، الونشريسي: المعيار، 1 / 317، ابن عبد الرؤوف: آداب الحسبة، ص 69، 76.

(4) ابن الحاج، م. س، 3 / 254.

(5) ابن عبد الملك: م. س. سفر 6، رقم 436، ص 137، ابن بشكوال: الصلة، ج 1، رقم 557، ص 240.

وكان بعض العلماء يوصي بأن يكفَّن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميصٌ ولا عمامة[1].
وكان بعض الأمراء يتولّون تجهيز الميت، خصوصًا إذا كان من الفقهاء والعلماء ورجالات الدولة احترامًا وتقديرًا، فيرسلون إلى ذويهم الأكفان والحنوط[2].

ومن البدع التي شاعت وأصبحت من أعرافهم في بعض الأوساط أنهم - بعد غسل الميت وتكفينه - يأتون به إلى حضرة الر جال إن كان رجلاً أو إلى النساء إن كانت امرأة، فيلقي المعزون بالمال فوقه[3]. بعد ذلك، يحمل السرير أو المحفة المشيعون من الأهل والأصدقاء أو فرسانه وخدمه[4]. وكان يحدث عند حمل الميت الجَهْرُ بالتهليل والتصلية والتبشير والتنذير ونحو ذلك على صوت واحد[5].

وعند خروج الميت من منزله يقيمون الصيحة العظيمة نساء ورجالاً وقد يختلطون ويسمون ذلك وداعًا للميت وقيامًا بحقه[6]. والأدهى أن هذه الأمور كانت تحدث في بيوت اشتهر عن أصحابها العلم. فابن حزم يذكر ذلك عند حديثه عن وفاة إحدى قريباته[7].

وإذا كان المتوفى فتى أو فتاة لم يتزوج، كانوا يودعونه بالزغاريد[8].

وقد يتبع الجنازة الشموع والنساء والنوائح حاسرات الرأس مكشوفات الوجوه، مما يستدعي في كثير من الحالات تدخل القضاة والمحتسبين لمنعهن من السير وراء الجنازة، وزجر من يشجعهن على ذلك[9].

وقد ذكر أن القاضي أبا بكر بن يعيش كان يتصدى بنفسه لمنع النساء من الخروج من باب طليطلة خلف الجنائز، وكان هذا العمل أحد الأسباب التي أدت إلى كراهية الناس له وأدت إلى عزله[10].

---

(1) ابن بشكوال: الصلة، ج 1، رقم 557، ص 240.
(2) عياض: المدارك، ج 4، رقم 647.
(3) ابن الحاج، م. س. 3 / 258.
(4) ابن الخطيب، م. س. 3 / 344.
(5) الونشريسي، م. س. 1 / 313.
(6) ابن الحاج، م. س. 3 / 257.
(7) ابن حزم: طوق الحمامة، ص 80.
(8) الونشريسي، م. س. 1 / 334.
(9) السقطي: رسالة في الحسبة، ص 48.
(10) عياض، م. س. ج 4، رقم 755.

ويختلف موكب الجنازة بحسب مكانة المتوفى. فإن كان من أكابر الدولة والعلماء والفقهاء أو الصلحاء، فإن الأمراء كثيرًا ما كانوا لا يتخلفون عن تشييع الجنازة، فكانوا يسيرون على أقدامهم إكبارًا واحترامًا لشخصية المتوفي. وربما ذهب راكبًا ويترجل أمام قبره ويقف إلى أن يوارى لحده تنويهًا بقدره وإشادة ببقاء الحرمة على خلفه[1].

ولم يكتف الأمراء بتشييع رجالات الدولة بل تعدوه إلى تشييع بعض نساء الخاصة أيضًا. فقد مشى الأمير الحكم بن هشام في جنازة زوجة الفقيه طالوت بن عبد الجبار راجلاً إلى مقبرة الربض، ثم انصرف معه إلى منزله مشاركة منه في حزن الفقيه على زوجته. وعندما توفيت أم الخليفة هشام المؤيد السيدة صبح سنة 388هـ[2]، احتفل المنصور بن أبي عامر في جنازتها ومشى فيها حافيًا مبالغةً في الحزن وصلى عليها ووزع خمسمائة دينار على قبرها[3].

وكانت الجنائز التي يشيعها الأمراء وأصحاب السلطان فرصة لأن يتصدى لهم المتظلّمون لعرض مظلمتهم[4].

ويزدحم الناس خاصة وعامة لشهود جنازة المتصوف الذي شهر عنه الصلاح وإجابة الدعوة. ويتنافسون على حمل نعشه على الأنامل[5]. وربما مزّقوه أو كسروه تبركًا به[6]. فكانت جنازة الشيخ الصوفي أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الأنصاري المعروف بالصناع (ت 749هـ) «آخذة في الاحتفال قدم لها العهد، ونفر لها الناس من كل أوب، وجيء بسريره تلوح عليه العناية وتحفه الأتباع المقتاتون من حل أموالهم وأيديهم من شيوخ البادية، فتولوا مواراته تعلو الأصوات حوله ببعض أذكاره»[7].

ويصف ابن الخطيب جنازة الصوفي أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري

---

(1) انظر على سبيل المثال: الذيل والتكملة، سفر 6، رقم 424، ص 159، رقم 684، ص 236، رقم 705، ص 252، رقم 833 / ص 318، 306، ص 316، 1021، ص 380، 1263، ص 489، التكملة رقم 162، الإحاطة 4 / 80، 107، 110.

(2) عياض: المدارك، 2 / 506. ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، بقية سفر 4، رقم 274.

(3)خلاف، م. س. ص 90.

(4) المقري، م. س. 3 / 37.

(5) ابن عبد الملك، م. س. سفر 6، رقم 1021، ص 380.

(6) ابن الأبار: التكملة، ج 2، رقم 1671، ص 652.

(7) ابن الخطيب: الإحاطة، 1 / 230.

المعروف بالساحلي بأنها «كانت مشهودة: تزاحم الناس على نعشه، وتناولوه تمزيقًا على عادتهم من ارتكاب القحة الباردة في مسلاخ حسن الظن»[1].

ولم يقتصر الأمر على صلحاء الرجال، بل كانت جنازة بعض النساء اللائي عرف عنهن الصلاح يتزاحم عليها المشيعون من الرجال والنساء والصبيان. فقد وصف ابن بشكوال جنازة فاطمة أخت الفقيه يوسف بن يحيى المغامي بأنه «لم ير على نعش امرأة قط ما رئي على نعشها»[2].

وكثيرًا ما كان يصلي على المتوفى أحدٌ من أفراد أسرته، خاصة إذا كانت أسرة من العلماء، كأن يصلي الابن على الأب أو العكس أو يصلي الأخ على أخيه. وهناك شواهد كثيرة على ذلك[3]. ومنهم من كان يوصي بأن يصلي عليه شخص بعينه، مثل وصية أبي القاسم محمد بن عبد العزيز بن عتاب الذي أوصى بأن يصلي عليه صهره القاضي أبو عبد الله بن أصبغ[4]. وهناك أمثلة كثيرة.

ويتم الدفن عادة في مقابر المدينة إلا إذا أوصى المتوفّى بغير ذلك: بأن يدفن مثلاً داخل مسجد بناه[5]، أو في داره. فقد أعد أبو الوليد سعد السعود بن عفير الأموي قبرًا لنفسه بجوفي داره وأوصى أن يُدْفَنَ فيه وكان يتعاهده بتقديسه والقراءة فيه حتى توفي (ت 588 هـ)[6]. وأوصى الوزير أبو عامر بن شهيد بأن يدفن بجنب صديقه أبو الوليد الزجّالي[7].

وغالبًا ما يدفن العلماء والصالحون بجوار بعضهم إجلالاً لقدرهم، أو يختار بعض الناس الدفن بجوارهم لما ورد: «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم». فابن عبد الملك يذكر أن أبا الحسن محمد بن عبد العزيز الشقوري (ت 579هـ). دفن بمقبرة أم سلمة على قارعة الطريق إزاء قبر هارون بن سالم وحيث قبر ابن حبيب وابن

---

(1) ن. م. ص 241.
(2) ابن بشكوال، م. س. رقم 1527، ص 653.
(3) على سبيل المثال: صلاة قاضي الجماعة ابن رشد على ابنه، وصلاة ابن حمدين على والده، وابن حسون صفوان بن إدريس على ابنه، وأبي القاسم بن بشكوال على أخيه أبي عبد الله.
(4) ابن عبد الملك، م. س. سفر 6، رقم 1046، ص 391.
(5) ابن الأبار: التكملة، ج 1، رقم 242، ص 93، رقم 532، ص 201.
(6) ابن عبد الملك، م. س. سفر 4، رقم 44، ص 18.
(7) ابن بسام، الذخيرة، القسم الأول، مجلد 1، ص 333.

وضاح، قدس الله تربتهم[1].

وفي كثير من الأحيان يلحد العلماء أقرانهم أو شيوخهم. فعندما مات أبو عبد الله محمد بن قاسم المعروف بالقطان، ألحده في قبره الخطيب القاضي أبو عبد الله الطنجالي[2]. وقام أبو الحسن بن خيرة الخطيب بجامع بلنسية بالصلاة على ابن نوح وإقباره في مقبرة باب الحنش ونزل معينًا له في إقباره الأستاذ أبو عبد الله بن أبي البقاء[3].

وفي حالة الأوبئة أو الفتنة والفوضى، كثيرًا ما يخاف الناس من الاشتراك في صلاة الجنازة كما حدث أثناء الفتنة البربرية في قرطبة التي لقي فيها كثير من القضاة حتفهم. وتدفن الجثث جماعيًا، وفي بعض الأحيان تترك في العراء لا تجد من يدفنها مدّة[4].

وإذا مرت الجنازة أمام أحد، عليه أن يقف إذا كان جالسًا ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ويدعو للميت بالرحمة والغفران. ومن الناس إذا مرت أمامه جنازة حركت فيه الموهبة الشعرية فيرتجل بعضًا من نظمه. قال أبو الحسن الألبيري[5] عندما مرّت أمامه جنازة أحد أصدقائه:

تَمُـرُّ لِـدَاتي واحِـدًا بَعْـدَ واحِـدِ ... وأعْلَـمُ أنّـي بعْـدَهُم غَيْـرُ خالِـدِ

وأحمِـلُ موتـاهُم وأشْـهَدُ دَفْـنَهُمْ ... كـأنّي بعيـدٌ عـنْهُمُ غـيرُ شـاهِدِ

فهـا أنـا فِـي عِلْمـي لَهُـمْ وَجَهـالَتي ... كمسـتيقظ يَرْنُـو بِمُقْلَـةِ راقِـدِ

وفي نفس السياق قال أبو إسحق الفزاري[6]:

لا دار للمـرء بعـد المـوت يسـكنها ... إلا الـتي كـان ـ قبـل المـوت ـ بانيهـا

فـإن بناهـا بخـير، طـاب مسـكنها ... وإن بناهـا بشـرٍّ، خـاب بانيهـا

---

(1) ابن عبد الملك، م. س. سفر 6، رقم 1037، ص 387. ابن الأبار، م. س. ج 2، رقم 1436.

(2) ابن الخطيب، م. س. 3 / 242.

(3) ابن عبد الملك، م. س. سفر 6، رقم 346، ص 137.

(4) ابن بشكوال، م. س. ج 1، رقم 571، ص 246، رقم 580، ص 254.

(5) المقري، م. س. 3 / 189.

(6) ابن الأبار، م. س. ج 2، رقم 1929، ص 786.

أموالنـــا لــذوي المــيراث نجمعهــا ودورنـــا لخـــراب الـــدهر نبنيهـــا

وللحتـــوف تربــي كـــل مرضـــعة وللبلـــى بـــرأ الأرواح باريهـــا

ومن المفارقات في الجنائز التي لا تتناسب مع جديّة الموقف ما يفعله الذين يسبقون الجنائز ويجلسون لانتظارها ويتحدثون في التجارات والصنائع وأمور الدنيا، بل بعضهم يفعل ذلك والميت يُقْبَرُ، وبعضهم يتضاحكون حين يتكلمون، وآخرون يتبسمون، وآخرون يستمعون منشغلين عما يلزم من إظهار الحزن والاعتبار[1]. خرج القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى بن يحيى إلى حضور جنازة. وكان لرجل من إخوانه منزل بقرب مقبرة قريش، فعزم عليه في الميل إليه، فنزل وأحضر طعامًا، وغنت جارية:

طابَـــتْ بطِيـــبِ لِثاتِـــكَ الأقـــداحُ وزهَـــتْ بحُمْـــرَةِ وجْهِـــكَ التُّفّـــاحُ

وإذا الربيـــع تنسَّـــمَتْ أرواحـــه نَمَّـــتْ بعُـــرْفِ بسـيمِكَ الأرواحُ

وإذا الحنـــادس ألبســـت ظلماءهـــا فضـياءُ وجهِـك في الـدّجى مصـباحُ

فكتبها القاضي طربًا على ظهر يده. قال الراوي: فلقد رأيته يكبر على الجنازة والأبيات على ظهر يده[2].

وفي بعض الأحيان يفاجأ بأن تابوت القبر ليس على قياس الميت، مما يستدعي حشره أو خروجه عدة مرات حتى يسوى على قده. يقول ابن عبدون: «فإني رأيت ميتًا قد أخرج من قبره ثلاث مرات، ورأيت آخر يدخل فيه بالضغط»[3].

بعد الدفن يتلقى أهل الميت العزاء عند المقبرة أو في منزلهم أو ترسل تعزية إذا تعذر الحضور. وهناك نماذج كثيرة لذلك. وذكر ابن بسام أن الوزير أبا الوليد بن زيدون عندما توفيت ابنته، وبعد الفراغ من دفنها، وقف الناس عند منصرفهم من الجنازة ليتشكر لهم. فقيل: إنه ما أعاد في ذلك الوقت عبارة قالها لأحد. فإذا كان في تلك الجنازة على الأقل ألف رئيس ممن يتعين عليه أن يتشكر له ويضطر إلى ذلك، فيحتاج في هذا المقام إلى ألف عبارة مضمونها الشكر. وهذا كثير إلى الغاية، لا سيما

(1) ابن عبد الرؤوف: رسالة في الحسبة، ص 76، ابن الحاج، م. س. 3 / 269.
(2) المقري: م. س. 3 / 564.
(3) ابن عبدون، م. س. ص 48.

من محزون فقد قطعه من كبده))[1].

وتحفل المصادر الأدبية وغيرها بما يسمى أدب التعازي، فشهر عن كثير من كتاب الأندلس البراعة فيه أمثال ابن أبي الخصال والحافظ بن عبد البر وغيرهم كثير، كما لا يخلو ديوان من دواوين شعراء الأندلس أو غيرهم من أشعار قيلت في العزاء أو الرثاء. وأصدقه ما نظم ممن له صلة بالمتوفى، فإنه نابع من قلب محزون لفقد حبيب أو صديق.

ويقام المأتم سبعة أيام يُزارُ القبر فيها كل صباح ويقرأ عليه القرآن[2]. وقد ذكر أن أبا بكر محمد بن محرز المعروف بالمتانجشي بلغ به الحزن على فقد زوجته بنت الحضرمي مبلغًا كبيرًا، فكان يذهب إلى قبرها ويرتجل قطعة شعر فيها كل صباح حتى أكمل السابع منها، قال:

يا ربة القبر فوق القبر ذو حرق ... يبكي له القبر من شجو ومن شجن

تباينت فيك أحوالي أسى فمضى ... إلى لقائك صبري طالب الوسن

وخالف القلب فيك العين من كمد ... فاسود بالغم وابيضت من الحزن[3]

ويقول أبو عامر بن الحمارة في رثاء زوجته وكان يهواها:

أزينب إن ظَعَنْتِ فإنَّ ظَهْرًا ... أَقَلَّكِ سوف تركبه المقيم

بأية حجة أسعى لأنثى ... سواك وأنت هامدة هشيم

ولما أن حللت الترب قلنا ... لقد ضلت مواقِعِهَا النجوم

ألا يا زهرة ذبلت سريعًا ... أضن المزن أم ركد النسيم[4]

وعندما نعي إلى ابن حزم امرأة كان يحبها، قام فارًّا نحو المقابر وصار يمشي بينها مرتجلاً:

وددت بأن ظهر الأرض بطن ... وأن البطن منها صار ظهرا

(1) ابن بسام، م. س. مجلد 1، رقم 1، ص 339. المقري: م. س. 3 / 565.

(2) الونشريسي، م. س. 1 / 323.

(3) ابن الأبار، م. س. ج 2، رقم 1400، ص 44.

(4) ابن سعيد: رايات المبرزين، تحقيق د. النعمان القاضي، ص 128.

وأنـــي مـــت قبـــل ورود خطـــب أتـــى فأثـــار في الأكبـــاد جمـــرا
وأن دمـــي لِمَـــن قـــد بـــان غُسْـــلٌ وأنَّ ضُـــلوعَ صَـــدْري كـــنَّ قَبْـــرا[1]

وكان بعض النـاس يوقـدون في البيـت الـذي تـوفي فيـه الشـخص شمعـة أو مصباحًا طوال أيـام المأتم السبعة، ويقـرأ القـرآن على قبره، كما يقرأ في المنزل. وكان يستأجر لذلك قراء للرجال وقارئات للنساء وأحيانًا يقرأ عميان الرجال للنساء[2].

ولم تقتصر هذه المراسيم على طبقات النخبة من المجتمع، بل تعدته إلى شـرائح أخرى قلدتها فيه. فقد أقيمت جنازة كبيرة لقنبوط الملهى وزربوط الطنبـوري المغـني. وأقام الطنبوريون أصحابه عليه مأتمًا مشهودًا، وحزن الناس عليهما. يقول ابن حيان: «فهيهات أن يخلف الدهر مثلهما»[3].

ويصف ابن حيان[4] طقوس امرأة من الطبقة الدنيا، وعدها من عجائب الزمن لقيام أهلها بنعيها ودعوة علية القوم إلى جنازتها. يقول: «ومـن غرائـب هـذا الـدهر الغفل في اعتبار تحول العالم والتنويه بمضاعي الأسافل، أن هلكت عجوز لبني كـوثر، فاهتبل بنوها في السعي لها، وإنذار طبقات الناس لشهود جنازتهـا بأنفسـهم والمشـي على أعاظم القرية بنعيها، فسارعت طبقاتهم لشهود جنازتها فجيء بسـريرها، وابـن جهور الوزير يقدم حضارها ماشيًا على قدميه، قد ائتسى بـه كـل ذي منزلـة رفيعـة، ووقـف على جَدَثِها إلى أن ووريت وانفضَّ جمعها، ثم ضرب علـى قبرهـا قبـة عاليـة تمهيدًا للمبيت عليها طوال أسبوعها ومدة زيارة قبرها، حسبما كانت الجبـابرة تفعلـه في الأعصر الخالية على قبور الملوك الأعزة، فقضى العجب بمشاهدة هـذه النـادرة في امرأة من نساء حثالة العامة، مرددة في الخمول، لم يكن قط بينها وبين النباهة من كلا طرفيها نسبة في الدولة القريبة ولا البعيدة، ولا ظفـرت ببعـل مُثْـرٍ ولا ذريـة نبيهـة، عهدت ببعلها الشيخ مطرف ناجـل هـؤلاء الصـبيان مـن بنيهـا قـرِّيني حذقـة، أحـد سماسرة البُرِّ بقرطبة يروح بها يومه الأطول كميش الإزار أعظم أفراحه ظفره بقوت يومه، وكان مـع ذلـك كـثيرًا مـا ينتـاب الخانـات علـى قلـة وقمـاءة حالـه، فـيروح

(1) ابن حزم: طوق الحمامة، ص 88.
(2) الونشريسي، م. س. 1 / 323.
(3) ابن بسام، م. س. قسم 1، مجلد 1، ص 44.
(4) ن. م. قسم 1، مجلد 2، ص 595.

نشوان العشيات يمسح الأرض بأسماله، وكان له ضرب القرقرة، محكمًا لأفانين إيقاعها فسبحان الكبير المتعال نافل الأحوال مبدل العسر يسرًا[1].

وزيارة المقابر كانت من العادات الشائعة. فالبعض كان يزور مقابر الأهل للترحم، أو قبور الصالحين للتبرك وقضاء وقت بها. فيذكر ابن الخطيب أن الناس كلفوا بقبر أبي عبد الله المعروف بالمواق، وأولوا حجارته من التعظيم وجلب أواني المياه للمداواة ما لم يولوه معشاره في أيام حياته[2]. وزعم الناس أن رائحة المسك تفوح من قبر الصوفي ابن شاطر، وقصد قبره المرضى وأهل الحاجات وبقي القراء يقرأون القرآن عليه مدة طويلة، ويصدق على قبره بجملة كبيرة من المال كان يفتدى به طائفة من الأسرى[3].

ولم يقتصر الأمر على التبرك بقبور الصالحين من الزهاد والصوفية، بل تعدّاه إلى قبور بعض القادة الذين يُعْتَقَد في صلاحهم. فكان الناس يقصدون قبر الأمير يحيى بن غانية الموجود داخل المسجد الصغير المتصل بقبر باديس بن حبوس داخل القصبة بغرناطة للتبرك[4].

وإذا كانت زيارة المقابر ـ من حين لآخر أو في المواسم والأعياد ـ فرصة للتذكر والاعتبار والترحم، فقد كان بعض الناس يخرج للمقابر ترويحًا عن النفس في حالة الضجر خصوصًا إذا كانت بالمقبرة رابطة أو زاوية يلتقي بها الناس. فقد حكى أبو عمر بن سالم المالقي قال: «كنت جالسًا بمنزلي بمالقة، فهاجت نفسي أن أخرج إلى الجبّانة وكان يومًا شديد الحرارة، فراودتها على القعود، فلم تمكّني من القعود، فمشيت حتى انتهيت إلى مسجد يعرف برابطة الغبار وعنده الخطيب أبو محمد عبد الوهاب بن علي المالقي، فقال لي: إني كنت أدعو الله تعالى أن يأتيني بك وقد فعل، فالحمد لله. فأخبرتُه بما كان مني، ثم جلست عنده. فقال: أنشدْني، فأنشدتُه أشعارًا لأبي عبد الله بن البيِّن البطليوسي:

غصَبوا الصَّباحَ فَقَسَّموهُ خُدودا واسْتَوعَبُوا قضب الأراك قُدودا

(1) ابن بسام، ن. م. قسم 1، مجلد 2، ص 595.
(2) ابن الخطيب، م. س. 3 / 231.
(3) ن. م. ص 272.
(4) ن. م. 4 / 37.

ورَأَوا حَصَى الياقوتِ دونَ نُحورِهِم فتقلَّـدُوا شُـهُبَ النُّجـومِ عُقُـودا
واسْـتودَعوا حـدق المَهَـا أجْفـانَهُم فسَـبوا بهـنَّ ضَـرَاغِمًا وأُسُـودا
لم يَكْفِهِـم حـدُّ الأسـنَّةِ والظبـى حتَّـى اسـتعارُوا أعيُنًـا وخُـدودا
وتضـافروا بضـفائر أبـدوا لنـا ضـوء النهـار بليلـها معقـودا
صـاغو الثغـور مـن الأقـاحي بينهـا مـاء الحيـاة لـو اغتـدى مـورودا

فصاح الشّيخ وأغمِيَ عليه وتصبّب عرقًا، ثم أفاق بعد ساعة، وقال يا بنيَّ اعذُرْني فشيئان يقهراني ولا أملك نفسي عندهما: النظر إلى الوجه الحَسَن، وسماعُ الشعر المطبوع»[1].

بل إنّ بعض النساء اتّخذْن من زيارة المقابر فرصة للخروج والمجون ومحادثة الرجال الأجانب ومزحهن وملاعبتهن وكثرة الضحك مع الغناء في موضع الخشوع والاعتبار. وقد وصف ابن قزمان النساء اللاّئي يذهبن لزيارة المقابر في الأعياد وهنّ مزيّنات الوجوه:

كــل وجــه مــزين ليلــة العيــد ه بــرا
والبكــا بالمقــابر علــى الأحبــاب ذ مــرا
احتفــال الفجــايع فاحتفــال المســير
ودمــوع الترحــم في ثيــاب الشــطار[2]

واستغل الشّباب الماجن أيّام المواسم والأعياد للجلوس على طرقات المقابر لاعتراض النساء. وكثر الحُسّاب والقصاص بالمقابر، واتخذوا لهم أخبية للانفراد بالنساء بحجة الكلام في أسرارهن، واعتبرها ابن عبدون «مراودة وحيلة وسرقة، ولا يأتي إليهم من النساء إلا الفاجرات»[3].

وذكر ابن المناصف أنه يجب لفت أنظار الحكم وتنبيههم إلى منع اجتماع

---

(1) المقري، م. س. 3 / 403.
(2) ابن قزمان، زجل، رقم 48.
(3) ابن عبدون، م. س، ص 27.

النساء في الجبانات والمواضع التي يتخذنها مجالس للتنزُّه، وعلى من يمر عليهن من شُبَّان الرجال، وقد يعارضهن بتلك الحالة كثير من الفساق، وربّما جلبهم على المرور عليهن ما اعتيد في اجتماعهن، وعرف من أعراضهن، وقد يعمدن إلى نصب الأخبية على الجبّانات تباهيًا وزعمًا أن تستر من تطيل الجلوس منهن. وهذا أدعى إلى الشهرة والشر، وأشدّ لصرف أعين الفساق وقلوبهم إلى من فيها، مع ما يتوقع من جرأة من لا يتقي الله تعالى على موافقة المعاصي بها لاستتار الكائن بها عن كثير من الاطلاع عليه. واعتبر القاضي ابن المناصف أن كل هذا من المناكر التي يجب أخذها بالشدة ومنعها بالقوة(1)، ومع ذلك فبرغم محاولة القضاة والمحتسبين محاربة مثل هذه البدع الخارجة عن الإسلام، إلا أنهم لم يوفقوا.

وكثيرًا ما كانت تحدث الخلافات بين الأزواج بسبب إصرار المرأة على زيارة المقابر، تأبى عليه إلا الخروج أو تفارقه، فيضطر للخروج معها، فيرى أو يسمع أو يشاهد استمتاع الأجانب برؤية زوجته، فإذا غلبته الغيرة، يقع الضرب والخصام وينتهي الأمر بالطلاق.

فإذا كان الزوج ممَّن له رياسةٌ ولا يرضى أن يخرج مع زوجته ولا يقْدِر على تركها تسير وحدها لما يعلمه من مفاسد تُرتكَبُ في المقابر، يُضطرّ لإرسال من يصحبها ويكون عونًا لها من صبيّ أو عبد أو عجوز أو غير ذلك، فيكون أكثر فسادًا من خروجها وحدها، لأن أكثر الناس يهاب أن يبتدىء المرأة بالكلام أو المزاح إذا كانت حرة، فإذا وجدوا أحدًا ممن ذُكر، توصّلوا بسببه إلى ما يريدون بسبب توسّل الواسطة وتزيينه للعمل الذميم وتيسيره لذلك، وقد يكون بعضهم قد عدم الطرفين، أي أن الزوج ليس بصاحب منصب يستحي أن يسير مع زوجته، أو آخر لا يقدر على إرسال أحد معها وعنده غيرة لا يقدر على تركها تخرج وحدها وتأبى عليه إلاّ الخروج؛ فيضطر للخروج معها، ويمشي بعيدًا عنها. وفي هذا الوضع، يكون أصعب وأشد عليه، إذ يسمع بأذنيه ويرى بعينيه معاكسة المنحرفين لزوجته. فمنهم من يسكت على مضض ويرى ذلك من السياسة والستر على نفسه وعلى عرض زوجته، وإن غلبته الغيرة وضاق ذرعه بما يرى، يقع الضرب، وقد يؤول ذلك إلى الوالي أو الحاكم والحبس والطلاق وغير ذلك.

---

(1) ابن المناصف: تنبيه الحكام على مأخذ الأحكام، ص 339.

وخروج النساء على الدوابّ لزيارة المقابر كانت له مشاكله التي انزعج لها بعض الفقهاء. ففي ركوبهن على الدوابّ في الذهاب والإياب ومس المكاري لهن وتحضينه للمرأة في إركابها وإنزالها وحين مضيّها ربما يتعمد وضع يده على فخذها، وتجعل يدها على كتفه حتى لا تقع ويدها ومعصمها مكشوفان لا ستر عليهما، لا سيّما مع ما ينضاف إلى ذلك من الخواتم والأساور من الذهب والفضة، أو هما معًا، مع الخضاب في الغالب، وتقصد إظهار ذلك كله. وأثناء الطريق تناجي المكاري وتحدّثه كأنّه زوجها أو ذو محرم. يقول ابن الحاج: «والعجب أن زوجها وغيره يشاهدون ذلك بالحضرة ويعلمونه بالغيبة، وهذا فيه من المحرمات وجوه كثيرة وكل من يعاينهم من الناس سكوت لا يتكلمون ولا يغيرون ولا يجدون لذلك غيرة إسلامية في الغالب. فإنّا لله وإنّا إليه راجعون»[1].

وفي الأخير، لا بدّ من التأكيد على أن كل هذه المظاهر أو البدع التي صارت من الأعراف والتقاليد ليست من الإسلام في شيء، بل هي مكروهة، وشدد الرسول عليه الصلاة والسلام على النهي عنها. وفي فقه الجنائز الكثير من أقوال الرسول عليه السلام، التي تنهى بل تكاد تحرم مثل هذه العادات السيئة والتي لا تزال مستمرة إلى وقتنا الحالي.

* * *

(1) ابن الحاج، م. س. 1 / 261.

المصادر والمراجع

- ابن الأبار: التكملة. نشر عزت العطار، القاهرة 1956.
- ابن الأبار: الحلة السيراء. تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة 1963.
- ابن بسام: الذخيرة السنية. تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1978.
- ابن بشكوال: الصلة. الدار المصرية للنشر 1966.
- ابن الحاج: المدخل. ط 2، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ابن حزم: طوق الحمامة.
- ابن حيان: المقتبس. تحقيق د. محمود مكي.
- ابن الخطيب: الإجاطة. تحقيق محمد عبد الله عنان.
- ابن رشد: البيان والتحصيل.
- ابن رشد: الفتاوى.
- ابن سعيد: رايات المبرزين. تحقيق د. النعمان القاضي.
- ابن عبدون: رسالة في الحسبة. نشر ليفي بروفنسال.
- ابن عبد الرؤوف: رسالة في الحسبة.
- ابن عبد الملك: الذيل والتكملة.
- ابن قزمان: الديوان. تحقيق د. كورينتي.
- ابن المناصف: تنبيه الحكام على مآخذ الحكام.
- السقطي: رسالة في الحسبة.
- الشريشي: المقامات.
- عياض: ترتيب المدارك.

ـ المقري: نفح الطيب. تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1968.
ـ الونشريشي: المعيار. نشر وزارة الأوقاف بالمملكة المغربية.
ـ د. خلاف: القضاء في الأندلس.

* * *

انطباعات الرحالة المغاربة

عن مصر والمصريين

انطباعات الرحالة المغاربة عن مصر والمصريين

كانت رحلة المغاربة إلى الديار المصرية لا تنقطع، وكانت من الأمور العادية لأهل المغرب بمفهومه الواسع بعد دخول الإسلام، إذ كانت الرحلة لأداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة من أهم الغايات التي يحرص المسلم أن يستكمل بها دينه في حياته، ومن الأمور المهمة التي يتطلع إلى تحقيقها، وكان الحاج لا بد له أن يمر بالديار المصرية سواء كانت رحلته عن طريق البر أو عن طريق البحر، فكان الحجاج من جميع الطبقات وفئات المجتمع يمرون بمدن مصر وقراها، وكانت أهدافهم تتباين من هذه الرحلة، فالبعض كان يرى في الحج وزيارة الأماكن المقدسة فرصة لأخذ العلم من شيوخ هذه البلاد في رحلة الذهاب أو العودة، أو تكون فرصة للتجارة وعقد صفقات مع تجار البلاد التي يمرون بها، وربما الاستقرار وطلب المعاش.

وكانت نظرة المغاربة وانطباعاتهم عن مصر وأهلها تختلف من شخص إلى آخر حسب البيئة التي ترعرع فيها، وحسب تكوينه الثقافي ومستواه الاجتماعي، ومزاجه الخاص، فما يراه الأندلسي عاديًا ربما لا يستسيغه المغربي، وما يراه الحضري جميلاً لا يراه ساكن البادية أو الجبل كذلك، كما تختلف الانطباعات بحسب طبيعة النفس البشرية، فصاحب المزاج الحاد والتكوين القاسي والطبيعة الحادة، لا يتوافق مع صاحب المزاج الهادئ والطبيعة المرحة. كما أن الذي خرج قاصدًا العلم والأخذ عن الشيوخ يختلف من شخص إلى آخر، فالبعض منهم يرى أن ينتهز فرصة إقامته القصيرة فلا يضيع وقته في رؤية معالم البلاد وتأمل عادات الناس، وإنما يتوجه قاصدًا الشيوخ باحثًا عن رجالات العلم، لا يرى ما حوله أو ما تحت قدميه، كل همه جمع الكتب ولقاء الشيوخ، وحضور حلقات الدرس، والتردد على المجالس العلمية في المساجد والمدارس ومنازل العلماء ودكاكينهم، وحتى أثناء صحبتهم في الطريق[1]. وتكون أقصى غاياتهم تقييد أسماء الشيوخ وما أخذوه عنهم، والحرص على

---

(1) ابن رشيد: ملء العيبة، 3 / 91، 99.

إجازاتهم، وما حملوه معهم من مصنفات، تباهيًا بما حصلوا عليه، وتعاليًا على من لم يغادر وطنه، وهذا نراه واضحًا عند معظم الراحلين إلى المشرق، إذ كانت هذه الرحلة بمثابة السند العالي والتفوق والطريق إلى الوظائف العليا، والتطلع إلى مركز الصدارة بين العلماء، وخير مثل لهؤلاء القاضي أبو بكر بن العربي الذي لا يقصر في ذكر شيوخه وما أخذه عنهم وما حمله من كتب في جل مصنفاته، والكتب التي قرأها عليهم والتي أجازوه فيها، وليس كل من رحل إلى المشرق عاد عالمًا جهبذًا أو نجمًا ساطعًا، «فكم منهم رحل ولم يبلغ مراده، أو عاد بالنزر اليسير على حسب قدرته واستيعابه».

وكان عدد الداخلين إلى مصر من أجل طلب العلم فقط يصعب حصره فالمقري[1] ذكر ما يزيد على ثلاثمائة من الأندلسيين فقط الذين رحلوا من أجل العلم وحده وليس من أجل التجارة أو الحج، ويعترف بعجزه عن استيعاب كل من كانت له رحلة فيقول: «إن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال، ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب الشديد المحال، ولو أطلقنا عنان الأقلام فيمن عرفناه فقط من هؤلاء الأعلام لطال الكتاب وكثر الكلام، ولكنا نذكر منهم لمعًا على وجه التوسط من غير إطناب داع إلى الإملال، واختصار مؤد إلى الملام». فما بالك لو تتبع الراحلين من أهل العدوة المغربية! ويقول ابن العربي في «شواهد الجلة»: «وقد شاهدت من طلبة العلم بإفريقية والشام ومصر والساحل والعراق والحجاز ما لا يأتي عليه الإحصاء ولا ينال بالاستقصاء»[2].

وقد أثارت الرحلة إلى مصر خيال المغاربة، وشوقتهم إلى زيارتها لكثرة الحديث عنها وعن كثرة الناس بها، وازدهار المدارس وحلقات الدرس، وكثرة حكايات العائدين عن مشاهداتهم من غرائب ومشاهد ومزارات، ورخص أسعار وأمن ويسر في المعاش، مما شجع الكثير على الاستفسار والرغبة في شد الرحال يقول

(1) المقري: نفح الطيب، 2 / 5.

(2) د. حسين مؤنس: تاريخ الجغرافيا، ص 406.

ابن خلدون[1]:«وما زلنا نُحدّث عن هذه البلد، وبعد مداه في العمران، واتساع الأحوال، ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا، حاجهم وتاجرهم بالحديث عنه، سألت صاحبنا قاضي الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبا عبد الله المقري مقدمه من الحج سنة أربعين وسبعمائة فقلت له: كيف القاهرة؟ فقال: من لم يرها لم يعرف عز الإسلام. وسألت شيخنا أبا العباس بن إدريس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك، فقال: بلد ترى أهله كأنما انطلقوا من الحساب إلى الجنة، يشير إلى ما هم عليه من الكثرة ووفور النعمة، والأمن من طوارق الزمن. وحضر صاحبنا قاضي العسكر بفاس الفقيه الكاتب أبو القاسم البرجي بمجلس السلطان أبي عنان منصرفه من السفارة عند ملوك مصر، وتأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم سنة ست وخمسين وسألته عن القاهرة فقال: والله ما أدري كيف العبارة عن ذلك إلا أني أقول على سبيل الاختصار: إن كل ما يتخيله الإنسان ثم يراه دون الصورة التي تخيلها فيها، لاتساع الخيال عن كل موجود إلا القاهرة، فإنها لو أوسعت في تخيلها ما شئت، فما تراه إلا أعظم مما تتخيله، فأعجب السلطان والحاضرون لذلك».

وكان من أهم الأسباب التي شجعت المغاربة إلى الرحلة إلى مصر ما شاع عن أمنها ورخائها، والذي اتفق الرحالة على إثباته خلال سفرهم من الاسكندرية إلى أقصى الصعيد، فالعبدري[2] الذي لم يجد نقيصة إلا ألصقها بأهل مصر أثار انتباهه ما ساد البلاد من هدوء وأمان على الأموال والأرواح وشعور بالطمأنينة وارتياح البال فالمسافر ينتقل فيها في عمارة متصلة من قرية إلى أخرى دون أن يحس بخوف على نفسه أو ماله، أو يجد نفسه في قبضة اللصوص أو قطاع الطرق، يقول: «وما ظنك بأرض هي مسيرة شهر للمجد، وطيئة سهلة مغلة، ما بها قرية إلا وهي تناظر أخرى، ولا بستان إلا وهو يسامي آخر، ولا مدينة إلا وهي تشير إلى أختها، ما تسافر بها إلا في عمارة متصلة، وطمأنينة من الأرض متأصلة، والطرق في الصحراء غاصة بالخلق فكأن المسافر بها لم يزل في مدينة».

---

(1) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 247.

(2) العبدري: الرحلة، ص 145.

وإذا كانت آراء كثير من الرحالة المغاربة منصفة فيما سجلوه عما شاهدوه في مصر من جمال البنيان وكثرة المدارس والمستشفيات والعناية بأهل العلم، إلا أنهم ذكروا بعض السلبيات التي حدثت لهم وعلى رأسها معاملة أمناء الحدود وموظفي الديوانة، ولا شك أن هؤلاء الموظفين الذين يمثلون الوجه القبيح لأي بلد حتى في عصرنا مما يترك في النفس مرارة، وقد اعتبرها ابن جبير والعبدري والبلوي وغيرهم من الرحالة من الشناعة والأمور المهينة، إذ كان المسافرون من حجاج وتجار وطلاب علم يستبشرون برؤية منار الإسكندرية ويحمدون الله على نعمة الوصول بعد هذه الرحلة الطويلة التي قاسوا فيها الأهوال وكادوا يتعرضون للموت سواء الآتين عن طريق البحر أو البر فإن السرور والفرح بنعمة الوصول ما يلبث أن يتبدد، وينقلب فرحهم ترحًا بظهور أمناء السلطان الذين يصعدون إلى المركب لتقييد جميع ما جلب فيه، ويستحضر جميع من فيه من المسلمين فردًا فردًا وتكتب أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم، ويسأل كل واحد عما لديه من سلع أو مال ليؤدوا زكاة ذلك، ثم يستصحبوا معهم أحد الركاب ويرسلوه مخفورًا إلى السلطان ثم القاضي ثم يعرض على أهل الديوان ثم على جماعة من حاشية السلطان، وفي كل مرة يستفهم عن أنباء المغرب وسلع المركب ثم يخلي سبيله، ثم يتولوا بعد ذلك تفتيش باقي الركاب فردًا فردًا. يقول البلوي[1]: «شاهدنا الحساب وأرينا العذاب وملؤوا منا البيوت والرحاب، ثم أمْرت اليد على القليل والكثير، والحقير والنقير، والدفتر والقطمير، والرفيع والوضيع، والغني والفقير، وفتشت الأوساط، وعم الزحام والاختلاط، وكثر الهياط والمياط، حتى خرج المخزون والموزون، وبرز المعلوم والمختوم».

ورغم كل تلك الأهوال التي يقاسيها المسافرون في رحلتهم، وما يكابدونه من منغصات ومهانة على أيدي موظفي الحدود إلا أنهم كان يعاودون الرحلة مرة ثانية وثالثة، وابن جبير الذي عانى منهم وكان أول من سجل تجاوزاتهم وانتهاكهم حرمات المسلمين، نجده يعاود الرحلة مرة ثانية وثالثة، فقد زار مصر بعد سنوات

---

(1) البلوي: تاج المفرق، ص 197، وانظر رحلة ابن جبير، ص 29، العبدري: ص 93، 94، الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ص 571.

قليلة من رحلته الأولى سنة 585هـ وفي رحلته هذه كتب قصيدة طويلة إلى صلاح الدين يهنئه فيها بفتح بيت المقدس سنة 583هـ ويشكو إليه سوء معاملة رجال الحدود وأمناء الديوان للحجاج، ثم يعاود الرحلة للمرة الثالثة بعد وفاة زوجته عاتكة فيؤدي فريضة الحج ويعود ليستقر بالإسكندرية المدينة التي أطال في وصفها وأحبها فاستقر بها يحدث ويدرس في مسجدها، حتى توفي سنة 614هـ / 1217م وقد قارب الثمانين من عمره(1). فالمسافرون يتناسون ما حدث لهم في الديوانة إثر خروجهم معتبرين ما حدث مجرد عثرة اعترضت طريق الرحلة وعليهم أن يرموها خلف ظهرهم حتى لا يعكروا صفو رحلتهم خصوصًا بعد رؤية جمال مدينة الإسكندرية، يقول البلوي: «وبعد مرارة تلك المواقف المهينة، أعقبت حلاوة تلك المدينة»(2).

لقد استقر عدد كبير من المغاربة في مصر بعد دخول الفاطميين، وكونوا جاليات كبيرة في بعض المدن مثل الإسكندرية وبرنبال بالوجه البحري والقاهرة، وذكر ابن جبير(3) اهتمام السلطان بالمغاربة الوافدين على الإسكندرية، فأنشأ المدارس والمحارس لأهل الطلب والتعبد للذين يأتون من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم مسكنًا يأوي إليه ومدرسًا يعلمه الفن الذي يريد تعلمه، ويعين له راتبًا، وخصصت لهم حمامات ومارستانًا لعلاج من مرض منهم ووكل به أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء، وقد رتب فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول إلى المارستان من الغرباء خاصة، وينهون إلى الأطباء أحوالهم، ليتكفلوا بمعالجتهم، ومن أشرف هذه المقاصد أيضًا أن السلطان عين لأبناء السبيل من هؤلاء المغاربة خبزتين لكل واحد في كل يوم بالغًا ما بلغوا، ونصب لتفريق ذلك كل يوم أمينًا من قبله، فقد ينتهي في اليوم إلى تفريق ألفي خبزة وأزيد بحسب الكثرة أو القلة

(1) د. حسين نصار: مقدمة الرحلة، ط. ثانية، ص 7.
(2) البلوي: م. س. ص 197.
(3) ابن جبير، ص 32، 33.

هكذا دائمًا، ولهذا كله أوقاف حبسها السلطان عليهم، علاوة على ما عينه من زكاة العين، وأعطى أوامره بأنه في حالة العجز، عليهم أن يرجعوا إلى صلب ماله[1].

ولاحظ العبدري أيضًا كثرة المغاربة بمصر حتى أنه قال: «والمغاربة ينيفون على أهل البلاد كثرة لطيب الأرض وسعتها وكثرة أرزاقها، وربما تقاتلوا مع أهل الموضع فغلبوهم»[2]. فكان المصريون يسخرون من ذلك ويتندرون بأن مغربيًا سيحكمهم يومًا. يقول العبدري[3]: «وقد فشا على لسان الصغير منهم والكبير أن مغربيًا يملكهم لا محالة، ويتحدث بذلك عامتهم وخاصتهم». وأخبر أن ابن محارب ناظر ديوان الإسكندرية قال عندما طرق باب منزله ابن سعيد يطلب الإفراج عن كتبه وإعفائه من الديوانة: «لقد يصدعوننا هؤلاء المغاربة».

وكان معظم المغاربة الذين يستقرون بمصر يعملون بالتجارة أو الزراعة أو الأسطول، وقد شاهدهم الحسن الوزان[4] يزرعون الأرز بالوجه البحري ويحتكرون ضربه من برنبال بالقرب من رشيد. ويبدو أن بعض الحجاج المغاربة كانت تنقطع بهم السبل فلا يجدون عملاً، فيقبض عليهم ويرغمون على العمل بالأسطول إذا كانت لهم خبرة بالبحر، أما إذا كان موسراً فيطلب منه دفع الزكاة، يقول ابن سعيد[5]: وسائر الفقراء لا يتعرضون إليهم بالقبض للأسطول إلا المغاربة فذلك وقف عليهم لمعرفتهم بمعاناة البحر، وقد عم ذلك من يعرف معاناة البحر ومن لم يعرف. وهم في القدوم عليهم بين حالين: إذا كان المغربي غنيًا طولب بالزكاة وضيقت عليه السعاة، وإن كان مجرداً فقيرًا حمل إلى السجن حتى يحين وقت الأسطول.

وطلبة العلم المغاربة كثرت أعدادهم وكان لهم رواق خاص بهم في جامع

---

(1) ن. م. والصفحة.

(2) العبدري: م. س. ص 148. وانظر القدح المحلى ص 4.

(3) العبدري: م. س. ص 148. وانظر القدح المحلى ص 4.

(4) الحسن الوزان: م. س. ص 575.

(5) المقري: م. س. 2 / 348.

الأزهر، وتولى عدد من النابهين التدريس فيه وفي مدارس مصر. وبعضهم رأس هذه المدارس وتولى منصب القضاء[1].

وسكن معظم المغاربة في القاهرة بربض جامع أحمد بن طولون بالقرب من باب زويلة. وكانوا يشتغلون بالصناعة والتجارة وقد تحدث الحسن الوزان[2] عن هذه الجالية.

انطباعات المغاربة عن المدن والمزارات والناس:

يعتبر ابن جبير من أصدق وأدق وأنصف الذين وصفوا مصر مدنها وقراها، فقد أعطى صورة أقرب إلى الحقيقة من غيره في عبارات موجزة مفيدة وكلمات معبرة، ومن يقرأ رحلته يشعر بأن هدفه لم يكن لقاء العلماء والشيوخ وإنما السياحة والاستمتاع بمشاهدة المزارات وتأدية مناسك الحج، لذلك كان وصفه دقيقًا لما يشاهده، ويبدو ذلك في قياس الآثار وأعداد الأبواب والمنافذ. ومع أن العبدري أيضًا كان دقيقًا في وصفه للمدن وآثارها بل كان أدق الرحالة في ذلك إلا أنه صب لعناته على أهل هذه البلاد ولم يسلم بلد وأهله من عباراته الساخطة المليئة بالحقد، ولم يظفر بالمدح والثناء عدة مرات إلا ملوكها فوصفهم بأنهم أهل دين وعقائد سليمة وشفقة وحنان على المسلمين، وتَفَضُّل على الفقراء وحسن ظن بأهل الدين، وهم ركن الإسلام[3]. بينما لم يترك مذمة إلا ألصقها بالمصريين، وينفي عن أهلها كل فضيلة ويقول: رغم أنه شاهد أراذل الناس وأخبثهم في البلدان التي زارها إلا أنه لم ير مثل القاهريين بما هم عليه من خبث الطوية وحقارة النفس ودناءتها.

وقد تفوق الحسن الوزان على غيره من الرحالة في وصف مصر وموقعها وحدودها وطبيعة أهلها، فهو من المغاربة الذين تكلموا بشكل مفصل عن شعبها وعاداتهم وطعامهم وملابسهم وذكر محاسنها ومساوئها وغرائبها فكانت مادته غزيرة وملاحظاته قيمة وانطباعاته منصفة، وأثناء قراءة رحلته تحس أنك تصحبه في

---

(1) ن. م.
(2) الحسن الوزان: م. س. ص 583.
(3) العبدري: الرحلة، ص 128.

كل الأماكن التي زارها تنبهر معه وتشاركه السعادة في تجواله.

كانت الإسكندرية أول مدينة ينزلون بها بعد رحلة شاقة من البر أو البحر، وقد أجمع المغاربة الذين زاروها على حسن منظرها، وارتفاع مبانيها وإتقانها وسعة شوارعها وطرقاتها، فهي برية بحرية فيها من النعم والأرزاق والفواكه ما ليس ببلد، مع طيب هوائها وتربتها[1]. ووصفها ابن بطوطة: «بالزاهية بجمالها المُغْرب، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب»[2].

أعجب الرحالة المغاربة بالسراديب والمجاري التي كان الناس يحفرونها في الإسكندرية لإيصال الماء إلى البيوت على ما نفعل اليوم، ويصفها ابن جبير بأنها أبنية تحت الأرض وهو تعبير دقيق فأهل الإسكندرية انتفعوا بالسراديب الرومانية القديمة، ويعتبر أدق من وصف منار الإسكندرية الذي عاينه ودخله وصعد فيه القمة وذكر وجود مسجد في أعلاه، يقول: «وفي أعلاه مسجد موصوف بالبركة يتبرك الناس بالصلاة فيه، طلعنا إليه يوم الخميس الخامس لذي الحجة سنة 578هـ وصلينا في المسجد المبارك المذكور وشاهدنا من شأن مبناه عجبًا لا يستوفيه واصف»[3]. بينما نجد ابن عبد ربه الحفيد صاحب «الاستبصار»[4] الذي زار مصر تقريبًا في وقت ابن جبير يعدد البيوت في داخل المنار ويقدرها 364 بيتًا وعدد أبواب المنار الظاهرة بالخارج 22 بابًا، ويقول: «وهذا المنار من دخله ولم يعرف مسالكه تاه فيه وضل» وقد أطنب العبدري[5] الذي زاره في سنة 688هـ في وصفه وقياساته وارتفاعاته ولكنه وجد البيوت التي ذكرها ابن عبد ربه مغلقة.

وعندما زاره ابن بطوطة في أول زيارة من جمادى الأولى سنة 725هـ. وجد أحد جوانبه قد تهدم، وعندما زاره في رحلة العودة سنة 750هـ كان قد استولى عليه

(1) ابن عبد ربه الحفيد: الاستبصار، ص 100.

(2) ابن بطوطة: الرحلة، 1 / 179.

(3) ابن جبير: م. س. ص 32.

(4) ابن عبد ربه: م. س. ص 96.

(5) العبدري: الرحلة، ص 91، 92.

الخراب بحيث لا يمكن الصعود إلى بابه[1]، وكان المنار قد تهدم تمامًا عندما زار الحسن الوزان الإسكندرية سنة 925هـ إذ لم يأت على ذكره.

وإذا كان المنار قد فتن كل من رآه واعتبروه من العجائب، فقد كان عمود السواري من أغرب ما شد انتباههم يقول العبدري[2] «ومن أغرب ما رأيت بها عمود من الرخام بظاهرها يعرف بعمود السواري وهو حجر واحد مستدير عال جدًا على قدر الصومعة المرتفعة يبدو من بعيد بارزًا في غابة النخيل مرتفعًا عنها، ولا يعلم كيف أقيم ولا كيف ثبت هناك مع الرياح والعواصف وهو ما لا يمكن تحريكه البتة».

والحسن الوزان[3] أول من ذكر قبر الإسكندر بالإسكندرية والذي اندثرت معالمه مع الأيام حتى لم يعد يستدل عليه، فقد ذكر أنه رأى ضريحاً في بيت صغير منخفض في قلب المدينة وسط الأطلال، توقد فيه الأنوار ليلاً ونهارًا، والناس يأتون إليه من جميع أنحاء البلاد تبركًا بدعوى أنه قبر ذي القرنين المذكور في القرآن الكريم.

لقد أجمع الرحالة المغاربة على جمال الريف المصري وطيبة أهله وعمارة قراه على ضفتي النيل وكثرة أسواقه، وافتتنوا بجمال النيل وعذوبة مائه، واعتبروه من عجائب الدنيا الوحيد الذي يذكر بالنهر واليم، فالمسافر في النيل أو على بره لا يشعر بالضجر أو عدم الأمن، كما لا يحتاج راكب النيل لاستصحاب الزاد معه[4]، فالأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر ومن مصر إلى أسوان بالصعيد[5].

ومصر أي مدينة الفسطاط تمييزًا لها عن القاهرة، وهاتان المدينتان أدهشتا كل من زارهما من الرحالة المسلمين وغيرهم، فعندما يصلونها يتملكهم العجب من علو مبانيها التي يبلغ ارتفاع بعضها خمسة وست وسبعة وثمان طوابق، وربما سكن الدار

---

(1) ابن بطوطة: م. س. ص 181.
(2) العبدري: م. س. ص 91.
(3) الحسن الوزان: م. س. ص 573.
(4) العبدري: م. س. ص 145.
(5) ابن بطوطة: م. س. ص 201، ابن جبير ص 35، 36.

المائة وأكثر[1]، كثرت بها المدارس الفخمة والمساجد الجميلة، وازدحمت بالناس، قال عنهم العبدري[2]:«وساكنها يحاكي عديد الرمل» ويصفها ابن بطوطة[3]:«بأم الدنيا وقرارة فرعون ذي الأوتاد ذات الأقاليم العرِيضة، مجمع الوارد والصادر، ومحط رحل الضعيف والقادر، وبها ما شئت من عالم وجاهل، وجاد وهازل، وحليم وسفيه، ووضيع ونبيه، وشريف ومشروف، ومنكر ومعروف، تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها، شبابها يجد على طول العهد، وكوكب تعديلها لا يبرح منزل السعد». أما ابن خلدون[4] فقال عندما وصلها: «فرأيت حضرة الدنيا وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسي الملك، تلوح القصور والأواوين في جوه، وتزهر الخوانك والمدراس بآفاقه، وتضيء البدور والكواكب من علمائه».

وقد بلغ من كثرة عدد سكانها أن من يدخلها من الجمال التي تحمل لها الماء كل يوم في الصيف سبعة آلاف وفي الشتاء أقل، ما عدا البغال والحمير والسقائين الذين بالزقوق وغيرهم، وكان عدد دكاكين السقائين بالقاهرة وحدها ستين ألفاً وكان ما عدا السقائين بالأكواز والأكواب في الطريق والأسواق[5].

وهؤلاء المغاربة كانوا ينزلون في الفنادق أو الزوايا أو عند بعض العلماء والقضاة أو في المدارس، فابن جبير وصاحبه الطبيب أحمد بن حسان، نزلا بفندق أبي الثناء في زقاق القناديل بمقربة من جامع عمرو بن العاص، في حجرة كبيرة على باب الفندق المذكور[6].

ونزل العبدري بالمدرسة الكاملية[7]، والبلوي نزل بفندق قرب جامع أحمد بن

(1) أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب، ص 84، الإدريسي: م. س. ص 323.
(2) العبدري: م. س. ص 125.
(3) ابن بطوطة: م. س. ص 201.
(4) ابن خلدون: م. س. ص 246.
(5) البلوي: م. س. ص 218، ابن بطوطة: م. س. ص 203.
(6) ابن جبير: م. س. ص 37.
(7) العبدري: م. س. ص 128.

طولون[1]، وابن بطوطة كان ينزل عند من اشتهر من القضاة أو ينزل بالزوايا[2] حيث يجد المأوى وحسن الاستقبال دون مقابل.

وكانت المزارات التي يحرص المغاربة على رؤيتها في الفسطاط والقاهرة: الأهرام والمدارس والمارستان والقرافة. وقد وقفوا كغيرهم مبهورين من بناء الأهرام وعظمتها، وأطنبوا في وصفها[3].

وكثرت إشادتهم بأبهة مدارسها ومبانيها وزخرفتها والأوقاف الكبيرة التي حبست للإنفاق عليها وتسهيل الحياة على طلبة العلم، وتيسيره[4].

أما المارستان خصوصًا مارستان قلاوون فقد أشادوا به وبنظامه والأوقاف الضخمة التي أوقفت عليه للإنفاق عليه وصيانته، فرتب فيه الأطباء ومن يعالج المرضى ويتفقد أحوالهم صباحًا ومساء، ووفرت له الأدوية والأطعمة من لحوم الطيور والأغنام وتباين أصنافها، ووضعت في مقاصيره أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى. وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى ولهن أيضًا من يتكفلهن، ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء عليها شبابيك الحديد للمجانين، ووفر لهم من يقابلهم ويتفقد أحوالهم، وعندما يتم شفاء أي مريض يصرف له كسوة ودراهم لنفقاته، والسلطان يشرف بنفسه ويتفقد أحوال المرضى والسؤال الدائم عن حسن سير العمل به[5].

وحرص المغاربة على زيارة القرافة ومشاهدتها، فهي تحوي قبور العلماء والصالحين وعدد كبير من الصحابة وآل البيت، وكانت القرافة من الأماكن التي أطنب الرحالة الحديث عنها وعن عادات المصريين واهتمامهم بها، والاحتفال والتبرك بها، وتنافسهم في بناء القباب الحسنة وإقامة الدور بها، وترتيب القراء يقرأون القرآن ليلاً ونهارًا بالأصوات الحسان ولهم أرزاق دائمة، ومنهم من يبني

---

(1) البلوي: م. س. ص 215.
(2) ابن بطوطة: م. س. ص 194 وما بعدها.
(3) ابن جبير: م. س. ص 50، ابن عبد ربه الحفيد: م. س. ص 103، أبو حامد الغرناطي: م. س. ص 88.
(4) التجيبي: م. س. ص 4.
(5) ابن جبير: م. س. ص 48، التجيبي ص 4، 5، البلوي ص 218، 219، ابن بطوطة ص 203.

بجانب المقبرة الزاوية والمدرسة، وكانت عادة المصريين الخروج في كل ليلة جمعة وليلة النصف من شعبان للمبيت بها بأولادهم ونسائهم، يطوفون على المزارات الشهيرة وتكون في هذه الأيام عامرة بباعة أصناف الأكل والمشارب[1]، واعتبرها البلوي مدينة منفردة بنفسها مستقلة بأسواقها ومساجدها واعتبرها إحدى العجائب بما تحتوي عليه من مشاهد الأنبياء وآل البيت والصحابة والتابعين والعلماء والأولياء وذوي الكرامات الشهيرة[2].

أما مشهد الحسين والسيدة نفيسة والسيدة زينب والإمام الشافعي فكانت لهذه المشاهد انطباعات مختلفة كلها تعبر عن الإعجاب الشديد والاعتراف بالعجز عن وصفها، فابن جبير[3] يتحدث عن مسجد الحسين بقوله: لا ينبغي لعاقل أن يتصدى لوصفه لأنه يقف موقف التقصير والعجز، وكان من أهم ما لفت نظرهم فيه حجر موضوع في الجدار يستقبل الداخل لونه أسود حالك شبه المرآة الصقيلة يصف الأشخاص[4].

ومن العجائب التي ذكرها أبو حامد الغرناطي الذي زار مصر سنة 510هـ المقصورة الموجودة بجامع عمرو بن العاص كتب فيها القرآن الكريم كله في ألواح من الرخام الأبيض بالنقش الكوفي، وتلك الألواح في حيطان المقصورة من أسفلها إلى أعلاها، وجعلوا أعشار القرآن الكريم وآياته وأعداد سوره بالذهب الأحمر والكتابة باللازورد الجيد، فيقرأ الإنسان جميع القرآن وهو جالس بالمقصورة[5]، وبالجامع عمود من الرخام فيه صورة آدمي كأنه راهب[6].

كما تحدثوا بإعجاب عن قنديل الفضة المعلق بجامع عمرو والذي يشبه القبة

(1) ابن جبير: م. س. ص 48، التجيبي ص 4، البلوي ص 223، ابن سعيد: م. س. ص 10، العبدري ص 152، ابن بطوطة ص 205، 206، الحسن الوزان ص 585.

(2) البلوي: م. س. ص 223.

(3) ابن جبير: م. س. ص 47، 48، التجيبي ص 9، العبدري ص 149، البلوي ص 221.

(4) التجيبي: م. س. ص 9.

(5) أبو حامد الغرناطي: م. س. ص 83.

(6) أبو حامد الغرناطي: م. س. ص 83.

فيه أربعة آلاف موضع للسرج من الفضة والطبق الذي في أسفل القنديل معلق تحته من الفضة وقطره سبعة عشر شبرًا[1].

واعتبروا مسجد الروضة في وسط النيل الذي بناه الخليفة المأمون ومقياس النيل الملحق به لا نظير له، وقد زادته المنازل والمتنزهات وأماكن اللهو في هذه الجزيرة قيمة كبيرة[2].

وعلى العموم فقد كانت أحياء مصر والقاهرة ومتنزهاتها خصوصًا ما بين القصرين الذي أسهب في وصفه الحسن الوزان والذي عده لا نظير له في العالم بما يحويه من حوانيت تضم جميع أصناف النشاط الاقتصادي، وكانت الأزبكية واللوق وبولاق وبركة الحبش من الأماكن المهمة للترويح عن النفس[3].

أما أهل مصر وعاداتهم فقد أثارت إعجاب واستغراب الكثيرين من المغاربة فمنهم من أعجبته ومنهم من استنكرها واستقبحها، فقد أدهشتهم حركة المصريين الدائبة التي لا تسكن ليلاً أو نهارًا[4]، وكثرة احتفالاتهم التي كانت تتداخل مع احتفالات أقباط مصر مثل خميس العهد في الأسبوع الأول من مايو وهو عيد يحتفل به في الإسكندرية على الخصوص فيخرج الناس بالأطعمة والأشربة ولا بد أن يكون بينها العدس إلى منار الإسكندرية فيدخلون فيه فمن ذاكر لله ومصل ومن لاه ومتفرج فيقيمون إلى منتصف النهار ثم ينصرفون[5].

وقد وصف ابن عبد ربه[6] احتفال المصريين بالغطاس وقال عنها إنها من العجائب وأن لهذه الليلة بمصر شأن عظيم وهي في العشر تمضي من يناير وذلك الوقت يستوي مد النيل ويأخذ في الانحطاط ويكون ماؤه أصفى ما يكون، ويخرج جميع الناس ممن يقدر على الخروج في تلك الليلة وقد أعدوا ما أمكنهم من الأطعمة

---

(1) أبو حامد الغرناطي: م. س. ص 84.
(2) ابن جبير ص 52، أبو حامد الغرناطي ص 84، 85.
(3) الحسن الوزان: م. س. ص 580، 581.
(4) ابن جبير ص 35، العبدري ص 129.
(5) ابن عبد ربه: م. س. ص 98.
(6) ابن عبد ربه: م. س. ص 49.

والأشربة، ولبسوا أحسن ما عندهم من الملابس وأظهروا ما أمكنهم من الجواهر وأواني الذهب والفضة وأحضروا جميع الملاهي ويدخل الناس في الزوارق إلى النيل ومنهم من يدخل من الدور المشرفة على النيل ويشعلون المشاعل والشمع الكثير، ويشعل صاحب مصر الشمع على جانبي النيل فيحرق في تلك الليلة من الشمع ما لا يحصى عدده، ويغطس أكثر الناس في النيل ومن لم يغطس يرش عليه بالماء ويزعمون أن ذلك أمان من المرض.

ومن الاحتفالات الإسلامية التي لم يعهدها المغاربة في بلادهم يوم الركبة[1] وهو عصر يوم التاسع والعشرين من شعبان للاحتفال برؤية هلال رمضان ويوم دوران المحمل[2] وهو يوم مشهود في مصر يجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ثم يطوفون الفسطاط والقاهرة بالمحمل وهي كسوة الكعبة المهداة من مصر إلى الكعبة الشريفة ويكون ذلك في شهر رجب لتحريك البواعث والأشواق لتأدية مناسك الحج. وقد حضر ابن بطوطة هذه الاحتفالات وأسهب في وصفها.

ولاحظ معظم الرحالة المغاربة وغيرهم سماحة المصريين، وروحهم المرحة وحبهم للفكاهة، وصفهم الإدريسي[3] بقوله: «وفي أهلها رفاهة وظرف شامل وحلاوة، لا تشتغل نُفوسُهم بهمٍّ، ولا تعقد قلوبُهم على غمٍّ، وهم أهل طرب وسرور ولهو[4]، بينما يقول عنهم الحسن الوزان[5] بأنهم: «لطفاء مرحون ولا يبخلون بالكلمات الطيبة، لطفاء المعشر يغلب عليهم الكرم، وأكثرهم سمر البشرة»، بينما لاحظ البعض سرعة غضبهم وتحارشهم إذا احتك بهم غريب أو حدث بينهم خلاف على أتفه الأسباب ثم سرعة تصالحهم ونسيان ما حدث بينهم، حتى أنهم يجلسون لتناول الطعام بعدها[6] وكأن شيئًا لم يحدث. وفي الأسواق تسمع تبادلهم

---

(1) ابن بطوطة: 196.

(2) ن. م. ص 221.

(3) الإدريسي: م. س. ص 323.

(4) ابن بطوطة: م. س. ص 203.

(5) الحسن الوزان: م. س. ص 564، 594.

(6) العبدري: م. س. ص 188، الوزان ص 593.

للنكات التي تخدش الحياء[1].

واتصف المصريون بحسن الهندام وتنوع لباسهم، ففي الشتاء يلبسون أقمشة صوفية وبعض الثياب المحشوة بالقطن، وفي الصيف يلبسون قميصًا طويلاً من قماش رقيق وفوقه نوع من ثوب من قماش مصنوع من حرير مقلم بالألوان أو ثوبًا من الحرير ويضعون فوق الرأس عمامة كبيرة من قماش الكريب المستورد من الهند، وقد لفتت عمامة قاضي الإسكندرية عماد الدين الكندي وأدهشت ابن بطوطة والتي وصفها «بأنها عمامة خرقت المعتاد من العمائم، لم أر في مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها، رأيته يومًا قاعدًا في صدر المحراب، وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب»[2]. وأعجب التجيبي بحسن لباس وهندام البهاء القفطي الذي كان يلبس في إصبعه خاتمًا عظيمًا «ما رأيت في يد أحد من المشايخ خاتمًا على قدره، قرأت عليه منقوشًا أعوذ بكلمة الله التامة من غضبه وأليم عقابه، وشر عباده، ومن همزات الشياطين»[3].

وأما لباس النساء فيظهر فيه البذخ، ويخرجن متبرجات بالحلي التي يلبسنها على شكل أطواق على الجبين وفي العنق، ويضعون فوق رؤوسهن عصابة غالية الثمن، ضيقة تعلوها ريشة على شكل أنبوب، وتتألف كسوتهن من ثوب جوخ ذي أكمام طويلة وتختلف طبيعة القماش على حسب قدر المرأة ويكون مطرزًا بتطريزات بديعة ومفصلاً بعناية، ويلففن أجسامهن بوشاح من قماش القطن الرقيق المستورد من الهند ويضعن على وجوههن برقعًا صغيرًا أسود اللون من قماش غاية في الرقة، وينتعلن في أقدامهن خفًا أو أحذية جميلة، وتتمتع المرأة المصرية بحرية كبيرة وبكثير من الاستقلال فعندما يذهب الزوج إلى عمله أو دكانه تلبس الزوجة وتتعطر ثم تستأجر حمارًا وتذهب لتتنزه في المدينة ولزيارة أهلها وأصدقائها[4].

---

(1) الحسن الوزان: ن. م.

(2) ابن بطوطة: م. س. ص 185.

(3) التجيبي: م. س. ص 175.

(4) الحسن الوزان: م. س. ص 592.

وقد استنكر كثير من الرحالة المغاربة خروج المرأة المصرية وتواجدها في الأسواق والمتنزهات ومشاهدتها الاحتفالات والملاهي مع الرجال دون حرج وتعود الرجال المصريين على ذلك دون أن يجدوا فيها أي غضاضة أو غرابة.

ومن الانطباعات السيئة عن المصريين التي استهجنها المغاربة عادة الأكل في الأسواق والطرقات والمحافل والتي ألفها الكبير والصغير والشريف والوضيع، واعتبرها العبدري[1] من قلة الحياء ووضاعة الأخلاق ونقص الدين. ولتعود المصريين على الأكل خارج منازلهم كان اهتمامهم كبيرًا بحوانيت الطعام، وأنواع الشراب المصنوع من كل أنواع الزهور والحلى، وكان يباع في قماقم زجاجية أو من قصدير بديع ومنقوش بفن ومهارة، وانتشرت محلات الحلوى التي عرضوها بشكل جميل، وكانت المطاعم تظل مفتوحة طوال اليوم إلى منتصف الليل[2]، تقدم فيها جميع أنواع اللحوم والحلويات التي تقوم بطهيها طباخات ماهرات أصل تعليمهن من قصور الخلفاء الفاطميين، يقول عنهن ابن سعيد: «لهن في المطبخ صنائع عجيبة ورياسة متقدمة»[3].

ومن الأشياء الجميلة التي لفتت نظر بعض الرحالة المغاربة عناية المصريين بتشجيع النبهاء من الصناع والحرفيين، فإذا ابتدع أحدهم شيئًا جميلاً، أو ابتكر شيئًا لم يسبق إليه، احتفلوا به فيكسى عباءة من الحرير ويطوفون به من دكان إلى آخر مصحوبًا بالموسيقى، ويمنحه كل صاحب دكان مبلغًا من المال يقول الحسن الوزان[4]:«وقد رأيت في القاهرة رجلاً حاز على هذا التكريم لأنه صنع سلسلة لبرغوث كان يمسك به مكبلاً فوق ورقة، وكان أحد رفاقه يريه للناس ويجمع النقود».

وكانت مهارة بعض المصريين في تدريب بعض الحيوانات وترويضها مثارًا لدهشة هؤلاء الرحالة مثل تدريب الحمير والكلاب والماعز والقرود والدببة على

(1) العبدري: م. س. ص 129.
(2) الحسن الوزان: م. س. ص 580.
(3) الحسن الوزان م. س. ص 593.
(4) المقري: م. س. ص 350.

القيام بأعمال عجيبة ومضحكة تدخل السرور والبهجة على النظارة، ومن الذين ذكروا هذا الأمر عبد الرحمن بن محمد بن معافى[1] وعبد الواحد بن محمد صاحب «الصلاة والأحكام»[2] اللذان زارا مصر في عهد المنصور بن أبي عامر، يقول ابن معافى: إنه عندما كان بمصر مر به قرد على دابة وبيده سوط «فوقفت متعجبًا فرأيته قد تهيأ لضربي بذلك السوط الذي كان بيده، فلولا أن زلت من طريقه لضربني به»[3]. وأشار الحسن بن الوزان[4] بتفصيل كبير إلى أماكن اللهو التي يتجمع فيها هؤلاء المشعوذين مع حيواناتهم، وتحدث عن براعة تدريب الحمار حتى أنه يستطيع أن ينام على ظهره ويرفع قوائمه في الهواء نافخًا بطنه متظاهرًا بالموت، أو يتصنع العرج وغيرها من الحركات الغريبة العجيبة والمسلية، كما تحدث عن المنجمين الذين يكشفون الطالع بواسطة الطير، وقد ذكرها العياشي ووصف ما رآه متعجبًا خارج القلعة من وسائل التسلية باستعمال الحيوانات، ويختم معقبًا ومستحسنًا: «وبالجملة فأهل مصر لهم ذكاء زايد، وحيل غريبة قد سخرت لهم أنواع الحيوانات فقليل من أصناف الحيوانات ما لا يوجد عندهم مسخرًا».

ولا شك أن براعة المصريين في ترويض وتدريب الحيوانات، جعلهم يحسنون استعمال الحمير والبغال في وسائل السفر والتنقل بين المدن وكانت لهذه الحيوانات أماكن خارج أسوار المدن وعند أبوابها، تسمى بالموقف بها الحمير والبغال المدربة بأعداد كبيرة. يصفها ابن سعيد[5] بأنه لا عهد له بمثلها في بلد من البلاد. وقد امتازت هذه الحيوانات بالذكاء ومعرفة الطرق والمسالك وطرق الذهاب والعودة دون الحاجة إلى من يقودها، فالذي يستأجر أحد هذه الحيوانات لا يحتاج إلى قيادتها،

---

(1) ترجمة عبد الرحمن بن معافى الشاطبي في الصلة، 1 / 268.

(2) عبد الواحد بن محمد بن وهب المقبري توفي سنة 456هـ، الصلة، 1 / 365، والمغرب 1 / 231، ترتيب المدارك 3 / 225.

(3) مجهول: التنبيه على المغالطة والتمويه وإقامة المال عن طريق الاعتدال بالبرهان الكافي، مخطوط بالأسكوريال، رقم 296 ورقة 25.

(4) الحسن الوزان: م. س. ص.

(5) المقري: م. س. ص 339، ابن سعيد، المغرب، 1 / 5.

وما عليه إلا أن يتركها تسير وحدها وسوف توصله إلى مقصده وتنتظر لحين العودة فترجع إلى البيت، ولا يبقى عليه إلا أن يتركه يعود وحده إلى حظيرته. وقد أشار الوزان[1] إلى موقف مدينة رشيد الكبير الذي ينقل الركاب ما بين المدن والإسكندرية في زمن قصير في مسالك تعرفها هذه الدواب جيدًا، كما أشار إلى الموقف الكبير عند باب زويلة والذي تحمل الناس ما بين الفسطاط والقاهرة بسرعة كبيرة لم يتعودها هؤلاء المغاربة مما كان يحدث أن يقع الراكب غير المتعود على ركوبها، وكان لابن سعيد حادث جعله يفضل قطع المسافة بين الفسطاط والقاهرة على قدميه[2].

وإذا كان الرحالة المغاربة قد فوجئوا بالقاهرة مدينة كبيرة تموج بالناس من جميع الأجناس من كل حدب وصوب يضيع فيها الجميع، فالبعض منهم لم يستطع أن يتجاوب مع هذه المدينة الصاخبة فانكمش على نفسه وشعر بالغربة والتيه، فنقم على أهلها عدم الاهتمام به، أو معرفة قدره، لا يسألونه من هو أو لأي غرض أتى، ولم يستوعب أن كثرة الوافدين على القاهرة وأهلها جعلهم لا يحسون بالغريب، فكل من حل بها من المسلمين فهو مواطن مثلهم، البلد بلده، فلا معنى للاحتفال باستقباله، والاجتهاد في إكرامه، فكل من زارها يعرف هدفه ومبتغاه، فله أن يبحث عن غرضه بالسؤال وسيجد من يدله ويساعده ويكرمه ويوصله إلى ما يريد[3]، بينما مدن مصر الأخرى وقراها لم تتعود هذا الكم الكبير من الوافدين، فأي غريب نزلها يحس به أهلها فيحتفون به[4].

ومن الطريف أن المصريين لم يأخذوا هذا النقد اللاذع من بعض الساخطين الغرباء على أنه إهانة مقصودة أو سوء نية، بل أخذوه بروح متسامحة مقدرين ظروف

---

(1) الحسن الوزان: م. س. ص 574.

(2) ابن سعيد: المغرب، الجزء الأول الخاص بمصر، ص 6.

(3) فالعبدري الذي ذم أهل مصر ووصفهم بكل نقيصة أكرمه العالم الكبير شرف الدين الدمياطي وأنزله عنده في المدرسة الظاهرية عند عودته من الحج مريضًا وخصص له الطبيب لعلاجه وتفقده حتى شفي من مرضه.

العبدري: الرحلة، ص 138.

(4) التجيبي: مستفاد الرحلة، ص 173.

هؤلاء الغرباء، وابن سعيد[1] ذكر روايات تؤيد ذلك.

* * *

(1) اختصار القدح المحلى ص 212، المغرب ص 9.

المصادر والمراجع

- ابن الإدريسي: نزهة المشتاق. بالرم 1972.
- البلوي: تاج المفرق. تحقيق الحسن السايح، اللجنة المشتركة للمملكة المغربية ودولة الإمارات.
- ابن بطوطة: الرحلة. تحقيق د. عبد الهادي التازي.
- التجيبي: مستفاد الرحلة.
- أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب. نشر جاريل فرناند 1925.
- الحسن الوزان: وصف أفريقيا. ترجمة د. محمد صبحي، د. الأخضر غزال، دار الغرب 1983.
- د. حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد 1967.
- ابن جبير: الرحلة. تحقيق د. حسين نصار.
- ابن رشيد: ملء العيبة. تحقيق د. الحبيب بن الخوجة.
- ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب. تحقيق د. شوقي ضيف، ط 3، القاهرة 1978.
- ابن سعيد: القدح المحلى. تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة 1959.
- العيدري: الرحلة. تحقيق د. محمد الفاسي.
- ابن عبد ربه الحفيد: الاستبصار. تحقيق د. سعد زغلول، جامعة الإسكندرية 1958.
- مجهول: التنبيه على المغالطة والتمويه وإقامة المحال عن طريق الاعتدال بالبرهان الكافي. مخطوط بالاسكوريال رقم 296.
- المقري: نفح الطيب. تحقيق د. إحسان عباس.

***

الفهرس

مقدمة	9
آراء في طلب العلم وآدابه لابن حزم	17
معاهد العلم والتعليم في الأندلس في عهد المرابطين	39
أسرة ني حمدين ودورها السياسي في الأندلس	53
ابن طفيل نتاج عصره	71
علاقة الأندلس بمملكة قشتالة من خلال الأقليات إلى القرن السابع الهجري	85
أضواء على معاملة المرابطين لليهود من خلال نازلة الحكيم ابن قمنيل	105
دور الجبل في قيام دولة الموحدين	125
رباط الفتح وسلا على عهد الموحدين	137
الأعياد ومظاهر الاحتفال بها	159
طقوس الجنائز	193
انطباعات الرحالة المغاربة عن مصر والمصريين	215
الفهرس	237

❊ ❊ ❊

دار الغرب الإسلامي
تونس
لصاحبها الحبيب اللمسي
6 نهج الدالية بالفي - تونس - تلفون: 0021671393360 - فاكس: 0021671396545 - خليوي: 216-96-346567
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.: 200 - R.P. 1015 TUNIS

الرقم : 494/ 1000/ 1/ 2009

التنضيد : عمّان ـ الأردن

الطباعة : دار صادر ـ بيروت ـ لبنان

Andalusian Studies
in Politics and Society

By
'Iṣmat A. Dandash

Dār al-Gharb al-Islāmī
Tunis 2009